

ذو الرُّمة

شاعر الطبيعة والحب

تأليف

كيلافي حسن سند



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

تصدير

هذه الدراسة عن ذي الرمة « الشاعر الأموي » . حاولت فيها أن أستكشف عالمه النفسي ، والفنى من خلال شعره . بعد أن لفتنى الى أهميته ما كتبه المستشرق الألماني « بروكلمان » حين قال :

« وذ الرمة يحسن مطابقة الحروف للمعاني فيصور ضرب رجل الجندب على الرمل بترديد الراء والضاد » .

وقد اعتمدت فى دراسته على « ديوانه » الذى نشره « مكارتنى » فى كمبردج ١٩١٩ م بعد أن انتسخت لنفسى نسخة خاصة منه . . . وحاولت أن أتجنب ما يقع فيه كثير من الدارسين من الانسياق وراء الدراسة التاريخية السهلة لعصر الشاعر وحياته ؛ أو الانسياق وراء التفسيرات الاجتماعية والنفسية لأحداث حياته مهملًا الجانب الفنى ، الذى هو أهم ما فى حياة الفنان - كما يفعل العقاد - فى تراجمه ، وإنما توخيت الجمع بين الأسلوبين ، فدرست حياته ،

وكشفت عن خبايا نفسه المحبة للشاعرة ، كما اهتمت بالكشف عن مزايا أسلوبه الخاصة ؛ التي تجعله - في رأيي - في مصاف الفنانين المجددين ، لا في المعاني والأفكار ، وإنما في اللغة أيضا بما أحدثه في أسلوبه من مخالقات لغوية ، اعتبرها النحاة واللغويون والنقاد القدامى من قبيل الشاذ ، ويعتبرها النقد المعاصر من قبيل إعادة البناء اللغوي ليلائم البناء النفسى للشاعر أو « كسر البناء » كما يطلق عليها ذلك الدكتور محمد مندور . ولقد استهديت في ذلك بالكثير من القراءات في علم النفس ، واللغة ، وما تقدمنى به الباحثون من دراسات ، وأخيرا فأننى أمل أن أكون بعملى هذا استطعت أن أكشف عن وجه هذا الشاعر العملاق غبار الزمن .. ليهتم به الباحثون والدارسون وعشاق الأدب .

كيلانى حسن سند

١٩٧٠

الباب الأول

الفصل الأول

ذو الرمة : حياته ونشأته

حياته :

هو غيلان بن عقبة بن بيهس ، يكنى أبا الحارث ، ولد عام ٧٧ هـ فى خلافة عبد الملك بن مروان ، ينتمى الى صعب بن ملكان ابن عدى بن عبد مناة (١) ويمتد نسبه الى مضر ، وعدى التى ينتمى اليها تكون مع تميم ؛ وعكل ، وضبة - الرباب التى يفخر بها كثيرا فى شعره ؛ والرباب بطن من بطون بنى تميم .

يقول ذو الرمة فى أبيات يهجو فيها هشاما المرثى ، مسقطا قبيلته امرأ القيس من عداد بنى تميم :

يعد الناسبون الى تميم بيوت العز أربعة كبارا (٢)

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٣٦ .

(٢) الناسيون : العارفون بالأنساب .

يعدون الرباب لهم ، وعمرا
ويهلك بينها المرثى لفوا
وسعدا ثم حنظلة الحيارا (١)
كما ألغيت في الدية الحوارا (٢)
ويفخر بعدى فى موطن آخر فيقول :

بذى لجب تدعو عديا كماته
كما يهجو هشام عديا قوم ذى الرمة فيقول :
إذا عثنت فوق القوانس عثير (٣)
غضبت لرحل من عدى تشمسوا وفى أى يوم لم تشمس رحالها

ولقد كانت منازل بنى تميم بأرض نجد « دائرة من هنالك
على البصرة ، واليامة حتى يتصلوا بالبحرين . منتشرة الى العذيب
من أرض الكوفة ، ولهم بطون كثيرة منها بنو سعد بن زيد مناة ؛
وبنو منقر « قوم مى محبوبته » ، وبنو امرئ القيس ، وبنو عوف
ابن كعب ، وبنو الحارث بن يربوع ، وبنو دارم بن مالك بن حنظلة
آل الفرزدق الشاعر وغيرهم ، ومن منازلهم : صلب المعاء ، ورهبي ،
والدهناء ، والاحساء ، والرمادة ، وشرف الأوطى ، وقسا (٤) . .
وقسا هذه سوق باليامة ، هذه الأماكن تتردد فى شعر ذى الرمة
كثيرا ، ومن المؤكد أن منازل قومه قريبة من « قسا » فى اليامة يقول
مخاطبا بلال بن أبى بردة :

ولكننى أقبلت من جانبى قسا
أزور أمراء محضا نجيبا ، يمانيا (٥)

-
- (١) الرباب ، وعمرو ، وسعد وحنظلة : فروع من قبيلة تميم .
(٢) المرثى : نسبة الى امرئ القيس ، لفوا - لا يعد منها ، الحوار - ولد
الناقة ساعة أن تضعه ولا يؤخذ فى الدية .
(٣) لجب : صخب ، كماء - فرسان ، عثنت - ثارت ، القوانس - الخوذات ،
عثير الغبار ، والمعنى : بجيش صاحب يدعو فرسانه قبيلة عدى لمناصرتهم حين
يحدثم القتال ويثور الغبار .
(٤) القبائل العربية لعمر كحالة .
(٥) محضا - خالصا تقيا .

كما يمدح المهاجر بن عبيد الله وإلى اليمامة ، ويشكو له من رجل اسمه « طرثوث » سلبه البئر التي يستقى منها قومه . .

أما تلقيبه بذى الرمة ؛ فلقد اختلف الباحثون في سبب ذلك ، وصاحب « الأغاني » كفانا مؤنة البحث عن هذه الأسباب ، فلم بها جميعا ، فمن هذه الأسباب : أنه لقب لقبته به مية ، ذلك أنه رآها لأول مرة ، وقد طلب منها الماء ، وقيل بل خرق اداوته ، وقال لها : اخرزى لى هذه . . فقالت : والله ما أحسن ذلك ؛ وانى لخرقاء ، فقال : لأمها مريها أن تسقيني ، فقالت لها : قومي يا خرقاء ، فاسقيه ماء ، فقامت فأثته بماء ؛ وكانت على كتفه رمة ، وهى قطعة من حبل فقالت : اشرب يا ذا الرمة فلقب بذلك ؛ وقيل بل سبب ذلك هو أن والدته ، واسمها ظبية من بنى أسد . مرت به على الحصين بن عبدة ، وقد كان كتب له تميمة فى صغره - أثناء قضائها بعض الحوائج وهو جالس فى ملاء من أصحابه ، ومواليه ، فدنت منه فسلمت عليه ، وقالت له يا أبا الخليل ألا تسمع قول غيلان وشعره ؟ قال ، بلى ، فتقدم منه فأنشده وكانت المعازة مشدودة على يساره فى حبل أسود ، فقال الحصين : أحسن ذو الرمة فغلبت عليه ؛ وثمة رأى ثالث نرى ترجيحه ، هو أنه لقب بذى الرمة لقوله :

لم يبق غير مثل الركود وغير مرضوخ القفا موتود (١)

أشعث باقى رمة التقليد

ويؤكد ذلك أيضا قول شارح الديوان « وسمى ذا الرمة لقوله « رمة التقليد » وتلقيب الشاعر بكلمة ترد فى بيت من شعره كثير شائع ؛ وقد حفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم ، كأمريء

(١) مثل - منتصبات ، ركود - مقيمات ، مرضوخ - مشقوق ، موتود - الوتد ، أشعث - منتشر الشعر ، رمة التقليد - الجبل البالى ، والمعنى : لم تبق فى الديار سوى الأثافي (الحجارة التى يطبخ عليها) وغير الوتد المشقوق المتقلد بحبل قديم بال .

القيس الذى لقب بذى القروح لقوله : « وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة » والمتلمس ، واسمه جرير بن عبد المسيح لقوله :

فهذا أوان العرض ، حيا ذبابه زنايره : والأزرق المتلمس
والمتقّب العبدى لقوله :

أرين محاسنا ، وكنن أخرى وثقبن الوساوص للعيون (١)
والمؤمل بن جميل بن أبى حفصة الذى أطلق عليه « قتيل الهوى » لقوله :

قلن من ذا ؟ فقلت هذا اليمامى ؛ قتيل الهوى ، أبو الخطاب

وعبيد الله بن قيس الرقيات لتغزله فى أكثر من واحدة اسمها رقية ، ومثل هؤلاء صريع الغواني والقطامى ؛ لقوله :
« يحطهن جانباً فجانباً حط القطامى القطا القواربا » ، والمزق . .
لقوله : « والا فأدركنى ولما امزق » وغير هؤلاء كثير (٢) .

وإذا حاولنا أن نتعرف على ملامحه ، وجدنا تضارباً فى الآراء فبينما يحسنه بعضهم يقبحه البعض الآخر ، والراجح ما ورد فى الأغاني : من أنه كان مدور الوجه ، حسن الشعر جعده ؛ أقنى ؛ أنزع ، خفيف شعر العارضين ؛ أكحل العينين ؛ حسن الضحك مفوها ، إذا كلمك كلمك أبلغ الناس . . يضع لسانه حيث يشاء ، وقال محمد بن صالح قال لى خالد وأبو عمرو : لم يكن أحد من القوم فى زمانه أبلغ من ذى الرمة ؛ ولا أحسن جواباً ، وكان كلامه أكثر من شعره ، كما كان إذا ألقى شعره « بربر بصوته » وقد وصفته محبوبته « خرقاء » بأنه كان رقيق البشرة ، غذب المنطق ، حسن الوصف ، مقارب الرصف عفيف الطرف ؛ ويبدو أن ما وصفه به ابن قتيبة وغيره من دمامة فلكى يحذوا مناسبة - كعادتهم - للآيات التى نظمها (كنزة) أو كثيرة « ابنة عم مى » أو أمتها على

(١) كتن - أخفين ، الوساوص - الثقوب ينظر منها .

(٢) لجلال الدين السيوطى فصل طويل فى كتابه الزهر عن هؤلاء الشعراء .

اختلاف فى ذلك ثم نسبتها له لتسوء العلاقة بين العاشقين ،
ويظهر أنها نجحت فى اغضاب « مية » فلقد ظل ذو الرمة طيلة
حياته يقسم أنه لم يقل هذا الشعر ؛ ويقول : (كيف ؟ وقد قضيت
حياتى فى التغزل بها) فلقد زعم هؤلاء الرواة أنه تغزل بمية دون
أن تراه ؛ ولما رأته وجدته أسود دميما قالت : واسوأته !!
وابؤساه ... واضيعة بدنتاه التى نذرت ذبحها لو أنها لقيته
.. فقال ذو الرمة :

على وجه مى مسحة من ملاحه

وتحت الثياب الخزى لو كان باديا

الم تر أن الماء يخبث طعمه

وان كان لون الماء أبيض صافيا

فيا ضيعة الشعر الذى لج وانقضى

بمى ، ولم أملك ضلال فؤاديا

بل يزعم هؤلاء الرواة أن أمه حين عرضته على « الحصين » ،
قالت لمن حوله : « اسمعوا شعره ولا تنظروا الى وجهه » وما أظن أن
أما تستقبح ابنها حتى لو رآه الناس جميعا قبيح الوجه ، دميما ،
وقد تحدث عن ولوع النساء به ، كما وصف نفسه بأنه كالقنص
الأملود ولكن « مجحفات الزمن المريد ؛ نقخن جسمى عن نضار
العود ؛ بعد اهتزاز القنص الأملود » .

ولم يحدثنا التاريخ بشئ عن والده ؛ كما لم يرد له ذكر
فى ديوانه ، مما يجعلنا نعتقد أنه كان رجلا من عامة الناس . لا شأن
له ولا ذكر ، أو لأنه تركه صغيرا فلم تع ذاكرته عنه شيئا . فلقد
قيل ! ان أخاه هشاما هو الذى رباه ، وكان لذى الرمة ثلاثة أخوة
هم هشام وجرفاس ومسعود ، وكلهم شعراء حتى زعم أعداؤه
وشأنوه أن أخوته يتعاونون فى نظم القصائد التى تنسب اليه ،
لشهرته ، ومن شعر هشام :

حتى اذا أمعروا صلفقى مباءتهم
وجرد الخطب أثبا ج الجرائيم (١)
ويعقب ابن قتيبة قائلا : وليس له غيرها ، ولكن أبا الفرج
الأصفهاني يسوق ملاحاة شعرية بين هشام وذى الرمة : فذو الرمة
يقول لأخيه هشام :

أغر هشاما من أخيه ابن أمه
قوادم ضآن أقبلت ، وربيع
وهل تخلف الضآن الغزار أخا الفتى
إذا حل أمر فى الصدور فطيح
ويجيبه هشام بقوله :

إذا بان مالى من سوامك لم يكن
إليك ورب العالمين رجوع (٢)
فأنت الفتى ما اهتز فى الزهر الندى

وأنت إذا اشتد الزمان منوع
ويبدو من قصيدة ذى الرمة أنه ألت به سنوات عجاف ،
أو مرت به ضائقة مالية فلجأ الى هشام أخيه الذى لم يلن ، وام
يعطف ، رغم يسر حاله ؛ ورغد عيشه يقول ذو الرمة :

تباعدت منى اذ رأيت حمولتى تدانت ، واذا أحيا عليك قطيع (٣)

(١) أمعر الرأس - سقط شعره ، صلفقى مباءتهم - ناحيتى معاطن ابلهم ،
أثبا ج - ظهور ، الجرائيم - أصول الشجر ، والمعنى : رحلوا بعد أن أسقط الصيف
أوراق الشجر التى تحيط بمعاطن الابل .

(٢) بان - انفصل وبعد ، السوام - الابل والماشية ، والمعنى : اذا ما انفصلت
عنك بنفسى وبمالى - فأننى سوف لا أعود الى مخالطتك فانت أنانى تقبل على الانسان
حين تقبل عليه الحياة وتبتعد عنه حين يشتد به الزمان .

(٣) - تدانت - قلت ، أحيا - كثر .

والتعبير « بتدانت » أى قلت يدل على ذلك ، بينما زاد قطع
هشام ؛ ومع هذا كان أقسى عليه - فى رأيه - من الحجر .

أبا ذاك أو يندى الصفا من متونه

ويجبر من رفض الزجاج صدوع (١)

ولكن هشاما يعرض عليه أن تعود المودة بينهما فيقول له :

أغيلان أن ترجع قسوى الود بيننا

فكل الذى ولى من العيش راجع

فكن مثل أقصى الناس عندى فاننى

بطول التنائى من أخ السوء قانع

واكاد اتهم ذا الرمة بالاسراف ، واستباحته مال أخيه الغنى ،
فلقد قال رجل للأصمعي : رأيت ذا الرمة بمربد البصرة ، وعليه
جماعة مجتمعة وهو قائم عليه برد قيمته مائتا دينار وهو ينشد
ودموعه تجرى على لحيته « ما بال عينك منها الماء ينسكب » فكدلك
كان يستحل (٢) يزيد بن الطثرية الشاعر الغزل مال أخيه
الغنى « ثور » فكان يزيد يأتى العطار فيقول له : أدهنى دهنة بناقة
من ابل ثور ؛ فيفعل ذلك ، وكان ذا جمة حسنة فاذا كثر عليه الدين
هرب فتبدى ، فاذا ذكر « حوشية » محبوبته عاد فاقتطع من ابل
أخيه ما يقضى به دينه ، فاستعدى عليه ثور السلطان فأمر بحلق
رأسه .

ويبدو أنه كان يؤثر بالثقة والحب أخاه مسعودا الذى هو أسن
منه أيضا ، وعاش بعده ؛ وقد رثاه فقال :

(١) يندى - يبلله الندى والمراد يعرق ، الصفا - الصخر ، متونه - ظهوره

يجبر - يلتزم ، رفض الزجاج - حطام الزجاج المتكسر .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ .

الى الله أشكو ، لا الى الناس ، اننى
وليلى كلانا موجد مات رافده (١)
كما رثاه مرة ثانية ورثى معه صديقه وابن عمه أوفى أحد
رواة الحديث فقال :

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده
عزاء وجفن العين ملآن مترع

خوى المسجد المعمور بعد ابن دلهم
فأضحى بأوفى قومه قد تضعضعوا (٢)

ولم تنسنى أوفى المصيبات بعده
ولكن نكأ القرع بالقرح أوجع
فلقد كان يصحبه معه فى رحلاته ؛ويخاطبه فى شعره ، ويصغى
للموه وعتابه :

أقول لمسعود « بجرعاء مالك »
وقد هم دمعى أن تسح أوائله (٣)

ورأتها مية مرة مقبلين فى الصحراء ، وعليهما أثر الارهاق
والتعب من ذلك السفر البعيد فهربت منهما :

قد عجبت أخت بنى لبيد وهربت منى ومن مسعود
رأت غلامى سفر بعيده يدرعان الليل ذا السدود (٤)
وها هو مسعود الذى يحبه ويشفق عليه . يلومه لأن الحب قد
استخفه ، والحنين اعتصر نفسه :

-
- (١) رافده - مساعده ومعاونه .
(٢) خوى - خلا ، نكأ القرع - أى جرح الجرح بعد قربه من الشفاء ،
(٣) بجرعاء مالك - أحد منازل بنى تميم .
(٤) يدرعان الليل - يشتملان به .

كان فؤادى هاض عرفان ربعا به وعى ساق أسلمتها الجبائر (١)
 حشية مسعود يقول وقد جرى على لحيتى من عبرة العين قاطر
 أفى الدار تبكى أن تفرق أهلها وأنت امرؤ قد حلمتك العشائر

ولقد اشتهر مسعود بلومه العنيف لأخيه ذى الرمة شفقة
 عليه، وحبا ف ضرب به المثل فى ذلك أبو تمام فيما بعد فقال :

ان كان مسعود سقى أطلالهم سيل الشئون فلسنت من مسعود

لأنه كان يلوم أخاه فيقول أبو تمام : لو عدل عن اللوم الى
 البكاء فلسنت منه ؛ وهذا أبلغ فى التبرى (٢) « ونعلم من شعره
 أنه كانت له بنت اسمها « ليلي » كما جاء ذكر اسمها فى رثاء
 مسعود له « انتهى ويلي كلانا موجه مات رافده » وكثيرا ملامته على
 كثرة أسفاره ؛ وتعريضه نفسه للهلاك ؛ فهو كثير الكسب للمال ؛
 كثير الانفاق له .

تقول ابنتى اذا رأته وعيى هم امرىء ، لهمه كيود (٣)
 ذى بدوات ؛ متلف ، مفيد أمضى على الهول من الطريد (٤)
 انك سام سموة فمودى فقلت لا ، والمبدىء المعيد (٥)
 ما دون وقت الأجل المعدود هل أغدون فى عيشة رغيد

والله أدنى لى من الوريد

ربما كانت « ليلي » ابنته هذه هى التى فجرت ي نابيع

(١) هاض - كسر ، وعى الساق - جبرها بعد الكسر ، الجبائر - مفردا
 جبيرة وهو ما يوضع حول الساق المصابة من خشب وغيره ، والمعنى : حين عرفت
 ديار المحبوبة أصيب قلبي بما تصاب به ساق مكسورة سقطت جبائرها .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٨٤ .

(٣) امرىء كيود لهمه - يقاسى ويعانى من تطلعاته وأهدافه البعيدة

(٤) ذى بدوات - صاحب حاجات ومطالب .

(٥) سام سموة فمودى - ساع لتحقيق غاية بعيدة فانت هالك بسببها .

الحب، الأبوى في نفسه فجعلته يعطف - كما ستوى - حتى على فراخ القطا والمكاكى ؛ وأطلاء الغزلان وجآذر البقر الوحشى ، ولأنه كان مفيدا متلافا - كما عبر هو عن ذلك - عاش فقيرا ، فكل ما كان يجتمع له من مال يبده وينفقه ، وقد مر ذكر من رآه فى البصرة ينشد شعره وعليه برد بمائتى دينار - ومن فقره الذى اعتز به صاغ هذه التجربة التى خالف فيها الموروث الشعرى ، فلقد اعتاد الشعراء أن يصوروا المرأة بالصورة التى لا يجذبها سوى الشباب والمال ؛ فاذا انعدما انعدم الحب ، قال علقمة الفحل :

يردن ثراء المال حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب (١)
ولكن ذا الرمة يقول غير ذلك : يقول : ان فقره لم يزر به
عند محبوبته :

وما الفقر أزرى عندهن بوصلنا ولكن جرت أخلاقهن على البخل
فآخذنه النقصاد التقليديون على ذلك ، فقال ابن قتيبة وقد غلط فى قوله فى النساء : «وما الفقر أزرى عندهن» البيت قالوا
والجيد قول علقمة :

يردن ثراء المال حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب
وقول امرئ القيس :

أراهن لا يحبين من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه ، وقوسا

وإذا كنا قد وفينا صفاته الحسية حقها من البحث ، فان صفاته النفسية التى هى أشد خطرا فى حاجة الى الامام بها ؛ وأول ما يطالعنا من ذلك تدينه ، وتمسكه بأخلاقيات الاسلام ، فكان يصلى ؛ وإذا سافر قصر الصلاة ، فاذا لم يجد الماء تيمم

نصى الليل بالأيام حتى صلاتنا
مقاسمة يشتق أنصافها السفر (٢)

(١) شرح الشباب - ريمانه .

(٢) نصى - نصل ، والمراد لطول وكثرة أسفارنا نصل دائما صلاة القصر .

ويهجو هشاما المرئي وقومه بأنهم يضيعون أوقات الصلاة ،
ويشربون الخمر والأنبذة :

أضعن مواقيت الصلوات عمدا

وحالفن المشاعل والجرار

وسنرى حين نتحدث عن مصادر ثقافته أن تدينه قد جعله
يستمد الكثير من صوره وتعبيراته من الدين؛ والقرآن الكريم ، ولقد
أجمع كل رواة الأدب على ثقاه وعفته ، فقال عنه الأصمعي (١) ما أعلم
أحدا شكا حيا أحسن من شكوى ذى الرمة مع عفة ، وعقل
رصين ، لقد قال عن نفسه حين حضرته الوفاة « لقد همت بمى
عشرين سنة فى غير ريبة ولا فساد» (٢) وعن عيسى بن عمر قال :
كان ذو الرمة ينشد الشعر فإذا فرغ قال والله لأكسعنك بشيء ليس
فى حسابك ؛ سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر
وقيل : كان ذو الرمة حسن الصلاة ، حسن الخشوع ، وقال : ان
العبد اذا قام بين يدى الله حقيق أن يخشع . . « وكثيرا ما كان ينشب
صراع داخلى فى نفسه بين ما يشكوه من هوى ؛ وبين ما يتطلبه الدين
والعقل من عفة ؛ وبعد عن طيش المحبين :

ألا ، لا أرى مثل الهوى داء مسلم

كريم ولا مثل الهوى ليم صاحبه

ومن صفاته أنه كان يعرف أقدار الناس ، ويعترف بفضائلهم
فلقد قال يوما لأبى عمرو بن العلاء :

«أنت مفرد فى علمك ، وأنا فى شعرى ذو أشباه» (٣) . . كما
كان صبوراً جلداً ، صبوراً على تحمل المشاق ، وكثيراً ما افتخر بشجّة
الفيافي والظلمات على ناقة ضامرة دون أن يضعف رغم طول السفر

(١) الأغاني ج ١٦ .

(٢) روضة العاشقين .

(٣) الموشح للمرزباني .

ومخاطر الطريق ، وهو صبور جلد في حبه ، وإن كان الحب كثيرا ما ينتصر عليه ، ويتغلب على صبره فيقذف به في الطريق باحثا عن منازل محبوبته ليتزود منها بنظرة أو كلمة حب أو عتاب، وربما واصل السفر ثمانية أشهر بتمامها من أجل ذلك :

ومغفى فتى حلت له فوق رحله

ثمانية جردا صلاة المسافر (١)

لهذا قد شحب وجهه : وضمر عوده ، من سقام السرى ،
والحب :

فتى ، مسلهم الوجه شارك حبها

سقام السرى فى جسمه بسقام (٢)

وهو رغم صبره وشجاعته - كأي أعرابي يخشى البحر ويفزعه
اهتزاز القناطر المقامة على المياه ، وقد مدح عمر بن هبيرة فقال له :

كم جبت دونك من تيهاء مظلمة

تیه اذا ما مغنى عنها سمرا (٣)

ومزيد مثل عرض الليل لجته

يهل شكرا على شطيه من عبرا

كما أن محبوبته من قوم : لم تنغص بهن القناطر ؛ أى تهتز
وتضطرب ؛ ومن صفاته النفسية أيضا اعتزازه بكرامته حتى مع
الأمراء والخلفاء . فلقد وقف منتظرا مع سائر الشعراء على باب
الحليفة الورع عمر بن عبد العزيز ؛ وكان كثير الصدوف عن الشعراء
فلم يستقبل أحدا منهم سوى من عرف بالتقى، والتدين ، فساء ذلك

(١) ثمانية جردا . ثمانية كاملة .

(٢) مسلهم الوجه - ضامره ، السرى - السير ليلا .

(٣) معنى البيتين : كم قطعت نحوك من صحراء مظلمة يسمع فيها أصوات

الجن لوحشتها ، وكم قطعت من بحر عريض كالليل يشكر الله من يعبره سالما .

ذا الرمة فنظم قصيدة شاكية نحس فيها اللوم والعتاب والاعتزاز
بل يفخر فيها بنفسه فيقول :

أعاذل عوجى من لسانك عن عدلى
فما كل من يهوى رشادى على شكلى (١)

فما لائم يوما أخ^{٩٩} ؛ وهو صادق
إِخائى ، ولا اعتلت على ضيفها ابلى (٢)

إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه
فصالى ولو كانت عجافا ، ولا أهلى (٣)

ولو قمت مذ قام ابن ليلى لقد هوت
ركابى بأفواه السماوة ، والرجل (٤)

ولكن عدا بى أن أكون أتيته
عقائل أوصاف يشبهن بالخيل (٥)

أتتنى كلاب الحى حتى عرفتنى
ومدت نسوج العنكبوت على رحلى

كما يصف نفسه بالنجدة ؛ وإغانة الملهوف فيقول :

ومستنجد فرجت من حيث تلتقى
تراقبه احدى المفظعات الكوارب

ورغم أنه مات شابا لم يتجاوز الأربعين من عمره إلا أن المخاطر
التي خاضها ، والتجارب التي مر بها خاصة تجربة الحب ، بجانب

(١) عوجى - اصرفى يا عاذلتى لسانك عن عدلى .

(٢) ولا اعتلت - لم ينتفع بخيرها من لبن أو لحم .

(٣) الرسل - اللبن ، فصال - جمع فصيل وهو ولد الناقة ، عجافا -

ضعيفة هزيلة .

(٤) ابن ليلى - لقب عمر بن عبد العزيز ، والسماوة والرجل - مكانان .

(٥) عقائل أوصاف - بقايا مرض .

موهبتة الفطرية الخاصة - قد جعلت منه صاحب نظرات نفذة في الحياة . . نلاحظها متناثرة خلال شعره من ذلك قوله :

لعل انحسار الدمع يعقب راحة

من الوجد، أو يشفى نجي البلابل (١)

قال أبو بكر بن عياش : كانت تصيبني مصيبة ، فأصبر وأكظم فأسرع ذلك في بدني ؛ فمررت بكناسة الكوفة فرأيت أعرابيا ينشد « خليلي عوجا من صدور الرواحل » ، هذا البيت والبيت السابق ذكره فأصابتنى مصيبة ، فبكيت فوجدته أهون على ، فسألت عن الأعرابي ؛ ف قيل هو ذو الرمة (٢) ومن نظراته التي هي وليده تجربته الصادقة في الحب قوله « والشوق يقتاد من ذى الحجة البصرا ؛ وقوله : «وكم من محب رهبة العين - هاجر» ثم تلك الصفات الأخرى التي هي وليدة تلك التجربة : **كالاخلاص والوفاء** وكتمان السر :

فان تحدث الايام يامي بيننا

فلا ناشر سرا ، ولا متغير

هذا بجانب ما نتحدث عنه بتفصيل في الفصل المعقود عن تجربة حبه . . من صفات لازمت هذا الحب . . وأخيرا نلاحظ أن **غلالة من الحزن والكآبة** تلف بعض قصائده ، وبخاصة مطالع هذه القصائد ، ومصدر هذا الحزن : توقعه الهلاك دائما فالماشي في الصحراء كما عبر عن ذلك - كالمأشى على حد السيف ، وكم تعرض هو وناقته للهلاك ، كما أن كل ما يراه يذكره بنهاية كل حي . . الأطلال المتهمة ؛ الأحباب الذين تفرق بينهم الأيام ؛ يضاف الى ذلك طموحه الذي لا حد له ، طموحه في أن يكون شاعرا كبيرا كالفرزدق وجريير ، وقد سأل الفرزدق بعد أن أسمعه قصيدة من شعره أو بعبارة الأغاني :

(١) الوجد - الحب ، البلابل - وساوس النفس .

(٢) شارح الديوان المطبوع عام ١٩١٩ .

وقف الفرزدق على ذى الرمة ؛ وهو ينشد قصيدته التى يقول فيها :

إذا ارفض أطراف السياط وهملت

جروم المطايا عذبتهن صيدح (١)

فقال كيف تسمع يا أبا فراس ، قال : أسمع حسنا ؛ قال :
فمالى لا أعد فى الفحول من الشعراء ، قال يمنعك من ذلك ذكر
الأبعار ؛ وبكاؤك الديار « ؛ ثم طموحه فى أن يحصل على عطايا
الأمراء والحكام ورغيبته فى أن يعيش حياة رغبة خالية من منغصات
الحرمان التى يشكو منها ؛ والتى قد تلجئه الى مثل أخيه هشام
الذى يضمن عليه ويصرف وجهه عنه . لهذه الاسباب نسمع مثل
هذه الأثبات تتردد فى شعره :

متى يبلى الدهر الذى يرجع الفتى

على بدئه أو تشتعبنى شواعبه (٢)
ويكرر هذه الأمنية مرة ثانية :

متى أبل أو ترفع بى النفس رفعة

على الراخ اخدى الحارمات الشواعب (٣)

ويقول لناقته وهو يمنيها الأمانى :

تلاقى ان سبقت به المنايا

تلاد أغر ، متلاف ، مفيد (٤)

(١) ارفض - تفرق وتشتت من الضرب ، وهملت - صارت كالاهلة من
الهزال ، جروم المطايا - أجسادها ، عذبتهن صيدح - أرغمتهن على الجرى ، والمعنى :
إذا ما أسرع المطايا وهزلت من السير والضرب المتواصل - أتعبتهن صيدح
(اسم ناقة الشاعر) بقوتها ومواصلتها السير .

(٢) يبلى - يصيرنى باليا ، الشواعب - المنايا ، والمعنى : متى يبلى
الزمن أو يختطفنى الموت لأستريح من عذاب الحب والهجران .

(٣) الحارمات الشواعب - الموت .

(٤) تلاد - مال قديم .

ويقول لها مرة ثانية وقد آلمها فراق ابل الدهناء مثل ما يؤله
فراق أهله وأحبابه :

عشية حنت فى زمامى صباية
الى ابل ترعى بلاد الجآذر (١)
ستستبدلين العام ان عشت سالما
الى ذاك من ألف المخاض البهازر (٢)
قلوصين عوجاوين بلى عليهما
هواء السرى ثم اقتراح الهواجر (٣)

وكيف يهنأ بالعيش من حياته دائما على ظهر ناقة ضامرة
تطوى به لهب الصحراء لا ينام الا غارا بجوار ناقته : « كتحليل
الآلى ، ثم قلصت ، به شيمة روعاء تقليص طائر » كل ما يحتمى
به من الحر ثوبه وعمامته التى يبسطها على وجهه ؛ وحين يريد أن
يروى ابله يربط وعاء بحبل ويدليه فى بئر عميقة ذات ماء آجن ،
مطحلب ، عشش فيها العنكبوت ؛ فيهدم للعنكبوت بيته ثم يصب
الماء فى حوض للابل لتشرب ، فمنها ما يشرب قليلا ؛ ومنها ما
لا يشرب أبدا ؛ أو ما يدوى وجهه بعيدا - ثم يستأنف رحيله وقرن
الشمس لم يبد حاجبه ؛ وإذا وضع رفيقه جنبه على الحجارة
استغرق فى النوم فكانه ينام على الحشابة « ذات الزخارف » هذا الى
جانب عذاب الحب وآلامه ، بسبب أهلها الذين آلاؤا ألا يزورها ؛
وبسبب اطاعتها هى للوشاة .

- (١) الجآذر - البقر الوحشى .
(٢) المخاض - النوق الحوامل ، البهازر - الضخام السمان .
(٣) قلوص - بعر أو ناقة ، عوجاء - عجفاء ضامرة من السير ، ابلاهما -
جعلهما ضامرتين ، اقتراح الهواجر - السير فى الهجير وقت الظهيرة واشتداد
الحر .
والمعنى : لقد حنت ناقتى الى رفاقها من ابل البادية حيث يكثُر البقر
الوحشى ، فوعدها باننى حين التقى بك وتمنحنى المال - سأشترى لها ناقتين
نشطتين ضامرتين من السير ليلا ونهارا .

أطاعت بك الواشين حتى كأنما
كلامك أياها عليك حرام

مع ما يدفعه اليه حنينه المتجدد من بحث عنها في تلك الصحراء
الشاسعة حتى يهتدى الى منازل أهلها بعد أن رحلوا عن ديارهم :

فرب بلاد قد قطعت لوصلكم
على ضامر منها السنم المحطما

هذه لا شك بعض الأسباب التي كست شعوره تلك الغلالة من
الحزن ؛ فمنحته مديقا انسانيًا خاصا تهتز له أوتار قلوبنا رغم بعد
المسافة الزمنية بيننا ؛ وبين الشاعر :

ولقد كان رغم انتقاد عاطفته متزنا عاقلا لا يقدم على أمر يجر
عليه المتاعب ، فلقد انتقده حبتر بن ضباب « في قوله : ضبر رعى
روض القذافين » فقال له : أسمنت فانبعث أى ليس هذا مما
توصف به النجائب لأن الرحلة تعجلها عن السمن ، فقليل له ألا
تهجو بنى حبتر فامتنع وقال : انهم رماة رواة أى يروون الشعر
ويرمون الرجل بمعايبه .

الفصل الثاني

ثقافته

يشير ابن طباطبا في كتابه « عيار الشعر » الى ما يجب على الشاعر أن يأخذ به نفسه « من أدوات يجب اعدادها قبل مراسه ، وتكثف نظمه ؛ منها : التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الاعراب ، والرواية لفنون الآداب ؛ والمعرفة بأيام العرب وأنسابهم ومناقبتهم ، ومثالبهم . والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه ، في كل فن قالته العرب فيه ؛ وسلوك منهاجها . . »

ولقد تسليح ذو الرمة بهذه الأدوات ، وغيرها قبل أن يقوم برحلته القصيرة مع الشعر ولقد تكفل له بالتوسع في علم اللغة ؛ والبراعة في فهم الاعراب نشأته في رمال الدهناء بين قومه من بني عدي . نعم كان كثير التردد على كناسة الكوفة ، ومربد البصرة ؛ كما قام برحلات الى دمشق عاصمة الامويين ، والى خراسان وأصبهان وغيرها لمدهج الولاة والحكام ولكن ذلك جاء بعد أن اكتملت شاعريته ونضجت أدوات تعبيره ، فأصبحت زيارته للحضر عاملا من عوامل ترقية شعره ؛ وترقيقه لا عاملا من عوامل الافساد أو ادخال اللحن

والخطأ في شعره ، لذلك كان أئمة اللغة يعتمدون على شعره . ويستشبهون به ، حين قعدوا قواعد اللغة ، أو جمعوا مادتها من شفاة الأعراب ؛ وتجلوا بين القبائل البعيدة المتناثرة في سبيل ذلك متحملين الأهوال والمتاعب ، وفي كتب اللغة والنحو العديد من أبيات شعره التي أوردها العلماء للاستدلال على صحة كلمة أو بيان معنى أو للاسترشاد لمعرفة قاعدة أو إثباتها ؛ أو البرهنة على ما شذ عن هذه القاعدة ، والكتاب لسببويه وأساس البلاغة للزمخشري ، والعين للخليل بن أحمد ، وكتب البلاغة والادب أكبر دليل على ذلك .

وقد قال حماد الراوية (١) : قدم علينا ذو الرمة في الكوفة فلم نر أحسن ؛ ولا أفصح ، ولا أعلم بغريب منه . . . وقال عنه الأصمعي : (٢) ذو الرمة حجة لأنه بدوى وليس يشبه شعره شعر العرب . الا واحدة تشبه شعر العرب وهي التي يقول فيها : والباب دون أبي غسان مسنود ، لذلك كان أهل البادية الفصحاء يعجبون بشعره (٣) : عن صالح بن سليمان أن جريرا والفرزدق كانا يحسدان ذا الرمة ؛ وأهل البادية يعجبهم شعره « ولا يفض من ذلك ما قاله الأصمعي في موقف الدفاع عن النفس من أن ذا الرمة قد أكل البقل والملوح في حوانيت البقالين حتى بشم . . » وذلك في صدد الدفاع عن زعمه « بأن أقل ما تقول العرب الفصحاء « فلانة زوجة فلان ، وإنما يقولون : « زوج فلان » فقليل له ألم يقل ذو الرمة ؟ .

أثو زوجة بالمر ، أم ذو خصومة

أراك لها بالبصرة العام ثاويا (٤)

فقال : العبارة التي أوردها سابقا ، ثم إن الأصمعي لم ينف صحة استعمال زوجة وإنما قال ذلك قليل . .

(١) الأغاني ج ١٦ .

(٢) الموشح للمرزباني .

(٣) الأغاني ج ١٦ .

(٤) ثاويا - مقيما .

أما المنبع الثاني الذى أمدّه بثروة غزيرة من التعبير والتصوير فهو الاسلام والقرآن الكريم ؛ نرى صورة ذلك ؛ واضحة فى شعره ، فحين يشند به الوجد وتلهيه بسياطها لواعج الشوق يعلّل نفسه قائلا : « أن الكريم وذا الاسلام يختلب » ، والصائد يرمى القريسة فتخطئها السهام رغم شهرته بالرماية لأن « الأقدار غالبية » .

رمى فأخطأ ، والأقدار غالبية

(١) فانصعن، والويل هجيراه والحرب (١)

والثور يكر على كلاب الصيد ، كأنه يطلب الشهادة أو يحتسب من الله الأجر .

فكر يمشق طعنا فى جواشنهما

كأنه الأجر فى الاقبال يحتسب (٢)

كما أوردنا له فيما سبق الأبيات التى يتحدث فيها عن قصره الصلاة ؛ والتيمم ؛ وهجائه لامرئ القيس لأنصرفها عن الصلاة ومعاقرة الخمر وكثيرا ما يدعو لرفيقيه بأن يجزل الله لهما الثواب اذا عاجا ناقتهما معه على ديار المحبوبة :

تكن عوجة يجزيكما الله عنده

به الأجر أو تقضى ذمامة صاحب

أو يقول لهما : وصاحبكما يوم الحساب محمدا

ويستمد بعض التعبيرات القرآنية كقوله :

(١) انصعن - اندفعن وهربن ، هجيراه - هذيانه وكلامه ، الويل والحرب - الهلاك والضياح .

(٢) يمشق - يسرع فى طعنه ، جواشنهما - صدورها ، يحتسب - يطلب الأجر من الله .

ترديت من ألوان نور كأنه

زرابى ، وانهلث عليك الرواعد (١)

والاماء يمسحن الجمال مما علق بها من شوك مسح العوايد
بأكفهن ركن البيت الحرام :

يمسحن عن أعطافه حسك اللوى

كما تمسح الركن الأكف العوايد

ويحترس احتراسا دينيا فى مدحه لبلال بن أبى بردة فيقول
« يجيرك بعد الله من تلف الدهر » ويصف سحر عيني محبوبته
بأن البابليين هاروت وماروت قد نفسا السحر فيهما :

وعين كان البابليين لبسا

بقلبك منها يوم معقلة سحرا (٢)

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت

لعينه مى سافرا كاد يبرق (٣)

وتعبيره بالباخع الوجد نفسه وقوله : ان الأمر المكروه قد
ينطوى على الخير ، والأمر المحبوب قد يحتوى على الشر ، فى
قوله :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه

لشئ نحتة عن يديه المقادر (٤)

فكائن ترى من رشدة فى كرية

ومن غية تلقى عليها الشراشر (٥)

(١) زرابى - بسط منقوشة ، الرواعد - السحب الممطرة ذات الرعد .

(٢) البابليين - هاروت وماروت ، وفى الأساطير العربية أنهما علما الناس

فن السحر ببابل .

(٣) يبرق - يبهت .

(٤) الباخع - القاتل ، نحتة - أبعدته .

(٥) الشراشر - الحبة .

انما هو صياغة موفقة للآية الكريمة : « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

أما **المنبع الثالث** أو الرافد الثالث لثقافته ، فهو تلك الحصيدلة الواسعة من التراث الشعري فلقد كان راوية للرأعي النميري ، وحين كان يحاجه أحد في شعره كثيرا ما كان يستشهد على صحته ما يقول بأبيات من شعر الرأعي كما حدث ذلك حين اعترض عليه أحدهم بقوله : « لقد جعلت لها ذفري كذفري الناقة ؛ فاستشهد بقول الرأعي « وذفري أثيلة » وربما كانت روايته لشعر الرأعي هي التي هدته الى وصف الابل ، ثم توسع في ذلك فشمّل الوصف عنده الابل وغيرها ، وهذا ما عناه حين قال ان مثلي ومثل الرأعي كمثّل شاب يتبع شيخا فسلك به شعبا ، ثم تركه الشاب وسلك شعبا كثيرة من بعده ، كما أنه ألم بدواوين الشعراء الآخرين منذ عصر امرئ القيس الى وقته ، وفي الديوان قصيدة يبدوها بقوله :

قف العيس في أطلال مية فاسأل

رسوما كآخلاق الرداء المسلسل (١)

تشبه أن تكون معارضة لمعلقة امرئ القيس المشهورة ؛ فبالإضافة الى الاتفاق بينهما في الوزن والقافية نجد عبارات برمتها ؛ من معلقة امرئ القيس في قصيدة ذى الرمة ، مثال ذلك تأثره بقول امرئ القيس :

خرجت بها امشى تجر وراءنا

على أثرينا ذيل مرط مرحل (٢)

فيقول :

كأن لم تحل الزرق مي ولم تطأ

بجرعاء حزوى ذيل مرط مرحل

(١) العيس - الابل البيض ، رسوما - بقايا الديار ، أخلاق الرداء -

الرداء القديم البالي ، المسلسل - المخطط .

(٢) المرط - كساء من صوف أو حرير ، مرحل - عليه تصاوير الرجال .

ولاماه الواسع بالشعر العربي اتهمه ابن سلام
بالأخذ من غيره فقال : وكان ذو الرمة كثير الأخذ من غيره ؛ ومما
أخذه من غيره . ويذكر أمثله كثيرة لذلك ، من هذا قوله : « يطفو
إذا ما تلقته الجرائيم (١) » أخذه من قول العجاج : إذا تلقته
الجرائيم طفا ، وقوله : كأنها فضة قد مسها ذهب ، من قول امرئ
القيس :

كبرك مقانة البياض بصفرة
غذاها نير الماء غير المحلل (٢)

ويزعم رؤبة كما يزعم العجاج أن ذا الرمة يصوغ معاني
رجزهم شعرا (٣) قال رؤبة لبلال بن أبي بردة : علام تعطي ذا
الرمة وهو يعمد الى مقطعتنا فيصلها فيمدحك بها ؟ فقال : والله
لو لم أعطه الا على تأليفه لأعطيته ؛ وأمراله بعشرة آلاف درهم ، وإذا
كنا لا نوافق هؤلاء الذين يتهمونه بالأخذ من غيره ، ونعد المشابهة
من شعره بأشعار غيره أثرا من آثار ثقافته فنحن لا ننكر علمه
الواسع بالشعر واطلاعه على شعر معاصريه ، وتأثره بهم كما
يتأثر كل انسان بما يقرأ . بل نحن نحمد له ذلك ؛ فالهوية
دون صقل واطلاع لا يمكن أن تصنع شاعرا خالدا كذي الرمة ؛
وما أكثر الأفكار والاحساسات التي تتشابه لتشابه التجارب
الانسانية والطبيعة البشرية ، وقد قال زهير .

ما أرانا نقول الا معادا

أو معارا من قولنا مكرورا

والرافد الرابع هو المامه الواسع - كما اشترط ابن طباطبا
- بأيام العرب ووقائعهم يظهر ذلك بارزا في مدائحه ، وأهاجيه

(١) يطفو - يرتفع ، الجرائيم - أصول الشجر ، والمعنى : يرتفع بصدرة
حينما تقابله جذوع الأشجار لينال من ورقها .

(٢) يصف امرؤ القيس لون محبوبته بأنه أبيض ضارب الى الصفرة فكانه
درة اختلط بياضها بصفرة ، وغذاها الماء الصافي الذي لم يحله . . انسان أو
حيوان .

(٣) الأغاني ج ١٦ .

وفخرياته • فحين يمدح الملازم بن حريث وهو من بنى حنيفة
يذكر بعض أيامهم وانتصاراتهم كاسرهم لعمر بن كلثوم وشده الى
بعير الحارث بن ظالم الغطفاني فيقول :

هم قرنوا بالبكر عمرا وأنزلوا
بأسيا فهم يوم القروض ابن ظالم

وكذلك يفعل حين يفخر بقبيلته :

أخذنا على الجفرين آل محرق
ولاقي أبو قابوس منا ومنذر

وأبرهة اصطادات صبور رماحنا
جهارا وعشون العجاجة أكر (١)

تنحى له عمرو فشك ضلوعه
بنافذة نجلاء والخيل تضبر (٢)

أبي فارس الحواء يوم هبالة
اذ الخيل في القتلى من القوم تعثر

كما يستتبع ذلك بالضرورة الامام بمثالب القبائل الاخرى
التي يهجوها أو يهجو واحدا منها • والى جانب هذه المعرفة الواسعة
بأيام العرب ووقائعهم • معرفته الشاملة لصفات وحوش وطيور
وهوام الابدائية ، كما كان على علم بأنواع الرياح وأسمائها ومهابها
والأنواء ؛ ومواقيتها ؛ والسحب والوانها ، والمطر منها وغير
المطر ، بل ان دارسا لعلم الحيوان كالجاحظ يستخلص من

(١) عشون العجاجة - أوائل الفبار ، عمرو • عمرو بن كلثوم •

(٢) تضبر - تثب ، المعنى : أننا انتصرنا في الموقعة التي كانت قريبا من
الجفرين وهما بثران للماء على جد النعمان كما لاقى أبو قابوس منا ومنذر ابنه الويل
وقد انتصرنا على أبرهة أحد ملوك اليمن ، وكان جدى مسعدة وهو جد من قبل
أمه فارس الحواء (اسم فرسه) الذي قاتل عليه آنثذ •

شعره أوصاف وعادات حيوانات الصحراء ، وحشراتهما من ذلك تعقبه (١) على بيت ذى الرمة الذى يقول فيه :

تراه اذا هب الصبا درجت به
غرايب من بيض هجائن دردق (٢)

فيقول : والصبا والجنوب تهبان فى أيام ييس البقل ، وهو الوقت الذى يثقب النعام فيه البيض . ويقول الجاحظ أيضا : وفى الظهيرة : الصوت الضعيف يصبح عاليا قال ذو الرمة :

اذا حثهن الركب فى مدلهمة
أحاديثها مثل اصطخاب الضرائر (٣)

وقال : اذا قال حاديننا لتشبيه نبأه
صه لم يكن الا دوى المسامع (٤)

وقد أفضنا فى الفصل الذى عقدناه عن « وصف الطبيعة » فى الحديث عن الصحراء والحيوانات التى وصفها ذو الرمة وصفا تسجيليا فيه كثير من التفصيل حتى ليكاد لا يدع عضوا من أعضاء الناقة خاصة ، الا وصفه . . لهذا قال عنه بعض النقاد القدامى انه أوصف الناس لفلاة : وهاجرة ، وحرباء ، وضب ، وحية الخ (٥) . . ولم يكن ذو الرمة يعتمد فقط على ملاحظته وخبرته بل قد يسأل بعض ذوى الخبرة فى حياة البادية ليستفيد منهم ؛ فلقد سأل يوما أعرابية عن الغيث فقالت : غثنا ما شئنا . فكان ذو الرمة يقول : قاتلها الله ما أفصحها . . ويعقب على ذلك المبرد قائلا : وترك ذو الرمة هذا المذهب على إعجابه به ، واختياره له وقال :

(١) الحيوان للجاحظ .

(٢) غرايب - سود وهى أفراخ النعام ، هجائن - شديدة البياض ، دردق -

صفار .

(٣) الضرائر - الزوجات لزوج واحد والمعنى : للأصوات فى الصحراء المظلمة

صخب كصخب الضرائر .

(٤) صه - اسكت (اسم فعل أمر) .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

« ولا زال منهلا بجرعائك القطر » ف قيل له هذا بالدعاء
عليها أشبه منه بالدعاء لها لأن القطر اذا دام فيها فسدت ،
والجيد قول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها

صوب الربيع وديمة تهمل (١)

والواقع أن ذا الرمة احترس في صدر البيت اذ قال :
« ألا يا أسلمي يا دار مي على البلى » فدعا لها بالسلامة ، وفي ذلك
حماية لها من أن يفسدها دوام المطر .

وثقة ذو الرمة في معرفته بفنه ، والمامة بموضوع وصفه ،
واقفانه لأداة تعبيره جعلته يجادل حتى الأمراء الأدباء ويصوب لهم
أخطاءهم كما فعل مع بلال بن أبي بردة حين أنشد أبيات حاتم
الطائي : « لما الله صعلوكا » الى أن قال :

يرى الخمس تعذيبا، وان يلق شعبة

بيت قلبه من قلة الهم مبهجا

فقال ذو الرمة : يرى الخمس تعذيبا : وانما الخمس للابل
وانما هو خمص البطن فمحك بلال وكان يحب المجادلة : وقال
هكذا أنشدنيها رواة طيء : فرد عليه ذو الرمة فمحك (جادل)
فدخل أبو عمرو بن العلاء ، فقال له بلال : كيف تنشدهما : وعرف
أبو عمرو الذي به : فقال : كلا الوجهين . . فقال : أتأخضون عن
ذو الرمة ؟ قال : انه لفصيح وانا لناخذ عنه بتمريض ، وخرجا
من عنده ، فقال ذو الرمة لأبي عمرو بن العلاء : والله لولا أنى أعلمك
حططت في جبله : وقلت في هواه : لهجوتك هجوا لا يقعد اليك
معه اثنان .

والحق أن ذا الرمة كان يعرف رسوخ قدمه في الشعر وتمكنه

(١) الكامل للبريد ج ١

والديمة - سحابة ، تهمل - تمطر .

من فنه ، لذلك كان يعتز بشعره ، ويفاخر به ، وبخاصة أنه يضيف الى الموهبة - الصنعة وحسن الاتقان بل كان كثير التهذيب لشعره حتى لقد شكى منه إليه بعض رواة أشعاره : فقال له : « أفسدت على شعرك » . وذلك أن ذا الرمة كان اذا استضعف الحرف أبدل مكانه (١) ومن اعتزازه بشعره ؛ قوله لأحد مملوحيه :

سيأتيكم منى ثناء ومدحة
محبرة، صعب، غريض قريضها (٢)
سيميقي لكم الا تزال قصيدة
اذا اسحنفرت أخرى قضيب أروضها (٣)
رياضة مخلوج ؛ وكل قصيدة
وان صعبت ، سهل على عروضها (٤)

لذلك كان كثير التساؤل . . لم لا يعد في الفحول من الشعراء ؟ نعم لم لا يعد منهم . وكل أدوات الفن لديه وافية مكتملة ؟ كما كان ينافح عن شعره كل مصاول ، فلقد هجا « الحكم بن عوانة الكلبي » لأنه غاب شعره ، وقد هدد أبا عمرو ابن العلاء حين أيد بلال بن أبي بردة ولم يؤيده في رأيه . كما كان يدافع عن شعره بالحجة والرأى فيستدل بكلام السابقين على صحة ما قال ، ويرد على من قال له : لماذا لم تصف الناقة بمثل

(١) الموشح للمرزباني .

(٢) محبرة - نفيسة مكتوبة ، غريض - طرى جديد .

(٣) اسحنفرت - ذهبت ومضت ، قضيب - لم تذلل ولم تروض أى لم

تكتمل وتهذب .

(٤) مخلوج - خير متعود على رياضة الشعر أو رياضة من به «مس» وجنون

والشعراء كذلك .

والعنى : ستاتيكم منى قصيدة محبرة رائعة جديدة في صياغتها ومعانيها

فاذا ما فرغت من هذه بدأت في صياغة أخرى لم تكتمل ، واننى لقارء على صياغتها

مهما صعب عروضها ووزنها .

ما وصفها به الراعي، بأن الراعي وصف ناقة ملك - أما أنا فوصفت ناقة سوقة ، كما ينكر أنه يعرف القراءة فحين يسأله عيسى بن عمرو أتقرأ ؟ يقول : « بيده على فيه » اكتبتم على فانه عندنا عيب (١) . انه لا يريد لشعره أن يشاب بما ينال منه أو يضعف من شأنه ؛ لذلك كثيراً ما أصلح ما ظنه الناس خطأ رغم أن بديهته كانت أصدق في التعبير بالبليغ الرائع من علمهم ، فحين أنشد :

إذا غير النأي المحيين لم يكـد

رسيس الهوى من حب مية يبرح (٢)

قال له ابن شبرمة : أراه قد برح . فغيرها في الحال بعد أن فكر تفكيراً مبرحاً شاداً ناقته بزمامها ؛ متراجعا بها الى الوراء ثم قال : لم أجد ؛ وقد أخطأ ابن شبرمة فان هذا كقوله تعالى : « إذا أخرج يده لم يكـد يراها » ومن قوله لعيسى بن عمرو : اكتبتم على فانه عندنا عيب . . . ثبت لنا أن ذا الرمة كان على علم بالقراءة والكتابة ؛ ولقد عرف عنه معاصروه من النقاد ذلك رغم انكاره ، فلقد عابوا عليه تشبيهه عين الناقة بالميم « وقالوا لولا أنه يقرأ ما أمكنه ذلك ؛ وعن سلمة بن محارب : أن ذا الرمة كان يقرأ ويكتب ؛ ولقد قال لعيسى بن عمرو : اكتب شعري ، فالكتاب أحب الى من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة . وقد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ينشدها الناس (٣) ولعل مما يعضد ذلك كثرة تصويره لآثار الديار بالكتاب المحو . . . أو الوحي المنشور ، وإذا كان القدامي قد اعتبروا معرفته القراءة عيباً ؛ فنحن نعد ذلك فضيلة تضاف الى فضائله ومزاياه الكثيرة . . .

(١) الأغاني جزء ١٦ .

(٢) ورسيس الهوى - بقية منه .

(٣) الحيوان ج ١ للجاحظ ص ٤١ ومجلة المجلة عدد ١٣ من مايو ١٩٦٦ بقلم

عادل سليمان (مقال) .

وأخيرا فان شاعرنا قد توفي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٧ هـ عن أربعين عاما وكان يقول عن نفسه أنا ابن نصف الهرم ، وقد اختلف في سبب وفاته ؛ ف قيل توفي وهو خارج الى هشام بن عبد الملك ودفن بحزوى وهي الرملة التي كان يذكرها في شعره كثيرا حتى قال له حليس الأسدي : انك تنعت الفلاة نعتا لا تكون منيتك الا بها فلما دنا من البصرة ، قال :

واني لعاليها ، واني لحائف
لما قال يوم التعليلة حليس

فلما توسط الفلاة نفرت به ناقته فسقط عنها فمات ، وعن رجل من بني تميم « أنه اشتكى النوبة زمنا فلما تماثل للشفاء واحتجنا الى زيارة بني مروان ؛ وركب ناقته فقمصت به وكانت قد أعفيت من الركوب فانفجرت النوبة التي كانت به .. فأرسل الى أهله ، فحضروا اليه ودفنوه بعد موته برأس حزوى » ، وقيل بل نفرت به ناقته وهو عائد من قبل الخليفة ووردت ناقته أهله فركبها أخوه وقص أثره حتى وجده ميتا وعليه خلع الخليفة . لكن الأصمعي يروي عن أبي الوجيه أنه قال دخلت على ذى الرمة وهو يجود بنفسه فقلت له : كيف تجدك ؛ قال : أجدني والله أجدا ما لا أجد أيام أزعم أني أجد ما لم أجد حيث أقول :

كأنني غداة الزرق يامي مدنف
يجود بنفس قد أحم حمامها (١)

قال : وكانت منيته هذه بالجدرى وفي ذلك يقول : ألم يأتها اني تلبست بعدها مفوفة ؛ صواغها غير أخرقا ؛ ويقول محمد بن الحجاج الأسدي انه كان يزوره في مرضه الذي مات فيه ؛ وكان مقيما بالحجر ...

(١) مدنف - مريض ، حم حمامها - قرب الموت .

الباب الثاني

الحب في شعر ذي الرمة

الفصل الأول

ذو الرمة العاشق

فى السن التى يبلغ فيها الشاب قوته واكتماله ، تلك السن التى تتميز بالقلق واشتعال الرغبة وتوهجها وأعنى بها السن من العشرين الى الأربعين ؛ وفى رمال الدهناء الواسعة حيث الحر الشديد اللاهب والحياة الجافة ، وليس لدى شاب كذى الرمة من واحة يتفياً ظلالها سوى واحة الحب ؛ يتغنى به فتردد البيد أغنياته ، ويسامر به رفاقه ، ويستثير نشاط أصدقائه الذين يصحبونه فى الأسفار ، وقطع هذه الآماد المتطولة :

ونشوان من طول النعاس كأنه

بحلين من مشطونة يترجع (١)

أطرت الكرى عنه ، وقد مال رأسه

كما مال رشاف الفضال المرنج (٢)

إذا مات فوق الرحل أحبيت روحه

بذكراك والعيس المراسيل جنج (٣)

(١) نشوان - سكران ، مشطونة - بئر معوجة ، يترجع - يتأرجح ويتمايل -

(٢) الكرى - النوم ، الفضال - الخمر .

(٣) العيس المراسيل - الابل اللينة السير ، جنج - مائلة من النشاط .

وليس معه من أحد سوى رفيق أشعث الشعر مغلوب على أمره من النعاس مرتخي العمامة ؛ ذهب بنشاطه السر ، يناديه الشاعر فلا يسمعه الا كما يسمح ماتح الماء صدى صوت من يناديه من قاع البئر العميقة وقد ونى غرفه للماء من التعب حتى اذا سمع حديث الشاعر عن محبوبته مى ؛ وما نظمه فيها من شعر نشط ودبت الحياة فى عظامه .

وأشعث مغلوب على شدنية

- (١) يلوح بها تحجينها ، وصلبيها
- أخى شقة ، رخو العمامة ، منه
- (٢) بتطلاب حاجات الفؤاد طلبوها
- تجلى السرى من وجهه عن صفيحة
- (٣) على السير ؛ مشراق كريم شحوبها
- كانى أنادى ماتحا فوق رحلها
- ونى غرفه ، والدلواناء قليبها (٤)
- رجعت بمى روحه فى عظامه
- وكم قبله من دعوة لا يجيبها

فى هذه السن ؛ ووسط هذه الصحراوات الشاسعة المهلكة «التقى ذو الرمة بمحبوبته التى استبدت بقلبه ، وسيطر هواها على كل جارحة من جوارح نفسه فصار بحق مضرب المثل فى الحب ، حتى قال الأصمعى فى صدد الحديث عنه « ما أعلم أحدا من العشاق الحضريين وغيرهم شكوا حبا أحسن من شكوى ذى الرمة مع عفة ؛ ورسانة عقل ٠٠ » ويعقب صديقه عصمة بن مالك الفزارى على حديثه عن إحدى زياراته لمى وقد صحبه فيها بقوله : « فو الله ما رأيت أشد صباة ولا أحسن صبيرا منه ٠٠ » (٥)

-
- (١) شدنية - ناقة ، تحجينها وصلبيها - علامتان فى الناقة .
 - (٢) أخى شقة - سفر بعيد ، منه - ذهب بنشاطه ، تطلاب - طلب الحاجات
 - (٣) تجلى - ظهر ، صفيحة الوجه - ظاهره ، مشراق - مشرقة جميلة .
 - (٤) الماتح - من ينزل فى قاع البئر ليملا الدلو منها .
 - (٥) تزيين الأسواق .

ويقول عنه صاحب « معاهد التنصيص » هو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ؛ بل ان داود الأنطاكي مؤلف تزيين الأشواق يترجم له مع من ترجم لهم من الشعراء المتيمن والعذريين من أمثال المرقش الأكبر وأبى صخر الهذلي وعروة بن حزام ؛ وجميل وكثير والعباس بن الأحنف وغيرهم ، وقد أشار أبو العلاء فى « رسالة الغفران » الى ولعه بى فقال : وما أشك أنه - أمتع الله الآداب ببقائه لو رزق محاورة أبى الاسود على عرجه ؛ وبخله المتناذر وجرحه - لكأنت مقتته له أبلغ من مقة مهدى ليلاه ؛ ولا أقول رؤية أبيلاه ؛ ولو أدرك محاضرة أبى الخطاب (الأخفش الأكبر) لكان بدوش عينيه أشد شغفا من الحادرة (النابغة) بسمية ومن غيلان بمية ... لأنه قال :

وعينان قال الله كونا فكانتا

فعولين بالألباب ما تفعل الخمر

لقد اكتوى بنار الحب فانصهرت نفسه ، ولانت طبيعته البسوية ، ورقت مشاعره واكتسب تلك الحساسية الزائدة ؛ وانتوت النفسى الخلاق الذى شحذ حواسه وفتح فى نفسه ألف نافذة ونافذة تستقبل معطيات الحياة بنهم وتلهف ، فلم يعد يعبر من حوله صوت دون أن يلتقطه ، أو رائحة طيبة دون أن تسكر حواسه ، أو مشهد من مشاهد الصحراء المختلفة دون أن يترك طابعه فى نفسه ... مما أكسب شعره هذا الغنى الخصب فى الصور التى تدرك بمختلف الحواس ؛ وترك عليه هذه المسحة من الرقة واللين الحضرى رغم بداوته ؛ ولعل ذلك هو ما أغرى عددا من المغنين بتلحين شعره وتأديته فى حضرة الخلفاء ، والأمراء ؛ فهذا اسحاق بن ابراهيم الموصلى يحدثنا عن أبيه بأنه قد صنع لنا فأعجبه فأخذ يبحث عن الشعر الذى يلائمه فلم يوفق وفى المنام رأى رجلا يقول له : أين أنت من قول ذى الرمة :

ألا يا اسلمى ... يا درامى على البلى

ولا زال منهلا بجرعائك القطر (١)

(١) جرعائك - رمالك ، القطر - المطر .

فلما استيقظ دعا بمن ضرب عليه وغنى به فاذا هو « أوفق
 ما خلق الله » وتنبه منذ ذلك الوقت الى الغناء فى شعره ؛ وصنع
 فيه ألحانا كثيرة ؛ ولعل ما أوحى به الى الموصلى فى حلمه هو
 علمه بحب الرشيد لشعره ؛ وحفظه له منذ صباه الباكر
 لذلك كان يطرب كلما غناه بقصيدة من قصائده مما جعل الموصلى
 يطلب من الخليفة هارون الرشيد أن يقطعه شعر ذى الرمة ،
 ويحظر ذلك على سواه . فعمل مائة صوت فى هذا الشعر ، وحصل
 على مئات الآلاف .. كما جاء فى نص عبارته ..

ولعلنا نعذر الرواة القدامى حين يضطربون فى نسبة بعض
 الأبيات له ؛ فلقد نسبوا له هذه الأبيات التى منها :

أصلى فما أدرى اذا ما ذكرتها

اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

كما نسبوها الى مجنون بنى عامر ، وقد ضمنها « شوقى »
 مسرحيته عن « المجنون » والسبب فى ذلك هو هذه الحرارة
 والتوهج العاطفى الذى نلاحظه فى شعره ، كما نلاحظه فى شعر
 الشعراء العذريين الذين حفظت الأجيال شعرهم كنموذج للشعر
 الوجدانى الخالد .

فأين التقى ذو الرمة بمحبوبته ؟ وما حديث حبهما ؟

لقد كان ذو الرمة تميميا من الرباب أحد بيوت بنى تميم
 المشهورة وهو يقول عن هذه البيوت مفتخرا أو أمدّه جرير بذلك
 كما يزعم بعض الرواة :

يعد الناسبون الى تميم

بيوت العز أربعة كبارا

يعدون الرباب لهم وعمرا

وسعدا ثم حنظلة الخيارا

ويحدد لنا الجماعة الذين ينتسب اليهم فى نفس القصيدة
 وهم الرباب فيقول :

وانى حين تزخري لى ربابى
 عمام امنع الثقلين جـاراً (١)
 كما كانت مية أيضاً تميمية من بنى منقر :
 تميمية ، نجدية .. دار أهلها
 اذا موه الصمان من سبل القطر (٢)

وقد كانت منازل بنى تميم بأرض نجد ؛ دائرة من هنالك
 على البصرة واليمامة حتى يتصلوا بالبحرين وانتشرت الى العذيب
 من أرض الكوفة ؛ ولهم بطون كثيرة « ولبنى تميم منازل
 كثيرة .. صلب ، رهبي ؛ مغنى المثني ؛ الحيار ؛ الدهناء ؛
 الاحساء ، سحنان ؛ الرمادة ؛ وبرة ، الحيرة ، فرع الحفر ؛ شرف
 الأرطى ؛ الشعير ، والصمان » فى هذه المنازل أو فى بعضها
 التقى ذو الرمة بمية حيث كان قوماهما متجاوزين بخاصة فى
 فصل الشتاء ؛ الفصل الذى يجمع بين القبائل قبل أن يشتتها
 الصيف اللاهب فيتفرقون باحثين عن « الأعداد » وأماكن الماء ؛
 وهو يؤكد ذلك فى شعره فيقول :

أما استحلبت عينيك الا محلة
 بجمهور حزوى أو بجوعاء مالك
 لنا ولكم يامى ، أمست نعاجهـا
 يماشين أمات الرئال الحواتك (٣)
 ويقول : متى تظعننى يامى عن دار جيرة
 لنا ، والهوى برح على من يغالبه (٤)

وقد كان قوماهما يتبادلان الزيارة شأن كل جوار ، حتى اذا

-
- (١) تزخري - تجتمع لى ، عمام - جماعات ، الثقلين - الانس والجن .
 (٢) موه - كثر فيه المطر ، الصمان - الحجارة الصلبة ، سبل القطر -
 ما انحدر من ماء المطر ، استحلبت - اسالت الدمع .
 (٣) النعاج - البقر الوحشى ، الرئال - أفراخ النعام ، الحواتك - القصيرات
 الخطو . والمعنى : قد رحل قومك وحلت محلهم الحيوانات الوحشية فالبقر الوحشى
 يماشى فيها أفراخ النعام .
 (٤) برح - شديد وقوى .

عزم قوماهما على الرحيل انشغلوا عن الزيارة بالاستعداد والتأهب

أراح فريق جيرتك الجمالا
كأنهم يرينون احتمالا (١)
فبت كأننى رجل مريض
أظن الحى قد عزموا الزىالا
فأرغوا بالسواد ، فذرقن
وقد قطعوا الزيارة والوصالا (٢)

لقد التقى بها فى مختلف هذه المنازل التى ذكرناها ، بل
تتردد فى ديوانه منازل أخرى ربما لم يهتد إليها مؤلف كتاب
« القبائل العربية » وأكثر هذه الأماكن ترددا فى شعره « الزرق »
التي هي كشبان رملية بالدهناء ؛ فقد ذكرها نحو ثمانى عشرة مرة ،
ثم تليها حزوى « التى ترددت فى شعره اثنتى عشرة مرة ، ثم
« وهين » وحوضى « ومشرف » وجرعاء مالك وقد ترددت كل
منها فى شعره نحو ثمانى مرات ، يلي ذلك « صلب القرينة » ؛
و « المعاء » والقلات ، وشارع « واللولى » ؛ وقد ذكر كلا منها
قريبا من خمس مرات ؛ كما ترددت فى شعره مرة أو مرتين هذه
الأماكن : الخلاء ، الحرد ، منعرج الهذلول ؛ رابية الخوى ؛ الدحل
الاشيم ؛ جوجلاجل ، ماء الوشيح ، النميط ، لوى لبن ، قسا
فتاخ ، السببية ؛ النقا ؛ ذو الرمث ؛ برقة الثور ؛ أقواع الشماليل
الوحيد ، معقلة ؛ الحفر ؛ نغف الأجرع ؛ الدهناء .

وقد يذكر كل مكان على حدة كقوله :

بجانب الزرق لم تطمس معالمها
دوارج المور ؛ والأمطار والحقب (٣)

-
- (١) أراح فريق جيرتك الجمالا - أعادوها الى منازلهم استعدادا للرحيل ،
احتمالا - سفرا ورحيلا .
(٢) أرغوا - رغت ابلهم وارتفعت اصواتها ، السواد - الليل ، ذرقن -
أشرقت الشمس .
(٣) المور - التراب ، الحقب - جمع حقة وهي ثمانون عاما تقريبا .

ديار مية اذ مى تساعفنا
ولا يرى مثلها عجم ، ولا عرب

وقوله :

عليكن يا أطلال مى بشارع
على ما مضى من عهدكن سلام

وقوله :

لعمرك انى يوم جرعاء مشرف

لشوقى لمنقاد الجنيبة ، تابع (١)

وقد يجمع أكثر من موضع فى القصيدة الواحدة ، مشيراً
الى أن كل منزل منها قد أثار شجونه وذكرياته ، أو لأن بعضها
معالم فى الطريق الذى سلكته حمول « مية » وأهلها حين الرحيل
فمن الأول قوله :

ما فى التلاقي أبدا من مطمع
ولا ليالى شارع .. يرجع
ولا لياينا بنعف الأجرع

وقوله :

عفا الزرق من أطلال مية والدحل
فأجماد حوضى حيث زاحمها الحبل (٢)
كانا وميا بعد أيامنا بها
وأيام حزوى لم يكن بيننا وصل

وقوله :

لمية اذ مى معان تحله
فتاخ فحزوى فى الخليط المجاور (٣)

(١) منقاد الجنيبة - الناقة ، والمعنى : اننى اتبع قوم محبوبتى متقاداً الى
ما يدعونى اليه شوقى .

(٢) عفا - زال وامحى ، الحبل - رمال مستطيلة ، أجماد حوضى والدحل -
مكانان .

(٣) معان - وطن ، فتاخ فحزوى - مكانان .

وقوله :

عصيت الهوى يوم القلات واننى
لداعى الهوى يوم النقا لطيع (١)
أراجعة يامى أيامنا التى
بذى الرمث أم لا ؛ مالهن رجوع
ومن النوع الثانى الذى يعدد فيه الأماكن لمرور آل مية عليها
وهم مرتحلون .. هذه الأبيات :

نظرت بجرعاء السببية نظرة
ضحى ، وسواد العين فى الماء غامس (٢)
الى ظعن يقرضن أجواز مشرف
شمالا وعن ايمانهن الفوارس (٣)
ألفن اللوى حتى اذا البروق ارتمى
به بارح راح من الصيف شامس (٤)
وأبصرن أن النقع صارت نطافه
فراشا وأن البقل زاو ويابس (٥)
تحملن من قاع القرينة بعدما
تصيفن حتى ما عن العد حابس

ويقول عن جمالها وقد سرن أشباها طوالع من «صلب القرينة
مارات بمياه الوشيح وأكناف حوضى الرملية :

-
- (١) القلات ، يوم النقا . ذو الرمث . أمكنة التقيا بها .
(٢) جرعاء السببية - مكان ، وأجواز مشرف والفوارس واللوى ، وقاع
القرينة - كلها أماكن فى صحراء الدهناء .
(٣) يقرضن أجواز مشرف - يملن عنها ، الظعن - الجبال عليها الهودج .
(٤) البروق نبت ضعيف ، بارح راح - رياح شديدة الهبوب .
(٥) النقع - المستنقع ، نطافه - ماؤه ، فراشا - قليلا ضحلا ، العد - مكان
يتجمع فيه الماء .

واذ هن أكتاد بحوضى كأنما
 زها الآل عيدان النخيل البواسق (١)
 طوالع من صلب القرينة بعدما
 جرى الآل أشباه الملاء اليقائق (٢)
 وقد جعلت زرق الوشيح حداتها
 يميناً وحوضى عن شمال المرافق
 كما قد يجمع بين بعض الأماكن فى القصيدة الواحدة لأنها
 قريبة متجاورة تكون مكاناً واحداً يتضح ذلك من الأبيات
 الآتية :

ويوم بذى الأرطى الى بطن مشرف
 بوعثائه حيث اسبطرت حبّالها (٣)
 عرفت لها داراً فأبصر صاحبى
 صفيحة وجهى قد تغير حالها
 أمن أجل دارصير البين أهلها
 أيادى سبا بعدى وطال اختيالها
 بوهبين تسنوها السوارى وتلتقى
 بها الهوج شرقياتها وشمالها (٤)
 ومثل :

الأحى بالزرق الرسوم الخواليا
 وان لم تكن الا رميما بواليا
 فما كدن لايابين جرعاء مالك
 وبين النقا يعرفن الا تماريا (٥)

-
- (١) أكتاد - جماعات ، زها - رفع .
 (٢) اليقائق - البيض .
 (٣) اسبطرت - امتدت .
 (٤) تسنوها - ترويهما .
 (٥) تماريا - طنا وشكا .

كما تتعدد منازل آل مي لتعدد أماكن الإقامة ؛ فكلما عادوا
من رحلة الصيف التي تتكرر كل عام ينزلون في مكان غير الذي
كانوا فيه من قبل ، وذو الرمة يصرح بذلك في شعره :

تجيش إلى النفس في كل منزل
لمي ، ويرتاع الفؤاد المشوق
لقد كانت مي تقيم مع قومها في تلك المنازل البعيدة عن
الريف القريب من البحر ، فالبندوي يأنف أن يقيم فيه : فهي تقيم:
بأجرع مقفار بعيد من القرى
فلاة ، وحفت بالفلاة جوانبه
بعيدا عن البحر وملوحته :

بأرض هجان الترب ؛ وسمية الثرى

عذاة ؛ نأت عنها الملوحة والبحر (١)
وهناك في فصل الشتاء تنسج الطبيعة للأرض رداء أخضر
فمياه المطر تهطل بغزارة وتتجمع في الحفر والفجوات الصخرية ،
كما تمتلئ الأحواض المعدة لاستقبال ذلك ، وينبت حولها وعلى
جوانبها ، ربما لمسافات واسعة • البقل وشجر الرمث الذي
تسمن عليه الأبل وقطعان الماشية كما يورق شجر الأرطى ؛ والسدر
والبروق وشجر الفرقد والقلقلان وغيره من أشجار البادية ،
وتتساقط الأوراق الخضراء على تلك الفجوات المائية والأحواض
وتسبح على وجهها :

تحل اللوى أوجدة الرمل كلما
جرى الرمث في ماء القرينة والسدر (٢)

فهي :
بأدعاص حوضي ثم موضع أهلهم
جراميز يطفو فوقها ورق السدر (٣)

-
- (١) هجان - كريمة القرية ، وسمية الثرى - أصابها المطر أول فصل
الربيع ، عذاة - طيبة لم تسق إلا بماء السحاب •
(٢) الرمث - نبات حمضي ، والسدر - شجر التبق •
(٣) ادعاص - رمال مجتمعة ، جراميز - حياض الماء •

وتهب النسمات الرخية حاملة معها أنفاس الأزهار العطرية
التي تملأ الجو أريجاً :

تطيب بها الأرواح حتى كأنما
يخوض الدجى فى برد أنفاسها العطر
ويمتد أول النهار وآخره ؛ فيحلو للفتيات الشبابات الخروج
فى هذين الوقتين ، يخرجن حيناً فى الضحى يتخطرن كسرب من
الظباء :

الا أيها الربيع الذى غير البلى
كانك لم يعهد بك الحى عاهد

ولم تمش مشى الأدم فى رونق الضحى
بجرعائك البيض الحسان الخرائد (١)

ويخرجن أحياناً أخرى فى العشى وقد لبسن الحلى فى السوق
والأذرع يمشين بخطا قصار كدبيب القطا يداعبن الشباب بكلمات
حلوّة حلوة عسل النحل الممزوج بالماء البارد لا تلبث أن تتغلغل الى
القلوب المتعطشة مطبعة إياها بالأمل الحلو ، حتى اذا أنسوا
اليهن وأملوا الوعد منهن خيبن ظنهم وهدمن الأمل الذى بنوه
والحلم الذى نسجته كلماتهن المطعمة المؤيسة :

وبيضاً تهادى بالعشى كأنما
غمام الثرى الرائع المتهلل (٢)

خدالا قذفن السور منهن والبرى
على ناعم البردى بل هن أخذل (٣)

قصار الخطا يمشين هوناً كأنه
دبيب القطا بل هن فى الوعث أوجل (٤)

(١) الأدم - الظباء البيض .

(٢) الثرى - نجم معروف ، المتهلل - المطر .

(٣) خدالا - ممثلات الأعضاء من اللحم ، السور - الأساور ، البرى - حلقات

ذهبية تزين بها النساء أيديهن وسواعدهن ، البردى - نبات ناعم الورق معروف .

(٤) وهنا - على مهل ، الوعث - الرمل ، القطا - نوع من الحمام مشهور بقدرته

على الاهتداء ، أوجل - أخوف .

نواعم ، رخصات كان حديثها
 جنى النحل في ماء الصفا متشمل (١)
 رقاق الحواشي منفذات صدورها
 وأعجازها عما به اللهو ... خذل (٢)
 أولئك لا يوفين شيئا وعدنه
 وغنهن لا يصحو الغوى المعذل (٣)
 وقد تومض احداهن بابتسامتها وميض البرق الى من يبادلها
 الحب أو الإعجاب :
 يرين أبا الشوق ابتساما كأنه
 سنا البرق في عزف له جاد ماطره (٤)
 فيثرن لواعيج نفسه ؛ ويصبينه بما يشبه السوار ...
 اذا ما الفتى يوما رآهن لم يزل
 من الوجد كالمشي بدءا يخامر
 كما يمشين جماعات ؛ جماعات كقطيع من البقر الوحشي ؛ كل
 جماعة تضم الفتيات المتقاربات في السن .
 وسرب كأمثال المها قد رأيت
 بوهبين ، حور الطرف ؛ بيض محاجر
 خدال الشوى ، نصفان ، نصف عوانس
 ونصف عليهن الشفوف معاصره (٥)

-
- (١) رخصات - طريات ، الصفا - الحجارة الملساء ، متشمل - هبت عليه ريع شمالية .
 (٢) الحواشي - الحديث ، منفذات صدورها - نافذات في الصدور .
 (٣) المعذل - الذي يلومه الناس على تصرفاته .
 (٤) عرف له - أوله .
 (٥) الشوى - الأطراف الأذرع والسيقان ، عوانس - بلغن الخلم ولم يتزوجن ، معاصره - الفتاة أدركت ، الشفوف - الثياب الرقيقة أو الخمر الرقيقة .

وكما تخرج الفتيات جماعات جماعات ، يخرج الفتیان كذلك
يلتمسون اللهو والمرح والمغازلة .

ليالى أبدى فى الديار ؛ ولم ألح

مراحي؛ لم أزجر عن الجهل زاجره (١)

أطاوع من يدعو الى ريق الصبا

وأترك من يقلى الصبا لا أوامره (٢)

فى تلك الأنحاء تقضى القبيلة من القبائل فصل الشتاء
كله وأوائل فصل الصيف . حتى اذا اشتد الحر فذوت الأعواد
الخضراء ؛ ونفضت الريح شجر البهمى فارتعش كخيول شقور
تنفض نواصيها ؛ وارتحل نجم الثريا ايذاناً بقدوم الصيف :

أقامت بها حتى ذوى العود فى الثرى

وساق الثريا فى ملأته الفجر

وحتى اعترى البهمى من الصيف نافض

كما نفضت خيل نواصيها شقور (٣)

واكتست جداول الماء الى الرياض بما أسفته الريح من شوك
وورق يابس ، وسرت الديدان المسماة بالأساريع فى بقله الجاف ،
وصرت الجنادب بين تلك الأعشاب اليابسة :

يعرجن بالصمان حتى تعذرت

عليهن أرباع اللوى ومشاربه (٤)

وحتى رأين القنق من فاقى السفا

قد انتسجت قريانه ومذانبه (٥)

(١) ليالى أبدى مراحي - أظهر مرعى ، ولم ألح - لم يتغير وجهى من الأسفار
والتعرض للريح والشمس ، الجهل - اللهو والغواية .

(٢) يقلى - يهجر ، الصبا - دواعى الصبا من لهو وعبت ، لا أوامره -
لا أصادقه وأصاحبه .

(٣) البهمى - نبات صحراوى .

(٤) أرباع اللوى - جمع ربع وهو المكان .

(٥) القنق - مجرى ماء ، قريان ومذانب - مجارى المياه الى الرياض ، فاقى -
السفا - الشوك والورق الذى سفته الريح .

وحتى سرت بعد الكرى فى لويه
 أساريع معروف ، وصرت جناديه (١)
 لقد لعبت الرياح الحواصد ببقايا نبات القلقلان ، وأخرجت
 كل ما فيه من ثمر ؛ كما فقس بيض طيور المكاكى المرقشة فطارت
 فراخه ؛ وتقلص طرفا النهار الغداة والعشى ؛
 وجال السفا جول الحباب ؛ وقلصت
 مع النجم عن أنف المصيف الأبارد (٢)
 وهاجت بقايا القلقلان ، وعطلت
 حواليه هوج الرياح الحواصد (٣)
 ولم يبق فى منقاض رقص توائم
 من الزغب أولاد المكاكى واحد (٤)
 لقد جف كل شئ ، النبات بمختلف أنواعه ؛
 فودعن أقواع الشماليل بعدما
 ذوى بقلها أحرارها وذكورها (٥)
 ولم يبق بالخلصاء مما عنت به
 من الرطب الا ييسها وهجيرها (٦)
 كما جف الماء فى كل مكان ولم يبق منه الا الضحل الذى
 لا يروى ظمأ ولا يطفىء غلة ؛

-
- (١) لويه - بقله اليايس ، معروف - موضع ، صرت - صوتت .
 (٢) الحباب - فقايع الشراب ، وقلصت - نقص وارتفع ، أنف المصيف -
 اوله ، الأبارد - الغداة والعشى .
 (٣) القلقلان - نبت له ثمر ، عطلت حواليه - أخرجت ما فيه من ثمر .
 (٤) منقاض رقص - المكان الذى يفقس فيه بيض طير المكاكى ، الزغب -
 الفراخ الصغيرة التى لم ينبت فيها الريش .
 (٥) أقواع - جمع قاع ، الشماليل - موضع ، أحرارها وذكورها - الأحرار
 ما حلا ورق ، والذكور ماخشن منه .
 (٦) الخلصاء - موضع ، عنت به - اعتنت به فنبت نباتا حسنا .

ألفن الهوى حتى اذا البروق ارتمى
به بارح راح من الصيف شامس (١)
وابصرن أن النقع صارت نطافه
فراشا وأن البقل ذاو ويابس
بل اصفر لونه ، وتغير طعمه ؛ واجترأت القطا على أن تخوض فيه :

وخاض القطا فى مكرع القوم باللوى
نطافا بقاياهن مطروقة صفر (٢)
لقد اشتد الحر وقست الحياة على كل شئ حتى الابل المعروفة
بالصبر ضاقت به بعد أن لدعها سفا الشوك المتطاير الى النقر
التي فى روعسها حيث يأوى القراد :

رمى أمهات القرد لذع من السفا
وأحصد من قريانه الزهر النضر (٣)
كما تساقط الوبر عن صغار الابل ؛ وترقرق السراب على وجه
الرمال :

وطار عن العجم العفاء ؛ وأوجفت
بريعان رقراق السراب الظواهر (٤)
فحننت الابل الى الارتحال ؛ وهاجت لأعداد المياه الأباغر كما
عزم آل مى على مغادرة هذه الديار :

(١) سبق شرح البيتين .

(٢) مكرع - مكان شرب الناس والدواب ، نطافا - قليلة ، مطروقة - طرقتها
الناس وشربوا منها كثيرا .

(٣) أمهات القرد - نقرة فى رأس البعير يأوى إليها القراد ، أحصد - نفج
وحل حصاده .

(٤) العجم - صغار الابل ، العفاء - الوبر ، أوجفت - اضطربت ، ريعان -
أول ، الظواهر - المرتفع الظاهر من الأرض .

فلما رأين القنص أسفى وأخلقت
 من العقریات الهیوج الأواخر (١)
 جذبین الهوى من سقط حوضى بسدفة
 على أمر طعان دعتیه المحاضر (٢)
 لقد أصبحوا ولا معدى لهم عن الارتحال :
 تحملن من قاع القرینة بعدما
 تصیفن حتی ما عن العد حابس (٣)

وإذا كنا لم نستطع أن نحدد فيما سلف مكانا بعينه يقيم
 فيه آل مية في الشتاء ، بل رأينا أكثر من مكان لهم ، ذلك لاتساع
 هذه الصحراء المسماة برمال الدهناء التي ينزلون فيها ، فهم
 في كل عودة ينزلون في مكان مغاير ربما لأن مكانهم الاول قد
 شغل أو لأن الأماكن لا يفضل أحدها الآخر في هذه الصحراء .

فكذلك لا نستطيع أن نجزم بالمكان الذي يرحلون اليه في
 الصيف ، بل ربما الشاعر نفسه لا يقطع بذلك فهو يذكر لنا أن
 سفرهم بعيد ، يجعل وصل من يواصلهم يتراخى ويفتر :

تحملن من حزوى فعارضن نية
 شطونا تراخى الوصل ممن يواصله (٤)

(١) القنص - مجرى فيه ماء ، أسفى - طار منه السفا (الشوك والورق)
 وأخلقت من العقریات الهیوج الأواخر - جاءت الرياح الحارة المتأخرة التي تجيء
 بنوء العقرب خلف النبات فأبيسته .

(٢) سقط حوضى - مكان ، سدفة - ظلمة ، طعان - من يدعوهم الى السفر
 والرحيل ، المحاضر - أماكن المياه .

(٣) سبق شرحه .

(٤) حزوى - مكان ، نية - نوى ، عوجاء - مائلة عن القصد ، تراخى - تباعد
 والمعنى : رحلن من حزوى قاصدين نية أو مقصدا بعيدا لايتهدى اليه ولا يصله
 من يريداه الا بمشقة .

ويقول :

ديار لمي أصبح اليوم أهلها
على طية زوراء شتى شعوبها (١)

ولعل من أسباب ما يدور بينهم من لغط وحوار ؛ وهم
عازمون على السفر - اختلافهم حول المكان الذي ينزلون فيه :

عشية جاءوا بالجمال وبينهم
مخالجة لم يبرموها كما هيأ (٢)

ان كل ما يشغلهم هو اختيار « الماء » الذي لم تكن قد سبقت
اليه قبيلة أخرى فشغلته ؛ وليس من الضروري أن يكون مكانا
بعينه أو ماء بعينه :

تحملن من قاع القرينة بعدما
تصيفن حتى ما عن العد حابس
الى منهل ، لم تنتجعه بعكة
جنوب ولم يغرس به النخل غارس (٣)

وغالبا ما يكون هذا الماء بعيدا عن الريف الذي يضيق به
العربي الخالص ، كما يكون واقعا بين أرض مرتفعة تحميها من
الجفاف والتبخر ؛ وتحفظ له بمرودته وكثرتة :

تيمم ناوى آل خرقاء منهلا
له كوكب فى صرة القيظ بارد (٤)

(١) طية - القصد الذي يريده ، زوراء - معوجة تخالف ارادته ، شتى
شعوبها - شعوبها واتجاهاتها مختلفة أى سار أهل مى الى جهة غير معروفة لأن
آراءهم حول المكان الذي يقصدونه كثيرة مختلفة .

(٢) مخالجة - خلاف حول السفر .

(٣) لم تنتجعه - لم تقصده وتذهب اليه ، عكة - شدة الحر ، جنوب -
رياح حارة تهب من الجنوب ، لم يغرس به النخل غارس - بعيد عن القرى .

(٤) تيمم - قصد ، كوكب - معظم ، قيظ - شدة الحر .

لقى بين أجساد وجرعاء نازعت
حبالا بهن الجازئات الأوابد (١)

ليمكنهم أن يستقوا منه ، ويسقوا قطعانهم :

حتى وردن عذاب الماء ذا برق

عدا يواعدنه الأصرام والعكرا (٢)

لكن الشاعر قد أفصح في بعض قصائده عن بعض تلك الأماكن
فهو قد ذكر لنا مرة ماء « الوشيح » على أنه الماء الذي يقصده آل
(مية) فقال :

فأصبحن يمهدن الخدور بسدفة

وqlن الوشيح الماء والمتصيف

كما يذكر لنا أيضا أنها تصيف في الحفر وان كان لم يحدد
هل هي « حفر سعد » أم « حفر الرباب » وبينهما مسيرة شهر
كما يقول شارح الديوان : -

غراء آنسة تبدو بمعلقة

الى سويقة حتى تحضر الحفرا (٣)

فأين ومتى التقى بها ؟ من المؤكد أن التقاءه بها كان يكثر
فى الشتاء حين يعود كل حى الى المكان الذى ارتحل عنه أو الى مكان
قريب منه ؛ فتعود اللفة واللقاء الى سالف عهدها :

وفى كل عام رائع القلب روعة

تشائى النوى بعد إئتلاف الجمائل (٤)

(١) لقى - ملقى أى المنهل ، أجساد - أرض غليظة ، وجرعاء - أرض لينة
وملية ، نازعت - جاذبت ، الجازئات - الحيوانات المتوحشة المجترقة بالمرعى ، حبالا
- رمالا مستطيلة .

(٢) ذا برق - حجارة ورمل ، العد - منهل لا ينقطع مازة ، الأصرام - القطيع
من الناس ، والعكر - القطيع من الإبل ما بين العشرين الى الأربعين .

(٣) غراء - بيضاء ، معلقة وسويقة والحفر - أماكن فى صحراء الدهناء .

(٤) تشائى - تفرق البعد والسفر ، الجمائل - الجمال .

إذا الصيف أجلى عن تشائني من النوى

أملنا اجتماع الحى فى عام قابل (١)

وقد رأينا تلك المنازل التى ينزلونها فى الشتاء تتكرر بكثرة
فى شعره « كالزرق » التى تكررت نحو ثمانى عشرة مرة . ولكن ذلك
لا يمنعه من أن يزورها فى مغناها الصيفى حين يشتد به الشوق
ويؤرقه الحنين ؛ فيقطع إليها المفاوز ؛ التى تكنفها الظلمات ولا يتردد
فيها سوى صوت البوم :

لك الخير ؛ كم كلفت عيني عبرة

إذا انحدرت عادت سريعا جمومها (٢)

وكلفتني من سير ظلماء والدجى

يصيح الصدى فيها؛ ويصبح يومها (٣)

ويقول :

فرب بلاد قد قطعت لوصلكم

على ضامر منها السنام المحطما

متجاهلا حرص أهلها على أن يظل بعيدا عنها ، وعن ديارها ،
خاصة وأنها زوجة لغيره :

خليلى أدى الله خيرا اليكما

إذا قسمت بين العباد أجورها

بمى إذا أدلجتما اطردا الكرى

وان كان آلى أهلها لا أطورها (٤)

وإذا كنا لا نستطيع أن نقطع بأول لقاء لهما ؟ متى كان ؛
ولا فى أى مكان قد حدث ؟ فإن ذلك لا يمنعنا من أن نستنتج ،
ونرجح كما هو الشأن فى استخلاص الحقائق الأدبية ، والرواة الذين
حدثونا عن أول لقاء لهما لم يحددوا شيئا من ذلك ؛ كل ما ذكره

(١) أجلى - انكشف وذهب والمعنى إذا ما الصيف انجلى وذهب بما فيه
من تفرق ، أملنا الالتقاء فى العام القادم .

(٢) جمومها - دمعها الكثير .

(٣) يصبح يومها - يصوت ويصيح .

(٤) الادلاج - السير ليلا ، لا أطورها - لا أدنو منها .

جاء عاما كما في رواية عمارة بن ثقيف الذي قال : حدثني
 ذو الرمة : أن أول ما قاد المودة بينه وبين مية أنه خرج هو وأخوه
 وابن عمه في بغاء ابل لهم فقال بينا نحن نسير اذ أجهدنا العطش
 فعدلنا الى حواء عظيم فقال لي أخي وابن عمي ايت الحواء فاستسق
 لنا فأتيته وبين يديه في رواقه عجوز جالسة ، قال فاستسقيت
 فالتفت وراءها فقالت : يا مي اسق الغلام ، فدخلت عليها فاذا هي
 تسبح علقه لها وهي تقول :

يا من رأى برقاً يمر حيناً
 زمزم رعداً ؛ وانتحي يميناً (١)
 كان في خافاته حيناً
 أو صوت خيل ضمير يرديناً (٢)

قال ثم قامت تصب في شكوتي ماء وعليها شوذب لها ، فلما
 انحطت على القربة رأيت مولى لم أر أحسن منه ؛ قال فلهوت بالنظر
 إليها ؛ وأقبلت تصب الماء في شكوتي والماء يذهب يميناً وشمالاً ،
 قال فأقبلت على العجوز وقالت : يا بني : أهلك مي عما بعثك أهلك
 له ، أما ترى الماء يذهب يميناً وشمالاً ، قال فأقبلت على العجوز فقلت
 اما والله ليطولن هيامي بها ، قال : وملأت شكوتي ؛ وأتيت أخي
 وابن عمي ، ولففت رأسي فانتبذت ناحية ؛ وقد كانت مي قالت : لقد
 كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك ؛ وحداثة سنك فانشأت
 أقول :

قد سخرت أخت بني لبـيد
 مني ومن سلم ومن وليـد (٣)
 رأيت غلامي سـفر بعـيد
 مثل ادراع اليلـق الجـديد (٤)

-
- (١) زمزم - صوت .
 (٢) حيناً - صوت الابل ورغاؤها ، ضمير - ضامرة ، يرديناً - تغدو .
 (٣) يظهر أن صاحب الأغاني روى الأبيات من محفوظه الخاص فجاءت على غير
 ما هي عليه في الديوان .
 (٤) اليلق - قباء وهو نوع من الكساء .

قال وهي أول قصيدة قتلها ثم أتممتها : هل تعرف المنزل بالوحيد . .

ثم مكثت أهيم بها عشرين سنة . . « هذه الرواية تعطينا الدليل على أن ذا الرمة قد التقى بها أول ما التقى لهذا الداعي أو لداع مشابه له من دواعي الصحراء ، فمن غير المعقول أن يشيب شاعر بفتاة دون أن يراها ، ودون أن تستأثر بنفسه بسبب أو أكثر من أسباب الإعجاب ، بل إن مجرد رؤية عابرة لفتاة أيا كانت هذه الفتاة لا يمكن أن تترك هذا الأثر العميق الذي جعله يتغنى بجمالها ويعبر عن وقع هذا الجمال في نفسه ؛ ويفرض اسمها على التاريخ ، لذلك فنحن نرفض ما قاله ابن قتيبة من أن مئة مكثت زمانا تسمع شعر ذي الرمة ، ولا تراه ؛ فلما رأته وكان أسود دميما ؛ قالت : واسواتاه !! وابؤساه !! واضيعة بدنتياه التي نذرت ذبحها ان لقيته ، فقال ذو الرمة :

على وجه مي مسحة من ملاحه

وتحت الثياب الخزي لو كان باديا
« فكشفت ثوبها وقالت : أشينا ترى ؟ لا أم لك . فقال :

الم تر أن الماء يخبث طعمه

وان كان لون الماء أبيض صافيا
فقالت له أتعجب أن تذوق طعمه ؛ قال اى والله ؛ فقالت له :

تذوق الموت قبل أن تذوقه (١) .

هذه القصة التي رواها ابن قتيبة من القصص الكثير الذي يصنعه الرواة والمحدثون ليكون سببا أو مقدمة لما يروونه من شعر ؛ فحين قرءوا هذه الأبيات التي قيل ان ذا الرمة يهجو بها حبيبته ميا ، وينال منها أبى عليهم خيالهم أن يتركوها دون أن يقدموا لها بحادثة تجذب الجمهور ؛ هذه القصة التي تجعل ذا الرمة يشيب سنوات وسنوات من عمره بفتاة دون أن تراه أو تحادثه ؛ وان كانت تسمع أشعاره تتردد على شفاة الناس - قصة مختلفة من أساسها لأسباب كثيرة ، أولها أن ذا الرمة نفسه أنكر أنه قائل

(١) وفيات الأعيان .

هذه الأبيات ؛ وكان يرد على من يزعم ذلك بقوله : كيف أقول هذا
وقد قطعت دهرى وأفنيت شبابى أشيب بها وأمدحها ثم أقول
هذا !! « وامتعض لهذا وحلف بجهد إيمانه ما قالها (١) » .

بل عرف ذو الرمة فيما بعد من لفق عليه هذه الأبيات ؛ فلقد
كانت أمة لآل قيس بن عاصم اسمها كنزة كما فى ابن سلام (٢) .
« أو هى ابنة عم مية أو « كثيرة » أم سهم بن بردة - كما
فى رواية الأغاني (٣)) قائلة هذا الشعر لتسى ما بين ذى الرمة
ومى من علائق الحب والمودة ، فتباعد بينهما اما بسبب الغيرة
أو بإيعاز من زوج مى لتخلص له زوجته ، أو بإيعاز من قومها
والقصة تحمل معها عوامل هدمها ونقضها ، ذلك أنه من غير المعقول
أن يناقض الشاعر نفسه ؛ فيرميها فى عفافها الذى طالما تفتنى
به أليس هو القائل :

ليست بفاحشة فى بيت جارتها
ولا تعاب ، ولا ترمى بها الريب
وهو الذى ينفى أنه حدثها أو بدا وجهها له ؛ أو نضاً
الدرع عنها داعياً على نفسه بأن يكون هدفاً لكل مكروه ان كان قد
زعم ذلك :

إذا فرمانى الدهر من حيث لا أرى
ولا زال فى أرضى عنو أحاربه
إذا نازعتك القول مية أو بدا
لك الوجه منها أو نضاً الدرع سلبه
بل ينفى أن تكون الثياب مصدر حسننها وجمالها فيقول :
زين الثياب وان أثوابها استلبت
على الحشية يوماً زانها السلب
ومن كانت صفتها ما جاء على لسان الشاعر من عفاف وخلق

(١) الأغاني ج ١٦ ص ١١٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء .

(٣) الأغاني ج ١٦ .

لا يتصور أن تصنع شيئاً مما ورد في « وفيات الأعيان » من بداءة في الحوار ، وتدن في التصرف فتكشف ثوبها ، وتسأله هل يحب أن يذوق طعمه « إذن فالقصة منتحلة ، والأبيات لم تصدر عن ذي الرمة الذي أفنى حياته في التغني بجمال محبوبته ، ومن هذا ندرك أن ذا الرمة لم يكن في حبه شيئاً شاذاً غير ما جرت عليه قوانين الحياة من أن انساناً يرى انساناً فيعجب بمظهره ثم يقترب منه أكثر فتتكشف له نواحي الجمال النفسي والروحي الأخرى فيزداد به التصاقاً ، وتتكرر الالتقاءات وتتشابك الذكريات ، وتنسج خيوطها الذهبية حول العاشقين ، فيتمكن الحب ، وتزيد في تأريثه والهابه تلك العقبات المختلفة التي يصطدمان بها فيتمنيان الفرار والاعتزال بعيداً عن الناس . بل قد يتمنيان ما تمناه « كثير » لنفسه ، ولحبيبته من أن يكونا جملين أجريين تبتعد عنهما الجمال الصحيحة خشية العلوى ؛ فيتركان بمنأى يرعيان معا . . ويرتعان معا :

فيا ليتنا يا عز من غير ريبة

بغيران ، نرعى في خلاء ونعزب (١)

كلانا به عز ، فمن يرنا يقل

على حسنهما جرباء تعدى وأجرب (٢)

أو يتمنيان أن يكونا على رمث تضطرب به الأمواج الهادرة ، بعيداً ؛ بعيداً عن الشاطئ حتى إذا دنا منهما أحد ابتلعتهم الأمواج ، كما تمنى ذلك أبو صخر الهذلي فقال :

تمنيت من حبي علية أننا

على رمث في البحر ليس له وفر

فنقضى هم النفس في غير ريبة

ويغرق من نخشى ملامته البحر

وليس معنى ذلك أننا ننكر أن يتوهج الحب في سرعة خاطفة ؛ ولكننا ننكر أن يستمر إذا كان سريعاً خاطفاً ، وقد عرض علينا

(١) ريبة - شك ، نعزب - نفرد .

(٢) عز - جرب .

ابن حزم أنواعا من الحب الخاطف والحب غير الطبيعي (١) كحب صديقه أبي السرى عمار بن زياد مولى المؤيد الذى رأى فى نومه جارية فاستيقظ ، وقد ذهبت بقلبه فجعلته مغموما ، مهموما ، لا يهنته شئ ، ومن ذلك الحب بالوصف ، والحب من نظرة واحدة . ويعقب ابن حزم على ذلك بقوله : وهذا لله قد وقع لغير ما واحد ؛ ولكنه عندى بنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير ، لا بد له اذ يخلو بفكره ان يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعينا يقيهما نصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرها ، قد مال بوجهه نحوها : فان وقعت المعاينة يوما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية : « ويقول » فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو . . وهكذا فى جميع الأشياء . أسرعها نموا أسرعها فناء وأبطؤها حدوثا وأبطؤها نفادا . ويؤكد ذلك بقوله : ومن الناس من لا تصح محبته الا بعد طول المخافة وكثير المشاهدة ؛ ومتماذى الأنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه من الليالى . . واني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ؛ ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه ألا ضربا من الشهوة . . « لقد أطلنا قليلا فى نفى الخبر الذى يزعم أن مية لم تر ذا الرمة زمنا طويلا ، فلما رآته أنكرته ، لنثبت ما يحدث فى الواقع دائما ؛ وما تؤيده قصائد ذى الرمة التى انتزعها من وجدانه وصور فيها ما عاناه من شوق وقلق طيلة عشرين عاما ، لقد علق بها صبيا لم ينهز العشرين من عمره وأخذ حبه ينمو معه الى أن بلغ حدود الأربعين وهى السن التى فارق فيها الحياة . فلن يكون ذلك أبدا من تلك الانواع العبيثة الخاطفة من الحب التى حدثنا عنها ابن حزم ، وانما هذا الحب قد نما ونضج مع توالى الأيام وتكرر اللقاءات بما فيها من رضا وغضب، وقطيعة ووصال، وتضييق من الأهل والوشاة، وسنرى فيما بعد كيف ضاق به أهلها كما ضاق به زوجها « عاصم » بل حدثنا الرواة أيضا أنه أغرى يوما مية على أن تسبه وتغال منه . . وقد آن لنا بعد طول سياحة أن نجيب على سؤالنا الذى أثرناه

فى بدء هذا الحديث وهو : أين ؛ ومتى التقى بها ؟ ٠٠ لقد ترك لنا الرواة شمعة صغيرة يمكن أن تهدينا فى هذه الدروب الملتوية ؛ حين حدثونا عن قصة اللقاء الاول كما جاءت فى الأغاني والتي تعرضنا لها من قبل ٠ فقد جاء فى هذه القصة أن أول شعر قاله فيها :

قد سخرت أخت بنى لبـيد

منى ومن سلم ومن وليد
ورواية الديوان جاءت مغايرة بعض المغايرة لما جاء فى «الأغاني» فقد ورد البيت السابق هكذا :

قد عجبت أخت بنى لبـيد

وهربت منى ومن مسعود

وهو أنسب لما بعده اذ يقول : « رأت غلامى سفر بعيد » فثنى غلام ، ولو كانوا ثلاثة كما فى رواية الأغاني لجمع ؛ كما أننا نعلم أن مسعودا الأخ الأصغر لذى الرمة ، وقد كان كثيرا ما يرافقه فى السفر ، أما سلم ووليد ؛ فلم يرد لهما ذكر فى شعره ؛ ولا نعرف عنهما شيئا ، وأول القصيدة :

هل تعرف المنزل بالوحيد

قفرا محياه أبد الأبيد (١)

فالمكان الذى التقيا فيه لأول مرة يمكن أن يكون هو « الوحيد » كما تشير الى ذلك قصة أول لقاء اشارة سريعة عابرة ، فـالأسباب التى نعتمد عليها فى ترجيح ذلك ، أول هذه الأسباب، أن ذا الرمة كان ينظم الرجز فى مطلع حياته الشعرية ثم عدل عنه الى الشعر بعد أن عجز عن اللحاق بأشهر رجازين فى عصره وأعنى بهما روبة والعجاج وقد قال هو ذلك عن نفسه ٠ قال (٢) قلت الرجز فلما رأيتنى لا أقع من الرجلين (العجاج وروبة) أخذت فى القصيد وتركته ٠٠ « وهذه الأبيات من الرجز الذى كان ينظمه ثم عدل عنه ؛ والتعبير « بسخرت » أو عجبت » كما فى روايتى البيتين فيهما ايماء الى قولها له : لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من

(١) أبد الأبيد - الزمن المتطاوّل

(٢) الموشع للمرّزبانى

صغر سنك» يضاف الى ذلك أن « الوحيد » هذه رغم أنها تكررت في شعره مرتين فقط الا أن مكانا مكملًا لها وملتصقا بها هو حوضي تكرر أكثر من ثمانى مرات ؛ وقد جمع بينهما فى الأبيات الآتية :

ألا يا دار مية بالوحيد
كان رسومها قطع البرود (١)

الى أن يقول :

فهجت صبابتى ولكل الف
تهيج الشوق معرفة العهود
غداة بدت لعينى عند حوضي
بدو الشمس من جلب نضيد (٢)

واذا كانت الصورة الأولى هى التى تلتصق فى نفس الشاعر لأنها بهرته وحركت وجدانه ؛ فان ذا الرمة التصقت فى نفسه صورة لقاءه الأول لها ، وهى التى عبر عنها بالشمس بدت من خلال السحاب الرقيق ، كما أشار الى أن منازل أهلها « بأدعاص حوضى فى آيات أخرى له :

بأدعاص حوضى ، ثم موضع أهلها
جراميز يطفو فوقها ورق السدر (٣)

وأيا كان فمنازل مى وأهلها كثيرة متداخلة كما وضعنا ذلك فى الأجزاء الأولى من البحث ، والذى نريد أن نقوله : أن ذا الرمة قد التقى بمية فى الوحيد أو فى مكان قريب منه ؛ التقى بها فى مطلع حياته اذ كان شابا صغير السن ؛ يمرن لسانه على نظم الأراجيز فأحبها ؛ وظل هذا الحب ينمو معه قرابة عشرين عاما ؛ كان من أثره هذا الفيض من الشعر الوجدانى الرقيق الذى نحتفى الآن بدراسته .

(١) البرود - الثياب المنقوشة

(٢) جلب - سحاب مجلوب

(٣) جراميز - حياض ماء

ملاح مي وصفاتها النفسية والجسدية

فمن مي ؛ وما ملامحها التي استهوت الشاعر ، وجعلته أينما
ولى لا يرى سوى خيالها ، وظلها ٠٠ ؟

لقد اختلف الرواة في اسم أبيها ؛ كما اختلفوا في اسم
أبيه أيضا ؛ فهي مية بنت فلان ابن طلبة بن قيس بن عاصم (١)٠٠
كما في رواية ابن قتيبة ، وهي : مي بنت طلبة بن قيس بن عاصم
المنقرى ، كما في رواية ابن سلام (٢) ٠٠ وهي « مية بنت طلبة
ابن قيس بن عاصم الغساني في رواية ثالثة » (٣) وفي معاهد
التنصيب ووفيات الأعيان : « مية بنت مقاتل » ٠٠ لكن صاحب الاغانى
يقول : كان ذو الرمة يشبب بمى بنت طلبة بن قيس بن عاصم
المنقرى ٠٠ « فهو يؤيد ما جاء في روايتى ابن سلام وابن قتيبة اذا
اعتبرنا كلمة « فلان » وهما من الناسخ أو خطأ مطبعيا وهي بنت

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٣ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام .

(٣) تزئين الاسواق .

عاصم بن طلحة - كما قال أبو عبيد البكري (١) فما الرواية الصحيحة
التي نعتمد عليها ، يبدو أننا سنرفض كل هذه الروايات المضطربة ،
ونعتمد على ما جاء في شعر الشاعر : فهو الوثيقة الرسمية الصحيحة
التي يمكن الاعتماد عليها لقد قال لنا ذو الرمة ان اسم أبيها
« منذر » ، حين تناول باللوم تزويجه لها من انسان قليل الشأن ؛
لا يصلح لها زوجا ؛ فقال :

لئن زوجت مي خسيسا لطلما
بغى « منذر » ميا خيلا يهينها

وأكد ذلك شارح الديوان فقال : منذر هو أبوها ؛ فهي اذن
« مية بنت منذر » جدها قيس بن عاصم المنقري الذي قدم (٢) على
الرسول عليه السلام في وفد بنى تميم فأكرمه ، وقال له : « أنت
سيد أهل الوبر ٠٠ » والذي كان أحد ملوك الغساسنة « تميل اليه
العرب ؛ ويعطى له القياد ؛ حتى ضربت به الأمثال » فقال طرفة
ابن العبد ٠

ولو شاء ربى كنت قيس بن عاصم

وهو من قبيلة بنى تميم ، المترامية الأطراف ، التي تمتد
منازلها بأرض نجد الواسعة الخصبة ؛ المشهورة بجمالها وهوائها ؛

تميمية ؛ حلاله كل شتوة

بحيث التقى الصمان والعقد العفر (٣)

يشتهر قومها بالجاه ، والمال الوفير ؛ فهم « أهل الجياد وأهل
العدو والعدد » ، ترى حول دورهم الأبل الضخمة والخيول الفارحة ؛
وقد يمسى الجميع أولو المحاوى

بها المتجاور الحلل المقيم (٤)

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) الوفيات .

(٣) العقد - رمل منعقد ، العفرة - بياض تملوه حمرة .

(٤) أولو المحاوى - أصحاب البيوت جمع محوى وهو البيت ، الحلل -

الأماكن التي يحلونها .

بعقوتها ، الهجان وكل طرف
كأن نجار نقيبته أديم (١)

وفى أفنيتهم يكثر هدر الابل وصهيل الخيل :
حرى حين يمسى أهلها من فنائهم
صهيل الجياد الأعوجيات والهدر (٢)
يمتلكون العبيد والاماء :

وأبصرتهم حتى رأيت قيانهم
هتكن الستور وانتزعن الأواخيا (٣)
ويلبس نساؤهم الثياب الحريرية الرقيقة التى تشف عما
تحتها :

إذا شف عن أجسادها كل ملحم
من القز واحورت اليك المحاجر (٤)
تظهر عليهن آثار النعمة ، فيتحلين بألوان مختلفة من الحل
التي يزين بها سوقهن وسواعدهن الممتلئة .
وأمثال النعاج من الغواني
تزينها الملاحه : والنعيم
جعلن الحل فى قصب خدال
وأزهرن بالعقد الصريم (٥)

يخرجن للنزهة فى طرفى النهار الضحى أو وقت الطفل قرب
المساء : يركضن الأرض بأرجلهن ليكشفن عن جمالهن وزينتهن .

-
- (١) بعقوتها - ماحول الدار ، الهجان - الابل الكريمة ، طرف - فرس ،
نجار - أصل ، نقيبته - لونه ، أديم - جلد .
(٢) الأعوجيات - ابل منسوبة الى الفحل أعوج .
(٣) قيانهم - اماءهم ، الأواخيا - الحبال تدق فى الأرض تربط فيها الدواب .
(٤) القز - الحرير ، ملحم - نوع من الثياب ، احورت - نظرت اليك .
(٥) قصب خدال - سواعد ممتلئة ، الصريم - الرمل والمراد أن اعجازهن
شبيهة بالرمل المنعقد لضخامتها .

- إذا مشى مشية تآودا
 هز القنالان وما تخضدا (١)
 يركضن ريط اليمن المعضدا
 يخرجن معا ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ؛ يبتسمن حين يلتقين
 فى خفر وحياء ايماض البرق اللامح :
 اذا ما خرجن عن ثلاث وأربع
 تبسمن ايماض الغمام المكلل (٢)
 ينطلقن فى مرج ، وقد توسطتهن أجملهن ، وغالبا ما تكون
 مية :
 يهادين ، جماء المرافق ، وعثة
 كليله حجم الكعب ؛ ريا المخلخل (٣)
 يطمعن الشباب بنظراتهن ؛ حتى اذا أججن فى القلوب نار
 الشوق صددن ؛ وقطعن جبل الرجاء :
 اذا ما امرؤ حاولن أن يقتتلنه
 بلا احنة بين النفوس ولا ذحل (٤)
 تبسمن عن نور الاقاحى فى الثرى
 وفترن من أبصار مضروجة كحل (٥)
 وشقفن عن أجساد غزلان رملة
 فلاة ؛ فكن القتل أو شبه القتل (٦)

-
- (١) تآودا - تمايلا ، ماتخضد - ما انكسر أو انثنى ، ريط اليمن المعضدا -
 الثياب اليمنى المنقوشة .
 (٢) المكلل - المجتمع كالأكاليل .
 (٣) يهادين - يمشين حولها ، جماء المرافق - غير بارزة عظام الساقين
 والذراعين ، وعثة - تسير ببطء لامتلائها .
 (٤) احنة - نقد ، ذحل - ثار .
 (٥) مضروجة - مشقوقة واسعة .
 (٦) أجساد - أعناق .

ومما لا شك فيه أن ميا كانت من أكبرهن فتنة حتى استطاعت أن تبهر ذا الرمة بجمالها ؛ ففسى ما ارسل من أجله ، وظل شاخصا ببصره الى مواطن الفتنة فيها ذاهلا عما حوله ، والماء الذى تصبه اليه ينساب على الأرض من حوله الى أن نبهته أمها قائلة : « ألهمتكم ميا عما يهتك أهلك له » فأجابها جواب المدرك لما أصابه « والله ليطولن هيامي بها (١) » لقد رآها أبو سوار الغنوى ومعها بنون صغار فوصفها فقال : مستونة الوجه ، طويلة الخد ؛ شماء الأنف ؛ عليها وسم جمال ٠٠٠ ، فقالت ما تلقيت بأحد من بنى الا فى الابل ؛ قلت (والقائل ابن سلام) : أفكأنت تنشدك شيئا مما قاله فيها ذو الرمة قال : نعم ؛ كانت تسبح سحا ما رأى أبوك مثله .

ويزكى ما رواه أبو سوار الغنوى ؛ ما أورده صاحب الأغاني حيث قال : قال محمد بن الحجاج الأسيدى : مررت على مية وقد أسنت ، فقلت ؛ يا مية ؛ ما أرى ذا الرمة الا قد ضيع فيك قوله :

ما أنت من ذكراك مية مقصر
ولا أنت ناسى العهد منها فتذكر
تهيم بها ما تستفيق ؛ ودونها
حجاب وأبواب ، وستر مستر

قال : فضحكت ، وقالت : رأيتنى يا ابن أخى ؛ وقد وليت وذهبت محاسنى ويرحم الله غيلان فلقد قال : هذا فى ؛ وأنا أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرة فى عين المقرور ، ولن نبرح حتى أقيم عندك عذره ، ثم صاحت يا أسماء ؛ اخرجي ؛ فخرجت جارية كالهما ؛ ما رأيت مثلها ، فقالت ألمان شبيب بهذه وهويها عذر ، فقلت : بلى فقالت : « والله لقد كنت أزمان كنت مثلها أحسن منها ، ولو رأيتنى يومئذ لازدريت هذه ازدرأك اياى اليسوم ؛ انصرف راشدا » لقد اعتاد بعض الباحثين والنقاد تطبيق الشك الديكارتى على كل قصة كهذه ، وقد يزعم زاعم كيف أمكن لامرأة كمي تقييم فى مجتمع مقفل يعتز بالشرف ، ويحاسب المرأة عليه

(١) طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٣ .

كالمجتمع العربي أن تقص كل ذلك عن نفسها والحق أن المرأة العربية كان من مفاخرها الخالدة أن يتحدث الناس بقصة حبها وابن حزم يعجب من ذلك وإن كان لا يملك أن ينكره لقرب عهده به ؛ وإطلاعه على ما كتب عنه ؛ يقول ابن حزم (١) : «وقرات في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلم وينسوه يذكرهن ، ولا أدري ما معنى هذا على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأي عفاف مع امرأة أقصى مناهها وسرورها الشهرة في هذا المعنى» فالقصة اذن صحيحة في جوهرها ؛ وإن اختلفت العبارة التي تؤديها ؛ ومن هذه القصة ؛ ومن أوصاف أبي سوار الغنوي السالفة ندرك أن ميا كانت على قدر غير ضئيل من الجمال ، احتفظت ببقية منه بعد أن أسنت وتعدد أطفالها وليس أمامنا الآن إلا أن نستشف هذا الجمال الذي حدثنا الرواة عنه من خلال الصور الفنية التي رسمها الشاعر بقلمه العاشق ، لقد كاد ألا يترك شيئا فيها دون أن يصفه فاستطاع بذلك أن يعطينا صورة متكاملة لمى بجانيها النفسى والجسدى .

لقد تعرضنا لبعض ملامحها حين قلنا انها تميمية ، تنتسب إلى قوم أغنياء يملكون العديد من الخيول والابل والقيان ؛ ولا يلبس خساوهم إلا الثياب الحريرية الشفافة ..

إذا شف عن أجسادها كل ملحم
من القز واحورت اليك المحاجر
كما أن الجمال التي تحمل رجالهن ضخمة ؛ عالية كأنها
تخل يبرين أو هجر ؛
كان أظعان مى اذ رفعن لنا
بواسق النخل من يبرين أو هجرا

فلا عجب أن تكون مية تامة الجسم ، ممتلئة الذراعين ، والساقين ، « كان حلى شواها ألبس العشرا » مع خلو من اليبس والاعوجاج ؛

وحلى الشوى منها اذا حليت به
على قصبات ، لاشخات ؛ ولا عصل (١)
أما جسمها فقويوم معتدل كالقناة المستقيمة ينتهى بما يشبه
الكثيب الرمل ؛ لذا فهى تنوء به ؛ ويرهقها المشى ، فاذا مشيت
اهتزت خلفها فى جمال وروعة :

ترى خلفها نصفاً قنّاة ، قويمة
ونصفا نقا يهتز أو يتمرم (٢)
تنوء بأخراها ؛ فلأيا قيامها

وتمشى الهوينا عن قريب فتبهر (٣)
كما أن خديها أسيلان مرتويان بماء الشباب والنعمة
تميل الى الطول :

أسيلة مستن الدموع وما جرى
عليه المجن ، الجائل ، المتوشح (٤)
والمجن لمحا من خدود أسيلة
رواء ؛ خلا ما ان تشف المعاطس (٥)

بيضاء صافية البياض ، فاذا نضحت جسمها بالطيب وبخاصة
الزعفران بدت كظبية تتعرض لأشعة الشمس فى وقت الطفل أو
وقت الضحى :

(١) الشوى - الأطراف الساعدان والساقان ، لاشخات ولا عصل - أى
ليست دقيقة ولا معوجة .

(٢) نقا - كثيب من الرمل . يتمرم - يهتز .

(٣) تنوء بأخراها - ثقفلها عجيزتها ، لأيا - بعد جهد ، الهوينا - قليلا
وببطء ، تبهر - يصيبها الاعياء .

(٤) أسيلة - طويلة ، مستن الدموع - مجرى الدموع والمراد خداهما ،
المجن - الوشاح والمراد البطن والصدر ، أسيلة مستن الدموع المراد طويلة
الخددين ، وصدرها وبطنها يتصف بالضمور فالوشاح يجول حولهما .

(٥) رواء - ممتلئة ، المعاطس - الأنوف ، تشف - ترق والمراد أنهم ممتلئان
الخدود رقيقات الأنوف .

وجيد ؛ ولبات نواصح وضح
إذا لم تكن من نضح جادها صفرا (١)

فاذا نضحته بالطيب كان كالمطلى بالذهب :

كان جلوده من مموهات
على أبشارها ذهبا زلالا (٢)

لذلك فكثيرا ما يذكره بها مرأى طبية انعكست أشعة الضحي
أو الغروب على ظهرها الأبيض ؛ واشرابت بعنقها الأغيد لتلاحظ
طلا صغيرا تركته خلفها فراعه منها جمال لونها ، وعينيها ، وجيدها .

ذكرتك اذ مرت بنا أم شادن
أمام المطايا تشرئب وتسنع (٣)

من الآفات الرمل آدماء حرة
شعاع الضحي في متنها يتوضح (٤)

تغادر بالوعساء ؛ وعساء مشرف
طلا ؛ طرف عينيها حواليه يلمح

هي الشبه أعطافا ، وجيدا ومقلة
ومية أبهى بعد منها ؛ وألمح (٥)

لم تشوه صفاء جسمها ونعومته خيلان أو ندوب : ملساء
ليس بها خال ولا ندب « لها بشر مثل الحرير » .

لقد امتازت مية بالجيد الأتلع الناعم الذي يشبه جيد طبيئة
مشرئبة تتطلع الى وليدها كما رأينا ذلك في الصورة السابقة :

(١) اللبة - النحر ، نضح - رش ، الجادى - الطيب (الزعفران) .

(٢) مموهات - مطليات ، زلالا - صافيا خالصا .

(٣) شادن - غزال صغير ، تشرئب - تمد عنقها ، تسنع - تتعرض أو تمر

عن شماله .

(٤) آدماء حرة - بيضاء كريمة الأصل ، الوعساء وعساء مشرف - رملة لينة ،

طلا - الطيب الصغير .

(٥) العطف - الجانب ، الجيد - العنق .

كجيد الرثم ، أتلع ؛ لا قصيرا
 له غضن ، ولا قفرا عطولا (١)
 فإذا ما احتواها ضجيعها ، لف ذراعها حول جيد ظبية ذات
 غزال ؛ فهي تميل بعنقها متطلعة اليه ؛
 هضم الحشا ، يشنى الذراع ضجيعها
 على جيد عوجاء المقلد ، مغزل (٢)
 يتطوح قرطها عاليا كأنه يتدلى من جبل ؛ من يسقط منه
 يهلك :

ترى قرطها في واضح الليث مشرفا
 على هلك في نفث يتطوح (٣)
 ذات عينين واسعتين ، حوراوين ، سوداوين ؛
 تخللن أبواب الخسور بأعين
 غرابيب ، والألوان بيض نواصع
 فهي : عقيلة أتراب كأن بعينها
 إذا استيقظت كحلا، وإن لم تكحل (٤)
 لقد جمع الله فيهما كل حسن وجمال فمن رآهما أصيب بما
 يشبه الدوار :

وعينان قال الله كونا فكانتا
 فعولان بالألباب ما تفعل الخمر
 فإذا ابتسمت ابتساما سريعا كوميض البرق ؛ كشفت
 عن ثنايا بيضاء نقية ؛ يزيدها جمالا ما بينها من فلع ؛ يترقرق
 عليها رضاب عذب ذو نكهة طيبة .

- (١) الرثم - الظبية ، أتلع - مرتفع ، لاقفرا عطولا - أى ليس خاليا من
 التزين بالحي .
 (٢) هضم الحشا - ضامرة البطن ، مغزل - ذات غزال ، عوجاء المقلد -
 تميل بعنقها على ضجيعها وأصله الظبية تلتفت الى ولدها .
 (٣) الليث - جانب العنق ، مشرفا - مرتفعا ، على هلك - يهلك من يسقط
 منه .
 (٤) عقيلة - مختارة ، أتراب - لدات وهن من فى مثل سنها .

- تريك بياض لبتها ووجها
 (١) قرن الشمس أفثق ثم زالا
- وأشنب واضحا حسن الثنايا
 (٢) ترى من بين ثنيته خلا لا
- كان رضابه من ماء كرم
 (٣) ترقرق في الزجاج وقد أحالا
- لو رأى الآخرس عذوبة ثناياها لنطق :
 هجان الثنايا مغربا لو تبسمت
- لآخرس عنه كاد بالقول يفصح (٤)
 كما تكشف عن لثاة ذات لعس وحوه :
- عن واضح ثفره ، حو مراكزه
 كالأقحوان زهت أحقافه الزهرا (٥)
- وينسدل شعرها الأسود الغزير على جانبي ظهرها كالحيات
 التي تلدغ قلب العاشق :
- وأسبحم كالأساود مسبكرا
 على المتنين منسدلا ، جفالا (٦)
- ممتدا الى رؤوس الوركين :
 تريك ، وذا غدائر واردات
- يصبن عثاعث الحجبات سود (٧)

-
- (١) قرن الشمس - أوله ظهورها ، أفثق - فثق السحاب وبرز منه .
 (٢ ، ٣) وأشنب واضحا الخ : أى وثفر أبيض الأسنان يشبه رضابه الخمر
 التي تترقق في الزجاج وقد مر عليها حول فإزداد عتقها .
 (٤) هجان مغرب - شديدة بياض الثنايا .
 (٥) حو مراكزه - اللثة ضاربة الى السواد وهى علامة صحة عند العرب
 القدماء ، الأقحوان - زهر أبيض ، زهت - لونت ، أحقافه - رماله .
 (٦) مسبكرا - طويلا ، ممتدا - جفالا - كثيرا ، الأساود - الحيات .
 (٧) واردات - طوال ، الحجبات - رؤوس الأوراك ، عثاعث - لينة كالارض
 الرملية .

كثيرا ما تطويه بالمدارى وتسرحه :
 وذو غدر فوق الذنوبين مسبل
 على البان يطوى بالمدارى ويسرح (١)
 ولطوله وغزارته يلفها كالرداء حين تتجرد الا من الدرع
 القصير :

إذا انجردت الا من الدرع وارتدت
 غداثر ميل القرون سخام (٢)
 لين ناعم غير قصير ولا أصهب لأنها عربية حرة :
 هجان تفت المسك فى متناعم
 سخام القرون؛ غير صهب ولا زعر (٣)
 ملتفة الجسم ؛ دقيقة الخصر ، لينة العظام :
 أناة ؛ تلوث المرط منها بدعصة
 ركام ؛ وتجتاب الوشاح فيقلق (٤)
 وتكسو المجن الرخو خصره كأنه
 اهان ذوى عن صفرة فهو أخلق (٥)
 ذات أنامل مسترسلة ناعمة ؛ حمراء الأطراف كبنات النقة
 التى تختفى وتظهر :
 خراعيب ؛ أملود ، كأن بنانها
 بنات النقا تخفى مرارا وتظهر (٦)

-
- (١) فوق الذنوبين - أسفل المتنين وهما جانبا الظهر .
 (٢) سخام - ناعم لين .
 (٣) صهب - صفر والعرب تأنف من الاتصاف باصفرار الشعر لأن ذلك يدل على أنه غير عربى ، زعر - قصير .
 (٤ ، ٥) أناة - تسير ببطء ، تلوث المرط - تلف الثوب ، بدعصة - بعجيزة مثل كتيب من الرمل المجتمع ، تجتاب - تلبس ، المجن - الثوب وكل ما يستر . اهان - عود العنق وهو ما يكون به البلع فى النخلة ويسمى العرجون .
 أخلق - أملس أى أن خصرها ضامر ناعم كالعرجون .
 (٦) خراعيب - طوال ، أملود - ناعمة والمراد أصابعها .

تخضب يديها بالحناء كثيرا :
 أسيلة مستن الوشاحين قائي
 بأطرافها الحناء في سبط طفل (١)
 يبدو نديها المشرئب فوق الحشا الضامر جميلا رائعا :
 بعيدات مهوى كل قرط عقده
 لطاف الحشا تحت الندي الفوالك (٢)
 اذا تحدثت تحدثت بصوت خفيض تقطعه ابتسامتها السريعة
 المتلألئة :

يقطع موضوع الحديث ابتسامها
 تقطع ماء المزن في نرف الخمر (٣)
 تزين ابتسامتها الحديث :
 كأن على فيها تلالؤ مزنة
 وميضا اذا زان الحديث ابتسامها
 كلامها خال من اللغو والثرثرة :
 تبسم ايماض الغمامة جنبها
 رواق من الظلماء في منطق نزر (٤)
 تكره الصخب ونسج القصص والأحاديث :
 صمت الخلاخيل ، خود ليس يعجبها
 نسج الأحاديث بين الحى والصخب (٥)
 يشبه حديثها حلاوة العسل الممزوج بالماء المثلوج :
 ونلت سقاطا من حديث كأنه
 جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع (٦)

-
- (١) أسيلة - طويلة ، مستن الوشاحين - ملتقى الوشاحين والمراد الخصر
 سبط - ناعم لين ، طفل - ناعمة أيضا .
 (٢) الفوالك - الملقفة .
 (٣) موضوع الحديث - حديثها الخفيض ، المزن ، جمع مزنة وهى السحابة
 المطيرة ، نرف الخمر - أى الخمر المسكرة .
 (٤) جنبها - خباها ، نزر - قليل .
 (٥) خود - شابة ناعمة .
 (٦) الوقائع - جمع وقعة وهى أرض صلبة تمسك الماء .

أو طعم الزنجبيل المعسل :
ولو كلمت مى عواقل شاهق
رغائنا من الأروى سهون عن الغفر (١)
لا يجد فيها عائبها ما يعيبها به :
فيالك من خد أسليل ، ومنطق
رخيم ، ومن خلق تعلق جادبه (٢)
لا تحب أن تنطق بفاحش القول :
قطوف الخطا ؛ عجزاء ؛ لاتنطق الخنا
خلوب لالباب الرجال ، مطولها (٣)
لا تحوم حولها الظنون :

ليست بفاحشة فى بيت جارتها
ولاتعاب ولا ترمى بها الريب

ورغم أن الطبيعة قد وهبتها كل هذه المحاسن التى قلما
تلتقى فى انسان واحد ، تضيف هى الى الجمال الطبيعى ضروبا
أخرى من أسباب الفتنة التى تستهوى الرجال ؛ فهى مفرطة فى
التطين ؛ لا تدع جزءا من جسدها دون أن تضمخه بالطيب ؛ تتعهد
ثناياها العذاب البيض بالاستيكاك لتظل لها نصاعتها :

جرى الأسحل ، الأحوى بطفل مطرف
على الزهر من أنيابها فهى نصع (٤)
فتظل لفمها نكهته الطيبة الى ما بعد انقضاء الليل ، والهبوب
من النوم :

-
- (١) عواقل شاهق - وعول اعتقلت فى الجبل ، رغائنا - مرضعات ، الأروى -
فئات الوعول ، الغفر - أولادهن .
(٢) جادبه - عائبه .
(٣) قطوف الخطا - قصيرة الخطا ، الخنا - الفحش ، مطولها - لاتقى
يوعد .
(٤) الأسحل - شجر تتخذ منه المساويك ، الأحوى - الاسود ، طفل -
ناعم ، مطرف - معنى والمراد أصابعها ، الزهر - البيض .

كان السلاف المحض منهم طعمه
 اذا جعلت أيدي الكواكب تضجع (١)
 تفت المسك في شعرها الناعم ؛ وتشعره جسدها وتمسح
 الأنف والصدر والترائب :
 هجان تفت المسك في متناغم
 سخام القرون غير صهب ولا زعر
 وتشعره أعطافها ؛ وتسوفه
 وتمسح منه بالترائب ؛ والنحر (٢)
 واذا كانت تلبس الثياب الحريرية الشفافة ، وقد تتجرد
 منها مكتفية بالدرع مسدلة شعرها الغزير الممتد حول كتفيها
 وظهرها ؛ فهي أيضا تتحلى بأنواع مختلفة من الحلى ، تتحلى بالأساور
 والدماليج والبرى :
 وفى العاج منها ، والدماليج والبرى
 قنا مالى للعين ، ريان ، عبهر (٣)
 كما تتقلد عقود المرجان :
 كان عرى المرجان منها تعلقت
 على أم خشف من طباء المشافر (٤)
 ولا تفتأ تتعهد عينيها الساحرتين بالكحل
 من الأشرفات البيض فى غير مرهه
 ذوات الشفاه الحو والأعين النجل (٥)

-
- (١) السلاف - الخمر ، المحض - الخالص ، تضجع - تميل الى الغيب .
 (٢) تشعره أعطافها - ترشه على جسدها ، تسوفه - تشمه .
 (٣) العاج - الأساور ، الدماليج - أساور تلبس فى المضدين ، البرى -
 حلقات من ذهب يتحلى بها ، عبهر - غليظة .
 (٤) الخشف - ولد الظبية .
 (٥) الأشرفات - الطوال المرتفعات ، المرهه - ترك الكحل ، النجل -
 مفردما نجلاء وهى شدة بياض العين مع شدة سوادها .

وكفتاة تشعر بما لجمالها من أثر في النفوس ؛ ووقع على
القلوب نراها تتعرض للشباب لتوقعهم في شراك حبها حيناً
بالمشية المتأودة ، وركض الأرض برجليها ليسمع صوت حليها
وحيناً بابرار مواطن أخرى من فتنتها كالبسمة العابرة ؛ والنظرة
القائلة ، واطهار النحر أو الجيد ...

حتى إذا تمكن حبها في القلب ، وتيقنت أن عاشقها لا يستطيع
الفكاك من أغلال حبها الوثيقة ، أخذت تتدلل عليه ؛ وتلعب بعواطفه
فهي :

تقارب حتى تطمع التابع الصبا

وليست بأدنى من إياب المنخل (١)

فإذا شكا إليها حبه وصبايته ؛ وأطلعها على أسرار قلبه ؛
لتبادله الحب سخرت منه قائلة إنما أنت تمزح :

لمى شكوت الحب كيما تتيبني

بودى ، فقالت : إنما أنت تمزح

بعادا ، وادلالا على وقد رأيت

ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرح

وهي ضنيئة بالوصال رغم ما تلوح به من آمال كاذبة ووعد
خادعة :

إذا قلت يجرى الود أو قلت ينبرى

لها الجود يأبى بخلها واعتدالها

على أن ميلا أرى كبلانها

من البخل ثم البخل يرجى نوالها (٢)

هذه هي صفات مى كما استخلصناها من شعره الذى بين
أيدينا ، وهى تؤكد ما رواه أبو سوار الغنوى من أنها كانت على
قدر غير قليل من الجمال ؛ ولا عبرة بما جاء فى تزئين الأسواق (٣)

(١) تطمع التابع الصبا - تجعله يطمع فى اللهو ويميل نحوها ، المنخل -

مثل يضرب لما لا يتحقق ، وذلك أن القارظ العنزى خرج يجمع القرط فلم يعد أبدا .

(٢) المعنى بالرغم من بخلها الشديد فأننى أرجو منها الوصال واللقاء .

(٣) تزئين الأسواق ج ١ ص ٩١ .

من أنها جارية تميل الى القصر ، سمراء ، بدينة ، الا أن فى كلامها
عذوبة : وفى طرفها تغزلا » فهو يناقض نفسه اذ يقول بعد ذلك
مباشرة حين يتحدث عن سبب اعتلاق ذى الرمة بها : ان سبب
اعتلاقه بها أنه مر بالحى وقد أدركه الاوام فقطصد بيتا ؛ واذا هو
بامرأة تتمشط ، حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عثاكيل
النخل ؛ فنادها هل من اداة تبرد الغليل فأبرزت اليه ماء قد
شيب بلبن فشرب ثم ناشدته الراحة فنزل ؛ وقدمت له طعاما
فأكل ، ولم تزل تناديه وهو يعجب بها الى أن تحرك لها قلبه
فأنشد :

وكننت اذا ما جئت ميا أزورها
أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودجليسها
اذا ما انتقضت أحداثه لو تعيدها

ويظهر أن صاحب هذا الكتاب من هواة التسلية واختلاق
الاقاصيص ؛ فغير معقول مطلقا أن ميا تمكث مع فتى غريب
تواكله وتحادثه كل هذا الوقت دون سابق ود أو معرفة . والبيتان
اللذان ذكرهما ليسا لذى الرمة ولا يوجدان فى ديوانه الذى بين
أيدينا ؛ وانما هما لكثير عزة ؛ والذى أوقعه فى هذا الخطأ أن لذى الرمة
قصيدة تتفق مع هذه الأبيات فى وزنها وقافيتها وأولها :

ألا ؛ لا أرى كالدار بالزرق موقفا
ولا مثل شوق هيجته عهدها

وسواء كانت صفات مى الحقيقية تتفق مع هذه الصفات
جميعا التى رسمها الشاعر ، أو مع بعضها . فالذى يعنينا هو
«مى» النموذج المثالى الرائع الذى أحبه وتعلق به الشاعر ، والذى
راه مجسدا فى هذه الفتاة التى أحبها ، وأخلص لها رغم أنها
تزوجت من غيره . والذى ييلو من شعره أنها قد تزوجت من عاصم
المنقرى ابن عمها ؛ بعد حب ذى الرمة لها ؛ فمن النادر أن يعشق
انسان امرأة ذات زوج وأولاد وانما قد يحبها بكرا ثم يستمر
الحب ؛ اذا كان مكثتا ؛ بعد أن تتزوج من غيره ، وكثيرا ما يلجأ

أهلها الى تزويجها من أحد أقاربها ليصرفوا عنها ذلك العاشق الذي
ردد اسمها في الآفاق ، هكذا صنع أبو ليلى حين زوجها من «ورد»
وربما يكون « منذر » والدمى قد صنع نفس الصنيع ، والذي يرجح
ذلك قوله لنفسه :

فيا نفس ذلى بعد مى ، وسامحى
فقد سامحت مى وذل قرينها (١)

ولما أتانى أن مىا تزوجت
خسيسا بكي سهل المعاء وحزونها (٢)

ويظهر أن فى زوجها بعض العيوب الجسدية التى استغلها
الشاعر للتشهير به واهانتته ، وإن كان لم يفصح عنها ؛ فهو
يراه خسيسا زوجها أبوها منه ابتغاء اهانتها وإذا تجرد بجوار
مى شان حسننها وجمالها بمنظره المشوه القبيح :

لئن زوجت مى خسيسا لطالما
بغى منذر مىا خيلا يهينها
تزينك ان جردتها من ثيابها
وأنت اذا جردت يومأ تشينها

كما أن هذا الضيق الى حد تمنى الموت له :

ألا ليت شعرى هل يموتن عاصم
ولم تشتعبنى للمنايا شعوبها
دعا الله من حثف المنية عاصما
بقاضية يدعى لها فيجيبها

ليس مصدره مجرد زواج عاصم من مى ؛ وإن كان ذلك فى
حد ذاته مؤلما ، وإنما عززه ، وأعاناه فى اشعال نار الحقد عليه
ما روى (٣) من أن ذا الرمة ضاف زوج مى فى ليلة ظلماء وهو طامع

(١) قرينها - ذلت شدتها وامتناعها عن الاقتران بغيره .

(٢) الحزن - المرتفع من الأرض ، المعاء - اسم موضع .

(٣) الاغانى ج ١٦ .

يرى بروكلمان أن أكثر من اشتهروا بالحب قد تعلقن بنساء متزوجات .

فى الا يعرفه زوجها فيدخله بيته فيقره فيراها ويكلمها فقط
له الزوج وعرفه فلم يدخله وأخرج اليه قراه وتركه بالعراء وقد
عرفته مية ، فلما كان فى جوف الليل تغنى غناء الركبان ؛ قائلا :

أرجعة يامى أيامنا الأولى
بذى « الأثل » أم لا مالهن رجوع

فغضب زوجها وقال : قومى فصيحى به ، يا ابن الزاوية ،
وأى أيام كانت لى معك بذى الأثل ؛ فقالت يا سبحان الله ضيف
والشاعر يقول ٠٠ فانتضى السيف وقال : والله لأضربنك به حتى
أتى عليك أو تقولى ؛ فصاحت به بـ امرها زوجها ؛ فنهض على
راحلته فركبها وانصرف مغضب يريد أن يصرف مودته عنها الى
غيرها ؛ فمر بفلج فى ركب وبعض أصحابه يريد أن يرفع خفه فاذا
هو بجوار خارجات من بيت يردن آخر ، واذا خرقاء فيهن وهي
امراة من بنى عامر فاذا جارية حلوة شهلاء فوقعت عين ذى الرمة
عليها فقالت لها جارة أترقين لهذا الرجل خفه فقالت تهزأ به :
أنا خرقاء لا أحسن أعمل فسمها خرقاء وترك ذكرى يريد أن
يقبض بذلك ميا فقال فيها قصيدتين او ثلاثا ثم لم يلبث أن مات «
ولقد ذكرت القصة كلها لأنها تعلل لسبب تشبيهه بخرقاء ، كما
تعلل لسبب سخطة الحاد على عاصم زوج مى الذى أهانه بلسانها
فأحب الشاعر أن يقتص منه بهذه الأبيات المتفرقة التى نفت فيها
ضيقه وحقدته ولعل هذا الحادث الذى أوردناه هو الذى أشار
اليه فى الأبيات الآتية :

بكى زوج مى أن أنيخت قلانس
الى بيت مى آخر الليل طلح (١)
قمت كمدا يا بعل مى ، فانما
قلوب لمى آمنو الغيب نصح
فلو تركوها والخيار تخيرت
فما مثل مى عند مثلك ، يصلح

(١) طلح - متعبات ، نصح - نقية لا تضمير لها شرا .

أبيت على مثل الأشافي وبعلمها
يبيت على مثل النقا يتبطح (١)

لقد ثار لنفسه بالتعبيرات اللاذعة « بكى زوج مى فمت
كمدا ؛ فما مثل مى عند مثلك يصلح » وان كانت ثورته لم تستطع
أن تخفى نقاوة حبه الذى عبر عنه بقوله :

قلوب لمى آمنو الغيب نصح

كما لم تخف شكواه المبرحة مما هو فيه اذ « انه يبيت على
مثل الأشافي ؛ وبعلمها يبيت على مثل النقا يتبطح » وعلى كل فاذا كان
فشل فى هذه الزيارة ، فهو لم يفشل فى الكثير غيرها ، فقد روى
لنا تلميذه وصديقه « عصمة بن مالك » أنه قال له : ان مية من منقر
ومنقر أخبت حى وأقفاه لأثر وأعلمه بشر ؛ وقد عرفوا آثار ابلى ، فهل
عندك من ناقة نزور عليها مية فقلت : نعم فأتيناها والقوم خلوف
والنساء فى الرحال فأنخنا عندها واجتمع النساء حولها فقالت ظريفة :
أنشدنا فقال : أنشدن يا عصمة ؛ فأنشدتهن من شعره :

نظرت الى أظعان مى كأنها
ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه (٢)

الى : وقد حلفت بالله مية ما الذى
أحدثها الا الذى أنا كاذبه

إذا فرمانى الدهر من حيث لا أرى
ولا زال فى أرضى عدو أحاربه

فقالت : مية ، ويحك يا ذا الرمة خف الله وعواقبه ، فلما
قلت : اذا سرحت من حب مى سوارح ، قالت الظريفة قتلته قتلك الله
فقلت : مية ما أصحه ؛ وهيتنا له ، فتنفس ذو الرمة تنفيسه
كاد حرها يطير بلحيتي فلما أتيت على قوله :

(١) الأشافي - المخارز وهى آلات لثقب الجلد ، النقا - الرمال اللينة ،

يتبطح - ينام وينبطح .

(٢) ذرى - قمم ، الأثل - شجر الأثل المعروف ، ذوائبه - قممه .

إذا نازعتك القول مية أو بدا
لك الوجه منها أو نضا الدرع سالبه (١)

قالت الظريفة، فقد بدا لك الوجه ، وتنوزع القول، غمن لنا
بأن ينضو الدرع سالبه ، فقالت لها مية قاتلك الله فماذا تأتين به
فتضاحك الظريفة ، وقالت : ان لهذين لشأنا ، فقوموا بنا عنهما
فقامت وقمن معها ؛ وقمت فخرجت ؛ وكنت قريبا حتى أراهما وأسمع
ما ارتفع من كلامهما فوالله ما رأيته تحرك من مكانه الذي خلفته فيه
حتى تاب أوائل الرجال فأتيته فقلت انهض بنا فقد تاب القوم
فودعها فركب وردفته وانصرفنا ٠٠ « أيا كان مدى صدق هذه
القصة فقد تكون مصنوعة للتدليل على عفته ، ونقاء حبه ؛ فهي تدعم
ما قلناه من أنه رآها وحادثها أكثر من مرة الى أن أصبحت داءه ودواءه
الذي لا يستطيع الفكك من أسره ، بل أصبح ما يراه فيها لا يراه
في أحد سواها ، من مفاتن قد تستهوى حتى الحكماء :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت
لعينه مي سافرا كاد يبرق (٢)

(١) نضا الدرع - خلع عنها القميص .

(٢) يبرق - يتحير دهشة .

الفصل الثالث

عالم الشاعر النفسى

آن لنا بعد ما قدمناه من عرض لصفات مى النفسية والجسدية كما يراها ذو الرمة ؛ وكما حدثنا عنها الرواة - أن نقوم بسياحة استكشافية لما تموج به أعماق الشاعر من عواطف وانفعالات هى سر ما فى فنه الشعرى من حرارة وصدق وخلود ؛ ٠٠ وقبل أن نرحل الى عالمه النفسى على أجنحة شعرة المحلقة • نجيب عن هذا السؤال التمهيدى وهو ما الذى كان يثير شجونه ولواعج أشواقه ؟ ٠٠٠ أكثر ما كان يثير أشجانه مرأى تلك المنازل التى التقى فيها بـمى أو رأى فيها مى تتردد وحدها أو مع أترابها :

وقد يرى فيها لعين منظر

مجالس ورب رب مصور (١)

أتراب مى والوصال أخضر

ولم يغير وصلها المغير

لقد درست معالم تلك الديار ولم تبق منها إلا آثار بالية لا تثير انتباه أى عابر فما الغريب المثير فى رؤية تلك الأشياء ؛ نؤى متهدم كان حاجزا لمنع تسرب مياه المطر الى الخيمة ، وموقد بال ، وبقايا من حطب :

(١) رب رب - قطع من البقر الوحشى والمراد الآنسات.

يبدو لعينيك منها وهي مزمنة
نؤى ومستوقد بال ، ومحتطب (١)
الى لوائح من أطلال أحوية
كأنها خلل موشية قشب (٢)
وقطع أعنة ملقاة ، وأوتاد منزوعة الجبال ، وأثاف كانوا
يطبخون عليها :

بها قطع الأعنة ؛ والأثافي
وأشعث خاذل فقد الإصارا (٣)
ورماد غيرته النار :

وضبحا ضبته النار في ظاهر الحصى
كبقاية التنوير أو نقط الحبر (٤) ...
ودعائم الخيام المصرة ؛ ونبات الثمام الذى كان يستظل به ؛
وقد نثرته الريح فى كل مكان ؛ والبقع السوداء فى أماكن إقامتهم ؛
وحظائر الجمال المحطمة ، والبعر القديم الذى يشبه الودع أو
قشر بيض اليمام الذى تركه الفرخ بعد أن خرج منه *
أو ملعب بين المنازل ؛ تتلاقى فيه الفتيات الجميلات أو يلعب
فيه الأطفال :

-
- (١) مزمنة - مر عليها زمن طويل ، النؤى - الحاجز حول الخيمة يمنع
عنها المطر ، محتطب - مكان لوضع الحطب .
(٢) لوائح - لوحاتها الشمس والرياح والمطر ، أطلال - بقايا الديار والآثار
أحوية - خيام مجمعة ، خلل - بطائن السيوف المنقوشة ، قشب - جديدة أو
مختلطة .
(٣) أشعث - الرود المتشعث من الدق عليه ، خاذل - متخلف فى الدار -
الإصار - الجبل الذى يربط به .
(٤) ضبحا - رمادا ، ضبته - غيرته النار ، التنوير - الأئمد (الكحل) .

إلى ملعب بين الحوائن منصف
 قريب المزار؛ طيب الترب ، مسهل (١)
 تلاقى به حور العيون كأنها
 مها عقد ، محرجم ؛ غير مجفل (٢)
 لقد خلت تلك الأماكن من الناس فلا ترى بها شيئا أو تسمع
 نية :

وأقوت من الآناس حتى كأنها
 على كل شبح ألوة لا يصيبها (٣)
 ولم تعد تعمرها سوى الثيران :
 تمشى بها الثيران كل عشية
 كما اعتاد بيت المرزبان نوازيه (٤)
 والبقر الأبيض كالنجوم :

كان بلادهم سماء ليل
 تكشف عن كواكبها الغيوم
 والظباء ذات النزيب :

إذا سير الهيف الصهيل وأهله
 من الصيف عنه أعقبته نوازيه (٥)

-
- (١) الحواء - المنزل (الخيمة هنا) ، منصف - وسط بينهما ، مسهل - سهل
 *
 (٢) مها عقد - المهاة البقرة الوحشية ، عقد - مكان رملي ، محرجم - مجتمع
 *
 (٣) أقوت - خلت ، شبح - خيال ، ألوة - حلف يمينا لا يصيبها - لا يدنو منها أحد
 *
 (٤) المرزبان - ملك القرم أو أميرهم
 *
 (٥) الهيف - الريح الحارة ، نوازيه - ظباؤه

والطيور المختلفة من غربان تحجل ، وحمام موشح ، تنقصر
الأرض بمناقيرها كالأقلام تخط على الورق :

قد احتملت مى فهاتييك دارها
بها السحرم تردى والحمام الموشح (١)
كان أنوف الطير فى عرصاتها
خراطيم أقلام تخط وتعجم

ومن خلال شجر الرمث تحن الريح صباح مساء فى هذه الأرض
الخالية ، كما يسمع فيها عزيف الجن وبغام الوحش :

خلاء ؛ تحن الريح أو كل بكرة
بها من خصاص الرمث كل ظلام (٢)
وللوحش والجنان كل عشية
بها خلفه من عازف وبغام (٣)
وأراغيل النعام الأسود :

قفقرا كان أراغيل النعام به
قبائل الزنج والحبشان والنوب (٤)
وللريح حين يشتد هبوبها فتجول بالحصى - صوت زاجل :
أربت عليها كل هوجاء رادة
زجول بجولان الحصى حين تسحق
وهى تجمع الحصى والتراب وتفرقه :

(١) السحرم - السود .

(٢) معنى البيت : تحن الريح هابة من خصاص شجر الرمث كل مساء أو
صباح .

(٣) الجنان - الجن ، خلفه - صوتان مختلفان ، البغام - صوت الظبية
والناقة .

(٤) أراغيل - جماعات .

أربت بها هوجاء تستدرج الحصى
مفرقة تدرى التراب جموع (١)

هذه الريح العاصفة ؛ وبقايا الأشياء المطروحة على الأرض بعد
أن استغنى عنها الراحلون ، والحيوانات والطيور التي حلت محلهم
ذات شذى خاص لدى العاشق فهي ترتبط في ذهنه ووجدانه
بالذكريات الكثيرة المتشابكة ؛ كما أنها تنقله بمجرد رؤياها من عالم
حاضره الى عالم ماضيه الحبيب بأسطة أجنتها الخضراء على الغد
الذى يتمناه ! وليس غريبا أن نسمع أن عبادة الأصنام نشأت بسبب
ما حمله معه عربى قديم من أحجار كذكرى لبلده الذى تغرب عنه .
ولذلك نجد شاعرنا كل ما مر بمنزلة من منازل مى وقف متسمرًا يكاد
ألا يبرح المكان حتى يضيق به صحبه ؛ بل تضيق به راحلته
أيضا :

فسيرا ، فقد طال الوقوف ، ومله
قلائص أمثال الحنيات ضمير (٢)

فهى تهيج صبابته ، وتطوى به الزمن الى ماضيه الذى يحتفظ
له فى ذاكرته بأغلى الذكريات :

فهجت صبابتى ؛ ولكل الف
تهيج الشوق معرفة العهد
غداة بدت لعينى عند حوض
بدو الشمس فى جلب نضيد

فيسفك دموعه بغزارة ؛ وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائده من
الاشارة الى ذلك ؛ يؤله أن هذه الآثار لا تعفو ، وتزول فهى مشار
آلامه وأشجانه :

(١) أربت - أقامت ، تستدرج الحصى - تمركه .

(٢) الحنيات - القى (جمع قوس) .

إذا قلت تعفو لاح منها مهيج
 على الهوى من طارف وتلاد (١)
 ولا مفر له من أن يمر بها في طريق أسفاره :
 يهيج البكا ألا تريم ، وأنها
 ممر لأصحابي مرارا ومنظر (٢)
 لكن رغم ضيقه بها لأنها تثير بنفسه كوامن الوجد ؛ فهي
 عزيزة على نفسه ، ترابها سحيق المسك :
 كأن سحيق المسك ربا ترابه
 إذا هضبت بالطلال هواضبه (٣)
 وهي شيء حي يخاطبه خطاب صديق لصديقه ، ويثثه أشواقه
 وأشجانه :
 وأسقيه حتى كاد مما أبشه
 تكلمني أحجاره وملاعبه
 فالجماد حين يرتبط في وجدان الانسان وبخاصة الشاعر
 بأعز الذكريات يصبح شيئا حيا ؛ لذلك نجد ذا الرمة يحيى منزلتي
 مني ويسألها :
 أمنزلتي مني سلام غليكما
 هل الأزمى اللاني مضين رواجع ؟
 ويدعو لهما بالمطر الذي لا يكف عن الهطلان :

-
- (١) طارف وتلاد - جديد وقديم
 (٢) الاتريم - ألا تمحي وتزول
 (٣) هضبت - أمطرت ، الطلال - مفردة طل

ولا زال من نوء السماك عليكما
ونوء الثريا وابل متبطح (١)

وان كنتما قد هجتما راجع الهوى
لذى الشوق حتى ظلت العين تسفح

حتى تتردى بثياب من النبات والنور فتبدو كبسط منقوشة :
توديت من ألوان نور كأنها
زرايى ، وانهلت عليك الرواعد

وان كان أحيانا يثوب الى رشده ، فيتساءل :

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى
بوهبين أن تسقى الرسوم البوائد

هذا هو المصدر الأول والمهم فى إثارة ذكرياته : لكنه ليس
المصدر الوحيد وانما هناك مصادر أخرى كثيرة ، منها رؤيته لجماعات
الراحلين : فهم يذكرونه دائما برحيل حبيبته ، ذلك الرحيل الذى
ترك فى صدره جرحا غائرا تنكؤه تلك الرؤى كما تؤرقه طلائع ريح
الصيف الحارة فهي نذير الفراق :

أما يحن القلب الا تشوقه

رسوم المغاني؛ وابتكار الحزائق (٢)

وهيف تهيج البين بعد تجاور

إذا نفجت من عن يمين المشارق (٣)

كان فؤادى قلب جاني مخوفة

على النفس إذ يكسون وشى النمارق (٤)

(١) نوء السماك ونوء الثريا - هو سقوط وطلوع بعض النجوم كالثريا
والسماك والأسد الخ يسمى نوءا ، والعرب قديما كانوا يربطون الظواهر الجوية
كلامطار بهذه الأنواء .

(٢) رسوم - بقايا آثار الديار ، المغاني - الديار ، الحزائق - الجماعات :

(٣) البين - الفراق ، نفجت - هبت .

(٤) النمارق - جمع نمرة وهي الوسادة .

ويثير أشواقه وهو بعيد في مجاهل الصحراء وميض البرق من
فاحية محبوبته فقد يكون مرتبطا في وجدانه بشغرها وحمرة شفيتها :
إذا أومضت من نحو مي سحابة

نظرت بعيني صادق الشوق وامق (١)

بل يؤرقه فيظل ساهرا الى بزوغ الفجر ؛ والخليون من حوله
يغطون في نوم عميق ...

كما يذكره بها تلالؤ سحابة ماطرة تسوقها الريح الجنوبية
الى ديار محبوبته ..

وبيعث كوامن ذكرياته نواح الحمام الجاثم في الديار :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني

حمام تغنى في الديار وقوع

تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى

لوائح ما تجرى لهن دموع

كما تذكره بها تلك الطياء التي يلتقى بها وسط الصحراء
أثناء رحيله ؛ والتي تحمل الكثير من ملامح محبوبته ، عينها الفاترة
بما فيها من حور وكحل ؛ وجيدها الأغيد ، وبريق جسمها وقد
انسكبت عليه أشعة الشمس الصفراء في الضحى أو الأصيل
والخضر الدقيق .

أقول للركب لما أعرضت أصلا

أدمانة لم تربيها الأجاويد (٢)

ظلت حذارا على مطلنفيء خرق

تبدي لنا شخصها والقلب مزروع (٣)

(١) وامق - عاشق محب .

(٢) أصلا - في الأصيل ، أدمانة - طيبة ، لم تربيها للأجاويد - الأرض .

الصلبة .

(٣) مطلنفيء - لاصق بالأرض أى ولد الطيبة ، خرق - لاصق بالأرض

مزروع - مزروع .

هذى مشابه من خرقاء نعرفها
والعين واللون والكشحان والجيد (١)

هى الشبه أعطافا وجيدا ومقلة
ومية أبهى بعد منها وأملح
فهى تفوقها بامتلاء الذراعين والساقين ، ودقة الأذنين :

هى الشبه الا مدريها ، وأذنها
سواء والا مشقة فى القوائم (٢)
كما أن جيد مى تزينه العقود والحلى :

أرى فيك من خرقاء يا ظبية اللوى
مشابه جنبت اعتلاق الحبال (٣)

فعيناك عيناها ، ولونك لونها
وجيدك الا أنه غير عاطل

ولهذا التشابه نلمس تعاطفه مع كل ما يحمل ملامح محبوبته،
وديوان شعره يخلو من أية صور فيها بعض القسوة على هذه
الحيوانات ؛ وفى البيتين السالفين يدعو للظبية بأن الله يجنبها
اعتلاق حبال الصائدين .

فاذا ما أرهقه السفر ، وارتضى فى الهزيع الأخير من الليل
بجوار ناقته لاويا زمامها على يده حتى لا تند منه ؛ فى ذلك الوقت
الذى تكون فيه « أحلى نومة لو ينامها » يزوره خيال محبوبته
فيهيج ما به من أسقام :

-
- (١) الكشحان - مفردهما كشح وهو الجنب .
(٢) مدريها - قريها ، سواء - يستويان ويتشابهان ، مشقة - رقة .
(٣) الحبال - مفردها حباله وهى المصيدة ، غير عاطل - أى تتزين بالحلى .
والمعنى : ان الشبه قوى بين الظبية وخرقاء لاختلاف بينهما فى شيء سوى أن
للظبية قرنين ، وفى قوائمها ييوس ورقة لا توجد فى خرقاء .

أزارتك مى بعد ما قلت ذا هل
فلهاج سقاما مستكننا لمامها (١)

منفرة النوم من عينيه :

ألا خيلت مى وقد نام صحبتى
فما نفر التهويم الا سلامها (٢)

وهى تزوره حاملة معها الريح الطيبة كأنفاس الخزامى المطلوبة
لتنعش هذا المجهد الولهان :

ألا طرقت مى هيوما بذكرها
وأيدى الثريا جنح فى المغارب (٣)

أخا شقة زولا كأن قميصه
على نصل هندی جراز المضارب (٤)

سرى ثم أغفى وقعة عند ضامر
مطية رحال ، كثير المذاهب (٥)

بريح الخزامى هيبتها وخبطة
من الطل أنفاس الرياح اللواغب (٦)

وكثيرا ما يتمنى أن يكون ما يراه حقيقة واقعة :

(١) لمامها - زيارتها السريمة ، ذاهل - ناس .

(٢) التهويم - النوم .

(٣) جنح - مائلة .

(٤) أخاشقة - ملازم للأسفار البعيدة ، زولا - ضامرا ، نصل هندی -

نصل سيف ، جراز - قاطع .

(٥) معنى البيت : أغفى واقعا قريبا من جملة الذى أضمره كثرة رحيله ،

لكثرة مقاصده ومطالبه .

(٦) خبطة - ضربة ، اللواغب - الرياح الهادئة كأنها متعبة من الجرى

والهبوب .

أراني اذا هومت يامي زرتنى
 فيا نعمتا لو أن رؤياى تصدق
 فما حب مى بالذى يكنب الفتى
 ولا بالذى يزهى ، ولا يتملق (١)
 بل كثيرا ما يخاطب طيفها ، خطابه لحقيقتها الماثلة فهو يتعجب
 منها كيف اهدت اليه وهو فى هذه المجاهل المترامية :
 فيا مى ؛ ما أدراك أين منخنا
 معرقة الالحى ، يمانية سجرا (٢)
 ويكرر هذا التعجب فى مكان آخر فيقول :
 تطوف الزور من مى على عجل
 بمسلهين ؛ جوابين للبعد (٣)
 حيث من زائر أنى اهديت لنا
 وكنت عنا بلا نحو ولا صدد (٤)
 ولكنه قد يدرك من خلال تجربته الصادقة ما يدركه
 علماء النفس الذين أفنوا حياتهم فى تحليل مثل هذه الرؤى من أن
 مصدرها طول التفكير وانشغال العاشق بمن يحب :
 نأت دارمى أن تزار ، وزورها
 الى صحبتى بالليل هاد مواعس (٥)

-
- (١) يزهى - يرفع ويكبر فى نظرك زورا .
 (٢) معرقة الالحى - قليلة لحم اللحين أى ماحول الفكين ، سجرا - حمرا
 يمانية - ابل منسوبة الى اليمن .
 (٣) الزور - خيال مى ، بمسلهين - بضامرين ، للبعد - الأرض البعيدة
 يجوبونها ويقطعونها .
 (٤) بلانحو - بلا قصد ، ولا صدد - غير قريب منا .
 (٥) زورها - خيالها ، مواعس - يطأ الرمل (الوعساء) .

إذا نحن عرسنا بأرض سرى بها
هو لبسته بالفؤاد اللوابس (١)

ويمكننا فى نهاية الحديث عن الطيف أن نخالف ما قاله
الدكتور الأهوانى (٢) من أن البحترى أول من أطال الحديث
الطيف ، فشاعرنا ذو الرمة قد سبقه الى ذلك بل ربما يكون البحترى
أحد المقتدين به فى هذا الفن .

فاذا ما آثار أشواقه سبب من تلك الأسباب ؛ وبخاصة
اطلال محبوبته التى لا يملك التحول عنها :

على أننى فى كل سير أسيره
وفى نظرى من نحو دارك أصور (٣)

لفته غمامه من الذكرى فتتفرط دموعه التى يجهد نفسه فى
سبيل اخفائها فهو ينتصر عليها حيناً فيمنعها ؛ وتنتصر عليه حيناً
آخر فتسيل على لحيته .

عشية أثنى الدمع طورا وتارة
يصادف جنبى لحيتى فيجودها (٤)

وقد تتوالى دموعه بكثرة فيشبهها بمزادة مرقوعة بها خروق
يقطر منها الماء ، وأحيانا يحاول أن يخفيها كما رأينا سابقا فتخنقه
الدموع :

لعمرك انى يوم جرعاء مالك
لذو عبرة كل تفيض وتخنق
وانسان عينى يحسر الماء تارة
فيبدو وتارات يجم فيغرق (٥)

(١) عرسنا - تمنا آخر الليل ، لبسته - خلطته .

(٢) فى كتابه عن ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار .

(٣) أصور - مائل العنق لتلفته نحو ديار محبوبته .

(٤) يجودها - يطررها ويبللها .

(٥) يجم - يكثر ، والمعنى : انسان عينى ينحسر عنه الدمع حيناً فيظهر

ويغمره حيناً آخر فيخفى .

وبالرغم من أنه يرى أن سفك الدموع على تلك الأطلال ، أو
القاء التحية إليها أقل ما يفعله :

وقل الى أطلال مى تحية

يحى بها أو أن ترش المدامع

الا أنه يحاول ألا يسفك هذه الدموع لأسباب منها : أنه قد
تجاوز الثلاثين من عمره ووصفه الناس بالحلم والعقل والاتزان ،
فحين يلومه أخوه مسعود على البكاء يعتذر له بأنه صابر على كل
شئ ما عدا تلك الدموع التى تجول بالرغم منه :

عشية مسعود يقول وقد جرى

على لحيتى من عبرة العين قاطر

أفى الدار تبكى أن تفرق أهلها

وأنت امرؤ قد حلمته العشائر (١)

فلا صبر أن تستعبر العين اننى

على ذاك الا جولة العين صابر

ولأنه لا يريد أن يكشف أسرار نفسه للآخرين ، فالجب شئ
مقدس ينأى به العاشق عن لا يفهم أسرارته :

فما زلت أطوى النفس حتى كأنها

بذى الرمث لم تخطر على بال ذاكر (٢)

حياء واشفاقا من الركب أن يزوا

دليلا على مستودعات السرائر

ولأنه لا يريد أن تلوك الألسنة اسم محبوبته وتردد قصة
حبهما المقدس :

فان تحدث الأيام يامى بيننا

فلا ناشر سرا ولا متغير

(١) حلمته - عدته حلما عاقلا رزيئا .

(٢) بذى الرمث - اسم مكان يكثر فيه شجر الرمث .

أو لأنه يرجو أن يحصل على أجر الصابر :

أمستوجب أجر الصبور فكأظم
على الوجد أم مبدى الضمير فجازع

وحتى لا يتعرض لسهام العواذل التي تصوب إليه منهم
كلما لمحو بكاءه وتغير حاله :

يلوم على مى خليلي ، وربما
يجور اذا لام الشفيق ويخرق (١)

ولذلك يدور بينه وبين نفسه صراع عارم ؛ فهو يحاول أن يقنع
نفسه بأن ما يبدو منها من جزع لا يليق به ولا جدوى منه :

عرفت لها دارا فأبصر صاحبها
صفحة وجهي قد تغير حالها (٢)

فقلت لنفسي من حياء رددته
اليها وقد بل الجفون بلالها

أمن أجل دار صير البين أهلها
أيادي سبا بعدى وطال اختيالها

فؤادك مبثوث عليه شجونه
وعينك تعصى عاذليك انهلالها (٣)

ومهما حاول ذلك فالدموع تغلبه على أمره :

فأبديت من عيني والصدور كاتم
بمغرورق نمت عليه سوابه

فيحاول إخفاءها عن رفقته وأصحابه :

(١) يخرق - يعنف .

(٢) صفحة الوجه - ظاهر الوجه .

(٣) شجون - آلام ، انهلالها - سيلان الدمع منها .

فلما رأيت الدار غشيت عمتي
شآبيب دمع ، لبسة المتلثم (١)
مخافة عيني أن تنم دموعها
على بأسرار الضمير ؛ المكتم
بل عن أقرب الناس إليه كآخيه مسعود مثلاً :

فأخفيت شوقي عن رفيقي وانه
لذو نسب دان الى وذو حجر (٢)
وهل للحب منطق ؛ فسيان عند الحب الشاب الذي لم يجرب
والكهل الذي تمرس بالحياة .

فلما عرفت الدار واعتزني الهوى
تذكرت هل لي أن تصابيت من عذر
فلم أر عذراً بعد عشرين حجة
مضت لي وعشر قد مضين الى عشر
ورغم خوفه من لوم العاذلين وقولهم له :
لو كان قلبك من صخر لصدعه
هيج الديار لك الأحزان والذكرا
وزفرة تعتريه كلما ذكرت
مى له أو نحا من نحوها البصرا
بل وإهمالهم له بعد أن عجزوا عن التأثير عليه .

(١) معنى البيت : أنه أسبل عمامته على وجهه ليخفى دموعه عن رفاقه حتى

لا يكشف عن أسرار قلبه .

(٢) ذو حجر - صاحب عقل راجح .

أطاع الهوى حتى رمت به بحبله
على ظهره بعد العتاب عواذله (١)

ألا أنه كثيرا ما يلجأ إليهم مستشيرا ، فغلب النقي جعله
يأنس الى الناس ويطلب المشورة من الجميع :

خليلي هل من حيلة تعلمانها
يدنيكما من وصل مي احتيالها (٢)

فنجحي لها أم لا فان لا فلم نكن
بأول راج حيلة لا ينالها

فهم الذين يلومونه ؛ وهم الذين يشاركونه أيضا آلامه ، فكم
مرة وقف على أطلال محبوبته فاستعبر وبكى فشاركه رفقته البكاء :

بكيت على مي بها اذ عرفت بها
وهجت الهوى حتى بكى القوم من أجلى

فظلوا ومنهم دمعه غالب له
وأخر يشنى عبرة العين بالهمل

لقد أسرف ذو الرمة في الحديث عن بكائه . وتكاد لا تخلو
قصيدة له من ذلك ؛ والرواة يؤكدون تلك الصفة فيه فقد قال رجل
للأصمعي : رأيت ذا الرمة بمربد البصرة وعليه جماعة مجتمعة
وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار وهو ينشد ، ودموعه تجري
على لحيته قصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلي مفرية سرب (٣)

(١) رمت به بحبله على ظهره - كناية عن إهمالهم لشأنه .

(٢) معنى البيتين : يا خليلي هل لديك حيلة نحتال بها لنجعل ميا تبادلتها
الوصل ، فنجحي من أجل هذا الأمل وإذا لم يكن لديك ذلك فلسنا أول من يربو
أملا ويحتال له ثم لا يناله .

(٣) كلي - مزادة (قربة) ، سرب - سائل .

فالامر ليس دعوى يدعيها الشاعر أو سيرا على منهج سلكه السابقون ، وإنما لهذا علتة وسببه فهو شاب في فترة التوهج النفسى ؛ أرهف مشاعره نظمه الشعر وروايته له ووترت أعصابه الأسفار البعيدة المرهقة : ثم هو عاشق لفتاة اجتمعت فيها أسباب الحب والجمال ، أذكت بدلائها وطبيعتها الأنثوية فيه نار الحب ؛ كما أذكأها طول تفكيره فيها وتكرار رؤيته لها مع الصدود والذل والحرمان فهو القائل :

كفى خزنا فى الصدر ، يا مئ أننى
وأياك فى الأحياء لا نتكلم (١)

ثم تلك الأجراس التى تطن دائما فى أذنيه منذرة بالبين والفراق ؛ وتلك الآثار التى تنكا جراحه كلما حاول أن ينسى أو يسلو ، فليس غريبا أن يفيض قلبه من عينيه دموعا غزارا رأينا جزءا من قصتها فيما سلف من حديث ، فهى النافذة أو القنصة الوحيدة التى تتسرب منها نيران ألمه وحزنه ؛ فالدموع كثيرا ما تكون نعمة من نعم الحياة على الانسان :

أجل عبرة كادت لعرفان منزل
لمية لو لم تسهل الماء تدبج
على حين راهقت الثلاثين وارعوت
لداتى ؛ وكاد الحلم بالجهل يرجح (٢)

إذا خطرت من ذكر مية خطرة
على النفس كادت فى فؤادك تجرح

لقد نال اسرافه فى البكاء ، وترديده ذلك من منزلته الشعرية عند بعض من لا يرى النبوغ سوى النظم فى كل الأغراض الماتورة فمن هؤلاء الأصمعى الذى يقول : إنما وضع من ذى الرمة أنه كان

(١) خزنا - ما يخزنه من ألم فى صدره .

(٢) راهقت الثلاثين - دنوت منها ، ارعوت لداتى - اقلع من فى مثل عمري .
عن الصبوة والغرام ، الجهل - السفه .

لا يحسن أن يهجو ولا يمدح • ووقف الفرزدق على ذى الرمة وهو
ينشد قصيدته التى يقول فيها :

إذا أرفض أطراف السياط وهللت
جروم المطايا عذبتهن صيدح (١)

فسأله ذو الرمة : كيف تسمع يا أبا فراس ؛ فقال : أسمع
حسنا ، قال : فما بالى لا أعد فى الفحول من الشعراء ، قال
يمنعك من ذلك ذكر الأبعاد ؛ وبكاؤك الديار ••• ، وإذا كان هذا
مفهوم معاصريه عن الشعر نقادا وشعراء مما تسبب فى إصابته
بالتخلف من جراء الاسراف فى استيعاب تلك الأغراض ، وإن كانت
مخالفة لطبيعة الشاعر ، فإن لذى الرمة العاشق مفهومه الخاص ؛
الذى صرح به فى حوارهِ الذى جرى على لسانهِ مع الوليد بن عبد الملك
الخليفة الأموى (٢) الذى سأل الفرزدق فقال له : من أشعر الناس؟
قال : أنا إلا أن غلاما من بنى عدى بن مناة يركب اعجاز الابل وينعت
الفلوات ، ثم أتاه جرير فسأله : فقال له : مثل ذلك ، ثم أتاه ذو الرمة
فقال له : ويحك أنت أشعر الناس ؟ قال لا ، ولكن غلاما من بنى
عقيل يقال له : مزاحم يسكن الروضات يقول : وحشيا من الشعر
لا تقدر على أن تقول مثله ، هذا هو مطعم ذى الرمة فى الشعر ،
مطمحه أن يصل الى ما وصل اليه مزاحم مجنون بنى عامر - كما فى
بعض الروايات - من الصديق فى التعبير عن الحب ، وكأن ذا الرمة
لا يعترف بمقاييس أهل عصره ؛ كما لا يعترف بمن تسنموا ذروة
المجد من الشعراء كالفرزدق وجرير ، وإن شغلوا الناس زمنا
طويلا ، وشغلوا الرواة والنقاد بمذائحهم وأهاجيهم الزائفة •• لقد
اعترف له نقاد عصره بمساوئهِ للمشاهير فى فن الغزل فقط ؛ ولو
أنصفوا لقدموه عليهم فى هذا الفن ؛ قال أبو عبيدة : كان ذو الرمة
إذا أخذ فى النسيب والوصف فهو مثل جرير وليس وراء ذلك

(١) معنى البيت وقد سبق شرح مفرداته : إذا ما تشعثت السياط على الابل
من الضرب فإن صيدح ناقة الشاعر تسبقها جميعا • وتتبعها فى مواصلة السير
بالرغم من طول المسافات التى جعلت الابل الضخمة ضامرة كالأملة •

(٢) الأغاني ج ١٦ •

شيء (١) « ويقول ابن سلام : كان ذو الرمة دون الفرزدق وجريير ويساويهما في بعض «شعره» (٢) ولا شك أن الذي يساويهما فيه إنما هو النسيب والوصف على ما ذكره أبو عبيدة والذي يعنينا من كل ذلك هو أن هذا الوقوف على الأطلال وبكاء الديار الذي عدم نقاد عصره وشعراؤه مأخذاً على ذي الرمة يؤخره عن قافلة المشاهير نراه نحن وسيلة سبق وتفوق ، فهذه الدموع ما هي إلا ترجمة صادقة لما يؤج في صدر الشاعر من حرق الحب وآلامه ، وإذا كانت الدموع علامة صدق على ذلك فحديث الشاعر عن خلجاته النفسية علامات أخرى تؤازر ما سبق ، ولنستكمل مع الشاعر السباحة النفسية لنكشف عن أسرار نفسه ، الغنية بالأسرار ، فالحب حين أضاع جوانب نفسه كشف له عن كنوزها الدفينة في صدره ، ولعل ذا الرمة من أوائل الشعراء العرب الذين أفاضوا في الحديث عن القلب ؛ وصفوا آلامه ، وخاطبوه مخاطبة الصديق للصديق .

لقد تصدع قلب الشاعر غداة رأى حمولهم تستعد للرحيل
فنصف بقى في صدره ؛ ونصف ارتحل مع الراحلين :

عشية قلبي في المقيم صديعه
وراح جناب الطاعنين صديق (٣)

وحين هصره الحنين أحس بأطراف سهام تنفذ الى قلبه :

فيما من لقلب لا يزال كأنه
من الوجد شكته صدور النيازك

وقلبه كساق جبرت بعد كسر فكلما رأى ربعا لها أعاده
الى ما كان عليه :

(١) الموشح للمرزياني

(٢) الأغاني ج ١٦ .

(٣) جناب - نحو ، الطاعنين - المسافرين .

كان فؤادى هاض عرفان ربعها
به وعى ساق أسلمته الجبائر (١)

ويعجب من هذا القلب المتمرد الذى لا يستجيب لرجائه :

فيا من لقلب قد عصانى متيم
لمى ؛ ونفس قد عصانى مريضها

وبعائبه ، بل يلج فى عتاب هذا القلب الذى برحت به الأسفار
وآلام الوجد والحنين قائلا له : اننى أعجب من حالك ، ففى كل طلل
لك حنة بعير حال القيد بينه وبين اللحاق برفاقه ، فماذا تصنع ..
وقد استحكمت الحب ، وحيل بينك وبين اللقاء ؟ أتستسلم للجزع
والشكوى ؛ أم تكظم ما فى نفسك فتستوجب أجر الصبور الكاظم
ولعله يشير بذلك الى قول الرسول عليه السلام : « من أحب فعف
فصبر فمات مات شهيدا » :

ألا أيها القلب الذى برحت به
منازل مى والعران الشواسع (٢)

أفى كل أطلال لها منك حنة
كما حن مقرون الوظيفين نازع (٣)

ولا برء من مى ؛ وقد حيل دونها
فما أنت فيما بين هاتين صانع

أمتوجب أجر الصبور فكاظم
على الوجد أم مبدى الضمير فجازع

(١) هاض - جعله مهبطا كبيرا ، وعى ساق - انجبار كسر فى ساقه
والمعنى : كلما مرتت على ربع من ربوع قومها خفق قلبى وأصابه الضعف فكانه
ساق مكسور قد جبر ثم سقطت جيوته .

(٢،٣) العران - الأرض الواسعة البعيدة ومثلها الشواسع ، مقرون
الوظيفين - جعل مقيد ، والوظيف من الدابة - هو مقدم الساق ، نازع - يحن
الى وطنه وينزع نحوه .

فاذا سمع صوتها شعر بوخزة سهم حاد :
وأسمع منها نبأة فكأنما
أصاب بها سهم طرير فؤاديا (١)
وقلبه خائف مروع دائما :

تجيش الى النفس فى كل منزل
لمى ويرتاع الفؤاد المشقوق
وحين يراهم يستعدون للرحيل يرتعد قلبه كقلب جان يخشى
أن يعاقب :

كان فؤادى قلب جبانى مخوفة
على النفس أذ يكسون وشى النمارق
فاذا استقلت فى الحمول رجع الى نفسه التى كادت أن تخرج
من صدره

رجعت الى نفسى ، وقد كاد يرتقى
بحوبائها من بين أحشائها الصدر (٢)
كما أن ذكر الفراق الذى لا مفر منه يترك صدعا فى فؤاده
وفتورا فى مفاصله

وذكر البين يصدع فى فؤادى
ويعقب فى مفاصلى أملا لا (٣)
وهو يحس أن الحب الذى تغلغل فى قلبه ونفسه سيصرعه
أن لم يحمه الله من ذلك :

فودعن مشتاقا أصبين فؤاده
هواهن أن لم يصره الله قاتله (٤)
فلم يعد لقلبه من شغل سوى هذا الحب القاتل :

(١) سهم طرير - سهم مشحوذ حاد .

(٢) الحوباء - النفس .

(٣) أملا لا - فتورا واسترخاء .

(٤) لم يصره الله - يحفظه الله ويبقيه .

أذ القلب لا مستحدث غير وصلها
ولا شغلته عن ذكر مية شاغله
لقد تمكن حبها بقلبه فإذا حاول أن يتخلص منه استعصى عليه
ذلك :

لقد علقت مي بقلبي علاقة
بطيء على مر الشهور انحلالها
فإذا خطرت بباله كانت خطرتها بلاء على قلبه ، وداء في مفاصله
تراجع مني أسود القلب خطرة
بلاء ، ويجرى في العظام امذلالها
بل كادت أن تترك جرحا دائما في قلبه :
إذا خطرت من ذكر مية خطرة
على النفس كادت في فؤادك تجرح

وإذا كانت القلوب تتقلب في الحب فتمنحه لشخص ثم تمنحه
لآخر بعد ذلك ، فقلب شاعرنا لا يمنح لسوى محبوبته :

تصرف أهواء القلوب ولا أرى
نصيبك من قلبي لغيرك يمنح
لذلك فهو يعجب من صدره كيف لا ينقض ويتمزق مما
يستمر فيه من وجد :

فلما تلاحقنا ؛ ولا مثل ما بنا
من الوجد لا تنقض منه الأضالع
لقد كان قلبه قبل أن يتوزعه البين ملتئما كما كان مزارها
قريبا مواتها :

ليالى ، لا مى بعيد مزارها
ولا قلبه شتى الهوى متشيع (١)

والآن لقد بلغ منه اليأس مبلغه؛ فيصرخ بهذه الأبيات اليائسة:

يا نفس الامى فموتى أو دعى

ما فى التلاقى أبدا من مطمع !!

وإذا كانت هذه هى صورة قلبه الطعيب الممزق الذى عصف به
الحب ، فإن آثار ذلك تظهر على وجهه الذى هو لوحة العرض أو
بمناوبة الشاشة التليفزيونية لنفسه :

عرفت لها دارا فأبصر صاحبي
صفيحة وجهى قد تغير حالها

وتصيب جسمه بالأدواء ؛ فلقد كان صادقا ، ورائعا حين نقل
الينا بعض ما يعانیه العاشق من أمراض الحب ٠٠ التى تصيب قلبه
كما تصيب سائر أعضائه ؛ فقد يغشى عليه حين يراها ، كما يصاب
بمثل وخزات السهام :

وكنت أرى من وجهه مية لمحة
فأبرق مغشيا على مكانيا (٢)

واسمع منها نبأة ٠٠ فكأنما
أصاب بها سهم طرير فؤاديا
ويصاب بالأرق بينما ينام كل من حوله :

أرقت وقد نام العيون لمزنة
تلاّلا وهنا بعد ههـ وميضها

(١) شتى الهوى - كثير الميول والرغبات ، متشيع - متفرق موزع .

(٢) أبرق - اتعير .

أرقت لها وحدي وقد نام صحبتي
بطيئا من الغور التهامي نهوضها

وهي التي تميته وتحبيه :

ليالي مي موتة ثم نشرة
لما ألمحت من نظرة وكلام

ويكثر من الزفير :

فيا مي هل يجزى بكائي بمثله
مرارا وأنفاسي اليك الزوافر

كما يحس بالحرقه تنتشر في جوانحه فكأنه أصيب بداء قاتل
أو سل مميت :

عشية طالعت لتكون داء
جوى بين الجوانح أو سلا

كما تكثر همومه :

هي الهم والأوسان والنأي دونها
وأحراض مغيار سثيم الخلائق (١)

ويشيع الأسى في أقطار نفسه :

فقيم ؛ ولولا أنت لم أكثر الأسى
على من ورائي من فصيح وأعجم

ويحس بعطش الحب فهو كالناقة المصابة بداء العطش لا يبرئها
الماء من صداها ولا يريحها الداء من شقائها :

فأصبحت كالهيماء ؛ لا الماء مبرئ
صداها ولا يقضى عليها هيامها

(١) الوسن - النوم والوسن الحاجة وهي هنا بمعنى الحاجة ، مغيار - غيور

وهو زوجها ، سثيم - كربه الاخلاق .

وهل يدرك الخرس الذى يصيب المحب حين يشتد به الوجد
فيشعر بمثل اليد التى تقبض على حلقومه فتخرسه وتخنق أنفاسه
سوى من ابتلى بالحب ، وعانى مرارته وعذابه :

وأخذ الهوى فوق الحلاقيم مخرس
لنا أن نحى أو نسلم مانع
واواعة البين تصيب كبده بطعنة سنان فارسي . لا بل هى
أشد وأوجع :

كان سنانا فارسيا أصابنى
على كبدى بل لوعة البين أوجع
فالحب نار فى الليل تشب فى قلب العاشق ؛ فإذا خبت
لا تلبث أن تشتعل مرة ثانية فتصيبه بما يشبه الرعدة :
وحبها لى سواد الليل مرتعدا
كأنها النار تخبو ثم تلتهب
وهو كثير الشكوى مما فى صدره من آلام الوجد ، وحرقة
الحنين :

أصابتك مى يوم جرعاء مالك
بوالجة من غلة ، وكباد (١)
طويل تشكى الصدر اياهما به
على ما يرى من فرقة وبعاد
فالحب يصيبه بما يشبه الحمى :
نعم فانت اليوم كالمعمود (٢)
من الهوى أو شبه المورود

(١) والجة - متغلغلة فى صدره ، كباد - مرض بالكبد ، غلة - حرارة كالعطش
(٢) المعمود - المريض ، المورود - المحموم .

وكثيرا ما يعجز عن وصف ما أهاجته في نفسه من أشواق ؛
وما أنارته من جراح ، فيقول :

فلم يدر الا الله ما هيجت لنا
أهله آناء الديار ، وشامها (١)

ويظهر أن الشاعر الذي اصطلحت عليه أدواء الحب المختلفة
كادت أن تلحقه بركب أصحابه من الشعراء المجانين والموسوسين
الذين أحبهم فيما يبدو ؛ ورأى فيما وصلوا اليه من تعبير وجداني
صادق الغاية الفنية التي لا تتجاوزها غاية كما اتضح ذلك من حواره
مع الوليد بن عبد الملك ، ففي قصائده الغزلية تتردد بكثرة
كلمة الجنون وما في معناها :

فما كلمتنا دارها غير أنها
ننت هاجسات من خيال مراجع (٢)

ويقول :

تداويت من مى بهجران أهليها
فلم يشف من ذكرى طويل خيالها
والفؤاد يرتاع ، وتجيش النفس :

تجيش الى النفس فى كل منزل
لمى ، ويرتاع الفؤاد المشقوق

وترتجف الأرض به كلما لمح دارا من ديارها :

أمن أجل دار « بالرمادة » قد مضى
لها زمن ظلت بك الأرض ترجف (٣)

(١) آناء - جمع نؤى ، شام - سواد من الدخان .

(٢) ننت - أعادت ، خيال - جنون .

(٣) الرمادة - اسم موضع .

وهذا الهلع الذى يصيبه :

فما زال فى نفسى هلاع مراجع
من الشوق حتى كاد يبدو ضميرها

وقد رأينا فيما سبق تمثل طيف محبوبته له كلما خلا بنفسه
تمثلا يكاد أن يخرج به من عالم الأشباح والخيال الى عالم الحقيقة
حتى انه كثيرا ما يخاطبه ؛ ويسأله مستنكرا كيف اهتدى اليه
فى غربته ، بل طلب منه مرة أن يصحبه فى زيارة ممدوحه ابراهيم
ابن هشام ..

وانى اهتدت مى لصهب بقفرة
وشعت بأجواز الفلاة نيام (١)

ولم تستطع مى مهاواتنا السرى
ولا ليل عيس فى البرين سوام (٢)

فان كنت ابراهيم تنوين فالحقى
نزره والا فارجمى بسلام

ثم ماذا يكون الاسراف فى حديث النفس ؛ واجراء حوار بينه
وبينها ، فكأنها شخص آخر سواه يحاوره ويناقشه ؛ ويحاول أن
يقنعه بالحجة والدليل :

اذا ذكرتك النفس ميا فقل لها
أفيقى ، فهيئات الهوى من مزارك (٣)

وما ذكرك الشئ الذى ليس راجعا
به الوجد الا ضلة من ضلالك

(١) صهب - نوق لونها أسود ضارب الى الحمرة ، أجواز الفلاة - وسط
الصحراء .

(٢) مهاواتنا السرى - مشاركتنا فى الامراع فى السير ليلا ، عيس - ابل
بيضاء ، البرين - حلق فى أنف الابل ، سوام - راقعات الرعوس .

(٣) فهيئات الهوى من مزارك - ما أبعد من تهوينه عن مزارك الآن .

ثم هذا الخوف والتوقع الدائم للفراق الذى ينغص عليه حتى
ساعات استقراره :

وقد كنت أبكى ، والنوى مطمئنة
بنا وبكم من علم ما الله صانع (١)

وهذه الرغبة فى الهروب الى الأماكن المقفرة ليتمكنه التغنى
باسمها دون أن يخشى أحدا :

أحب المكان القفر من أجل أننى
به أتغنى باسمها غير معجم

ثم هذا التمثل الغريب لشخصها ، كلما خلا بنفسه ،
وأجراؤه معها حوارا لا يمكن حدوثه إلا بين شخصين مائلين :

أقول لها فى السرينى وبينهما
إذا كنت ممن عينه العين خاليا (٢)

تطيلين ليانى وأنت مليئة
وأحسن يا ذات الوشاح التقاضيا (٣)

وانت غريم لا أظن قضاء
ولا العنزى القارظ الدهر جائيا (٤)

فكانه مسحور بحبها ، بل مصاب بما هو أقوى من السحر :

رأيت لها ما لم تر العين مثله
لشئء فأنى قد رأيت المرائيا (٥)

(١) النوى - نية السفر والرحيل .

(٢) العين - المراد بها هنا من يتجسس على ويستطلع أخبارى .

(٣) ليانى - مماطلتى ، مليئة - غنية ، والمراد : تماطلينى وتغلفين وعودى

رغم غناك ورغم حسن مطالبتى لك بدين اللقاء والوصال .

(٤) العنزى القارظ - رجل ذهب لجمع القرظ فلم يعد الى اليوم فيضرب

به المثل فى عدم تحقيق الأمر .

المرائيا - مفردا مرأى أو امرأة وهو المنظر الحسن .

هي السحر الا أن للسحر رقية
وانى لا ألقى لما بي راقيا

ويصرح فى أكثر من موضع بأنه يحدث نفسه عنها حتى لكأنه
يناجيها عن قرب ؛ فيشعر بشيء من الراحة والهدوء :

أحدث عنك النفس حتى كأننى
أناجيك عن قرب فينصاح بالها (١)

ولعل ذلك هو ما يطلق عليه علماء النفس « أحلام اليقظة »
التي تكون بمثابة تعويض لفقدان شيء عزيز ولقد تردد على السنة
بعض معاصريه ما يفيد شعورهم بالحال التي وصل اليها ذو الرمة ،
فقد قال جرير خرجت مع المهاجر بن عبد الله الى حجة فلقينا ذا الرمة
فاستنشدته المهاجر فأنشده :

ومن حاجتى لولا التنائى وربما
منحت الهوى من ليس بالمتقارب

عطابيل بيض من ربيعة عامر
عذاب الثنايا ، مثقلات الحقائق (٢)

يقظن الحمى والرمل منهن مربع
ويشربن ألبان الهجان النجائب (٣)

فالتفت الى المهاجر ، وقال : أتراه مجنونا ؟ « هذا التساؤل
من المهاجر .. أتراه مجنونا ؟ ما مصدره ؟ »

مصدره لا شك تلك الغرابة فى التعبير ، وتركيب الجمل

(١) ينصاح - يصفو ويستريح من همومه .

(٢) عطابيل - مفردا عطبول وهى الطويلة الجميلة ، رفاق الثنايا - فى
نقمرها رقة وحسن ، مشرفات - مرتفعات ، الحقائق - مفردا حقيقة والمراد بها
عجيزة المرأة .

(٣) يقظن الحمى - يفرلن الحمى فى القيط ، الهجان النجائب - الابل
الكريمة الأصلية ، مربع - مقام

تركيبا لم يتعوده الشعراء من قبل ، وهذا الشعر الملهب ؛ لذلك قال عنه الأصمعي : « ذو الرمة حجة لأنه بدوى ، وليس يشبه شعره شعر العرب » . ثم قال الا واحدة تشبه شعر العرب وهى التى يقول فيها : « والباب دون أبى غسان مسدود » . ولا يعطى الشاعر امكانية تكوين الجملة تكوينا خاصا به ، واستعمال الكلمات فى غير المألوف المعتاد استعمالها فيه الا عمق احساسه وانصهاره فى تجربته التى يحاول أن يعبر عنها ، واذا كنت قد أشرت الى أن ذا الرمة قد عاش تجربة حبه وتسلطت على كل حواسه ووجدانه تسلطا جنونيا مستبدا - فليس معنى ذلك أنه صار بالفعل مجنونا يهذى شأن سواء من مجانين الحب من الشعراء ؛ وانما الذى أراه هو أن ذا الرمة أشرف على أن يكون حاله حال هؤلاء المجانين . . . وتلك الصور التى عرضنا بعضها فيما سبق شبيهة الى حد كبير بما كان يروج فى وجداناتهم ؛ الدموع التى تنفطر بغزارة ، وآلام الحب وأمراضه المختلفة ، وتلك الشكوى والحنين المتجدد ؛ وخياله الذى يطارده ، ثم هذا الحب الذى يتجدد دائما مع الزمن ، ومحاولته الدائبة الاستشفاء من هذا الحب العارم تارة بهجرانها الذى يزيد حبه اشتعالا وتوقدا :

وبعض الهوى بالهجر يحى فيمتحى
وحبك عندى يستجد ويربح

وتارة بالأسفار البعيدة وقطع المسافات المترامية :

إذا اللامعات البيض أعرضن دونها
تقارب لى من حب مى بعيدها (١)

تذكرت مىا بعد ما حال دونها
سهوب ترامى بالمراسيل بيدها (٢)

أو بالاستماع الى ما يقوله الوشاة وما ينقلونه له عنها من
أخبار :

(١) اللامعات - الصحراوات التى تلمع فى ضوء الشمس .

(٢) سهوب - أرض مستوية ، المراسيل - الابل .

ألا ؛ لا أرى الهجران يشفى من الهوى
ولا وأشيا عندي بمى يعيبتها
أو بهجران أهلها الذين يحرمون عليه أن يكلمها أو يدنو
منها :

تداويت من مى بهجران أهلها
فلم يشف من ذكرى ، طويل خبالها
لقد قالوا ان الزمن كفيل بشفاء الصدور من الجوى •
فما باله لم يشف ذا الرمة من آلام حبه المبرحة :
ولم ينسنى مياثرأخي مزارها
وصرف الليالى مرها وانفتالها (١)
وحين يعتصره الحنين بأصابعه القاسية لا يجد دواء سوى
أن يراها أو يكلمها :

تداويت من مى بتكليمه لها
فما زاد الا ضعف ما بى كلامها
وقد يلجأ الى التداوى بالحب من الحب ؛ كما يتداوى السكران
من الخمر بالخمر :

ومن حاجتى - لولا التنائى وربما
منحت الهوى من ليس بالمتقارب

ويقول :

ولم تنسنى ميا نوى ذات غربة
شظون ولا المستطرفات الاوانس (٢)

(١) انفتالها - ذهابها ومضيها •

(٢) غربة - بفتح الغين البعيدة ومثلها الشظون أى البعيدة ، المستطرفات -

اللواتى فى حبهن طرافة وجده •

فاذا ما رحلت استغزه الشوق فحاول أن يتبعها براحلتها
أو يبصره الى أن يطويها الطريق :

ما زلت أتبع في آثارهم بصرى
والشوق يقتاد من ذى الحاجة البصرا

يبدون للعين تارات ويسترهم
ربيع السراب اذا ماخالطوا الخمر (١)

وقد يتداوى بزيارته لأطلالها الدارسة :

ولامى الا أن تزور بمشرف
أو الزرق من أطلالها دمنا قفرا (٢)

فاذا فشلت كل هذه الأدوية فى علاجه .. لجأ الى الدموع
فهى الدواء الوحيد المسكن .

وهو يحار فى أمر حبه الذى لا ينفع فيه قرب أو بعد :

فلا القرب يدنى من هواها ملالة
ولا حبها ان تنزح الدار ينزح (٣)

وحين يضيق بأمره نسمع منه هذه الصرخات اليائسة :

واسوأآته ، ويا ويلى ؛ ويا حربى
انى أخو الجسم فيه السقم والكرب (٤)

وفى النهاية وقد تعذرت عليه كل أسباب الشفاء لا يجد
سوى الموت يتمناه ، ويلجأ اليه صديقا مخلصا :

(١) ربيع السراب - اضطرابه وتحركه ، الخمر - ماوارك من الشجر .

(٢) دمنا مفردا دمنة وهى المكان الذى اسود وبعرت وبالت فيه مواشيهم .

(٣) تنزح - تبعد .

(٤) واسوأآته وياويلى وياحربى - الفاظ للندبة والتفجع ومعناها بالتوالى

ياالحظى السيئ ، وبالهلاكى ، ويا لما سلب منى من مال أو سعادة ..

متى أبل ؟ أو ترفع بى النعش رفعة
على الراح احدى الحزومات الشواعب (١)

فلقد تأكد من أن هذا المرض لا شفاء منه ، وأين له الشفاء
ودواؤه فى يد محبوبته الضئيلة بالدواء :

هى السقم الذى لا براء منه
وبرء السقم لو رضخت نوالا (٢)

واذ كنا أطلنا السماع لشكواه ؛ وصرخاته فلننصت معه
قليلا الى بعض ما تعلمه من تجربته فى الحب ، لقد عرف الكثير مما
لا يتلقنه الناس من الكتب اذا لم يلقيه لهم كتاب الحياة .

لقد علمته تجربته كيف يرضى العاشق بالقليل فاذا كان جميل
يقول :

وانا لنرضى من بشينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ؛ وبالا أستطيع ؛ وبالمنى
وبالآمل المرجو قد خاب آمله

فشاعرنا ذو الرمة يرضى من محبوبته بمجرد انصاتها
لشكواه دون أن يكون منها بذل أو مشاركة :

وانا لنرضى حين نشكو بخلوة
اليهن حاجات النفوس بلا بذل

وتعلم الاستهانة بكل شئ حتى الموت اذا تيسر له اللقاء
بمن يحب :

الا ، لا أبالى الموت ان كان قبله
لقاء بـمى ؛ وارتجاع من الوصل

(١) متى أبل البيت ومعناه : متى أهلك وتحملنى الأيدى على النعش بعد
أن يخترمنى الموت لاستريح من هذا العذاب .

(٢) رضخت - منحت وأعطت .

وكيف تشرق الأرض ، ويفصر اليوم ؛ ويصبح مباركاً حين
تقبل عليه محبوبته اقبال سحابة ضاحكة متهللة :

إذا غاب عنهن الغيور ؛ وأشرقت
لنا الأرض فى اليوم القصير المبارك

تهللن ، واستأنسن حتى كأنما
تهلل أبكار الغمام الضواحك (١)

ويهوى الأرض لا تمتاز بشيء عن سواها غير أنها كانت يوماً
منزلاً لمحبوبته :

لقد كنت أهوى الأرض ما يستفزنى
لها الشوق إلا أنها من ديارك

بل قد ترتفع مكانتها فى عين العاشق الى أن تصبح شبيهة
بالأماكن المقدسة :

أدور جواليك البيوت كأننى
إذا جئت عن أتيان بيتك محرم

وقد عمق الحب إنسانيته ، فجعله صديقاً لكل عاشق يلتقى به
دون سابق معرفة :

أخو كل مشفق يهيم فؤاده
إذا جعلت أعلام أرض تقابله (٢)

كما جعله يلخص لنا فى بعض أبياته ما وصل اليه من تجارب
يمكن أن نطلق عليها « فلسفة الحب » من ذلك ادراكه أن الحب قد
يبقى رغم تقادم العهد ؛ وزوال آثاره المحسوسة :

عفت : وعهودها متقدمات
وقد يبقى لك العهد القديم (٣)

(١) أبكار الغمام - الغمام المبكر الذى يقبل أوائل فصل الربيع .

(٢) أعلام أرض - جمع علم وهو الجبل .

(٣) عفت وعهودها متقدمات البيت - المعنى زالت تلك الديار لبعده العهد

بها ، ولكن ذكرها باقية رغم قدمها .

وكيف يموت الانسان وينشر فى لحظات :
ليالى مى مودة ثم نشرة
لما المحت من نظرة وكلام
وكيف يهجر الانسان من يحبه مكرها رغم بقاء هذا الحب :
وقد عدتني عادات شجر

عنها وهجر « والحبيب يهجر » (١)
وكيف لا يسمع لما يقوله الوشاة الذين يلذ لهم التفريق بين
قلوب المحبين :

تغيرت بعدى أم وشى الناس بيننا
بما لم أقله من مسدى وملحم (٢)
ومن يك ذا وصل فيسمع بوصله
أحاديث هذا الناس يصرم ويصرم (٣)
كما عرف أن الجزع والشوق لا يعيدان الزمن الذى مضى
وولى :

وما يرجع الوجد الزمان الذى مضى
ولا للفتى من دمنة الدار مجزع (٤)
وأرهف حسه فأدرك حنين الحيوان الأعجم حين ينفصل عن
رفاقه :

فقد أورثتني مى مثل الذى به
هوى غربة دائى له القيد قاصر (٥)

(١) عدتني عادات أو عوادى - أى صرفتني صوارف وشواغل .
(٢،٣) من مسدى وملحم ، السدى واللحمة خيوط داخلية فى نسيج الثوب
يمضها فوق بعض والمراد : لم أقل شيئا مما قيل عني . يصرم - تقطع صلته
بالناس .

(٤) ولا للفتى من دمنة الدار مجزع - أى لا ينفع الجزع حين الوقوف على
الدمن وآثار الديار .

(٥) دائى له القيد قاصر - بعير قصر قيده .

وكيف أن الطيور يحن بعضها الى بعض مثل حنينه لمحبوبته :

هوى لك ما ينفك يدعوك مادعا
حماما بأجزاء العقيق حمام (١)

والاوقات قد تتفاضل ؛ وتتفاوت :

لمية اذ لا نشترى بزماننا
زمانا ؛ واذا لا نصطفى من يغولها (٢)

واذ نحن اسباب المودة بيننا
دماج قواها ؛ لم يخنها وصولها (٣)

والهوى قد يصيب المتدين العاقل كما يصيب غيره فيستهدف
لسهام اللأثمين :

ألا ، لا أرى مثل الهوى داء مسلم
كريم ولا مثل الهوى ليم صاحبه

ويستوى عصيان الحب والانقياد له :

متى يعصه تبرح معاصاته به
وان يتبع أسبابه ، فهو غالبه (٤)

وكيف أن الحب قد يأخذ في الازدياد الى أن يصل الى أقصى
مداه :

فما زال يفلو حب مية عندنا
ويزداد حتى لم نجد من يزيدها

(١) أجزاء العقيق - منعطف الوادى وكل واد عقيق .

(٢ ، ٣) من يغولها - من يتنكر لها أو يضم لها الشر ، دماج - مندمجة -
متماسكة لم ينقطع ما بينها من اتصال .

(٤) متى يعصه - الخ - معنى البيت : متى يعص الانسان الهوى فانه يشتم
به ، وان اتبع أسبابه وأطاعه غلبه الحب وانتصر عليه أيضا .

ويدرك من تجاربه أن الزمن لا يطمأن اليه ؛ فهو في خوف دائم :
 وأشفق من هجرانكم وتشفني
 مخافة وشك البين ، والشمل جامع
 ومن تجاربه في الحب عرف أن الشوق يقتاد البصر :
 ما زلت أتبع في آثارهم بصرى
 والشوق يقتاد من ذي الحاجة البصرا
 والنفس تحن الى حيث يكون من تحب :
 هوى تذرف العينان منه وانما
 هوى كل نفس حيث كان حبيبها
 وعلمه الحب كيف يعيش في دنيا من الأحلام والأمنيات :
 غداة أمني النفس أن تسعف النوى
 بمي ، وقد كادت من الوجد تزهق

كما يهدد أشواقه ، ويكفكف من آلامه بهذا الشعر الذي يصور
 فيه لواجع نفسه ، وأناة قلبه ألم يقل « ثيوكريتوس » لصديقه
 بيكياس : أى صديقي بيكياس ؛ ليس للحب دواء ، انه داء الأدواء
 لا يجدى فيه علاج لكن ربات الشعر وحدهن قادات على إبراء العاشق
 وشفائه ؛ فالشعر هو الدواء ، انه حلو ولكن أنى المنال ؟ ألم يكن
 الشعر بلسمًا شافيًا لجراح بولوفيموس لما فتن في ريعان شبابه
 بعروس البحر جالاتيا (١) . نعم هو الحب الذى أذل من كبرياء
 هذا الأعراى فجعله يتوسل لمحبوبته قائلاً :

سلى الناس هل أرضى عدوك أو بقى
 حبيبك عندى حاجة لا ينالها
 والحب هو الذى رقق مشاعره ، وهذب وجدانه ؛ فرقت كلماته

(١) شعر الرعاة ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجه .

وعذبت أنغامه واكتست تلك الحلاوة التي أغرت بانشادها المغنين .
 هذه بعض ملامح « الحب العذرى » ولامح الحب عند ذى الرمة كما
 استخلصناها من أشعار المحبين التي هي أصدق في الدلالة على حبهم
 من كل وصف . . وقد رأينا ذا الرمة « يشارك سائر هؤلاء الشعراء
 في هذه الملامح بل لا نبالغ اذا قلنا ان عددا ضئيلا من شعراء
 الحب هو الذى يسمو الى ما يمتاز به ذو الرمة من حرارة الوجدان
 والصدق فى التعبير ؛ حقا ان تجاربه التي تصور هذا الحب قليلة
 مكرورة فهي لا تتجاوز الارتحال . والحنين والشوق ، ولوم العزال
 والشكوى من الصد ؛ والغيرة من الزوج . ولعل مصدر ذلك هو
 أن « مية » ربما لم تكن تبادله نفس الحب ؛ ولم تعطه من قلبها
 ما أعطته « ليلى » للمجنون أو بثينة « الجميل » ؛ ولم يعيش معها
 كما عاش قيس مع لبنى . . لكن الذى لا شك فيه أن ذا الرمة
 قد اکتوى بلهيب هذا الحب ؛ وتعذب به ، والذى زاد فى عذابه
 أنه استمر معه رغم مجاوزته الثلاثين ؛ وهى السن التى يتجاوز
 فيها الانسان طيش الشباب ، ونزقه .

كما أنه كان متدينا ؛ متمسكا بالأخلاق ؛ كما كان صاحب زوجة
 وأولاد . . وان كان الحب الجسور قد يحطم كل حاجز مهما كان
 منيعا ؛ وقصص العلماء ورجال الدين كالقس وسلامة ، والذين
 صرّفهم الحب عن العلم أو الدين الى الوله ؛ والوجد والشعر .
 والأتين - تزخر بالكثير منها كتب الأدب .

فاذن ذو الرمة شاعر عذرى ، وان لم يكن من بنى عذرة لصدق
 هذا المقياس عليه فالحب ليس وقفا على قبيلة دون قبيلة ، وان كانت
 ظروف الحياة قد تتيح لبعض القبائل من الفراغ أو التحضر مايسمح
 بذيوع هذا الحب وانتشاره بين عدد كبير من شبابها . . ولا يفرض
 مما قلناه أن شاعرنا ذا الرمة لم يصنع قصائد مستقلة فى الغزل
 وانما جاء غزله فى مقدمات القصائد كما كان متبعا فى العصر الجاهلى
 . . فذو الرمة قد أثر هذا النهج ؛ ربما لينال تقدير واعجاب
 النقاد ، والرواة ؛ واللغويين خاصة أنه كان على اتصال مستمر
 بالبصرة ؛ والكوفة مقر هؤلاء العلماء ؛ كما كان ذا طموح لأن ينال
 الحظوة لدى الخلفاء والحكام وبخاصة أنه كان فقيرا وفى حاجة

الى العطايا ولم يكن كجميل أو عمر بن أبي ربيعة فكلاهما ينتمي
الى قوم سادة أغنياء حموهما من السعى ، وطلب المال ، ولذى الرمة
بيت مؤداه أن الفقر لم يكن مزرية له عند محبوبته .

وما الفقر أزرى عندهن بوصلنا
ولكن جرت أخلاقهن على البخل (١)

ولقد أخذته عليه النقاد المتحجرون لأنه خالف ما دأب الشعراء
على ترديده من أن النساء لا يحبين الا كل صبور الوجه ؛ كثير المال ؛
عظيم الجاه . يضاف الى ذلك أن ذا الرمة كان ينفس كـبار
الشعراء كالفرزدق ؛ وجريز ؛ والراعي النميري فى مكائتهم ويرى
نفسه ليس أقل من هؤلاء ؛ لذلك كان كثيرا ما يتساءل : لماذا هو
دون هؤلاء ؟ كما سأل الفرزدق فأجابه بأن الذى غضى من شأنه
هو وصفه للدمن ؛ وأبعاد الأطباء وكثرة البكاء ، وهؤلاء الشعراء
الكبار لا ينظمون شعرهم الا على النهج الموروث التقليدى فكان لابد
له من مجاراتهم فى ذلك ليتم له التقدم ، والمجارة ؛ ونكاد لا نجد
ناقدا أو لغويا قديما حاول أن يجعل شاعرا كجميل أو المجنون فى
طبقة الفرزدق والأخطل وجريز ؛ لا لسبب الا لأن شعراء الحب قد
نهجوا نهجا جديدا لم يعتد عليه النقاد كما لم ينوعوا فى الأغراض
تنويع الشعراء الآخرين .

بقي لنا تسأؤل أخير نحب أن نجيب عليه هو : هل كان
ذو الرمة يحب أكثر من واحدة فبالرغم من أنه أكثر من ذكر محبوبته
«مئة بنت منذر بن قيس بن عاصم المنقرى» نجده كذلك يتحدث
عن « صيداء » وعن « خرقاء » فمن هما ؟ وهل هما محبوبتان
أخريان ؟ أم مجرد صفتين لمية ؟ أراد بهما أن يثير غيرتها ؟ أو يدفع
الظنون عنها .

فلندع « صيداء » الآن اذ أن أحدا من رواة الأدب لم يشير الى
حبه لواحدة أسمها صيداء ، ولنتناول بالحديث حبه لخرقاء ؛ التى

(١) معنى البيت : ان فقرنا لم يزر بنا عندهن ، ولكن بخلهن بالوصال خلق
وعادة فيهن .

اضطرب الرواة في حبه لها وقد لخص لنا صاحب الأغاني طرفاً من هذا الاختلاف إذ قال : «واختلفت الرواة في حبه لخرقاء ، ف قيل انه كان يهواها ، وقيل بل كاد بها مية ، وقيل بل كانت كحالة فداوت عينه فشبيب بها ؛ وقال فيها نحو قصيدتين أو ثلاث ثم مات ؛ والذي قال انها كحالة هارون بن عتبة ، قال شبيب ذو الرمة بخرقاء بغير هوى وانما كانت كحالة فداوت عينه من رمد كان بها فزال ؛ فقال لها ما تحبين ، فقالت عشرة أبيات تشبيب بي فيها ليرغب الناس في اذا سمعوا أن في بقية للتشبيب ففعل ، وقال ابن سلام : شبيب ذو الرمة بخرقاء احدى نساء بنى عامر بن ربيعة ؛ وكانت تحل فلجا ، ويمر بها الحاج ؛ فتقعد لهم وتحادثهم ؛ وتهاديهم ؛ وكانت تجلس معها فاطمة بنت لها ولم تكن فاطمة مثلها وكانت تقول : أنا منسك من مناسك الحج لقول ذى الرمة :

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء ، واضعة اللثام

وأرسلت الى العجيف العقيلي ليشبيب بها فقال :

لقد أرسلت خرقاء نحوى جريها (١)
لتجعلنى خرقاء فيمن أضلت

وخرقاء لا تزداد الا ملاحاة
ولو عمرت تعمير نوح ؛ وجلت

لكن في رواية حبيب بن نصر قال : نزل ركب بأبى خرقاء العامرية فأمر لهم بلبن فسقوه وقصر عن شاب منهم فأعطته خرقاء صبوحها ؛ وهى لا تعرفه فشربه ومضوا فركبوا فقال لها أبوها : أتعرفين الرجل الذى سقيته صبوحك قالت : لا ، والله قال ؛ هو ذو الرمة القائل فيك الإقاول ، فوضعت يدها على رأسها وقالت : ولشواتاه ، وأبوساه ، ودخلت بيتها ، فما رآها أبوها ثلاثاً ؛ والضبى يؤكد الرواية السابقة التى قالت فيها : انها

(١) جريها - رسولها .

منسك من مناسك الحج ، وعن مصعب بن الزبير : أنه شبيب بها ولها ثمانون سنة ، وعن محمد بن يعقوب عن أبيه قال رأيت خرقاء بالبصرة ، وقد ذهبت أسنانها ، وان في ديباجة وجهها لبقية فقلت : أخبريني عن السبب بينك وبين ذى الرمة فقلت : اجتاز بنا في ركب ونحن عدة جوار على بعض المياه فقال : أسفرون فسفرون غيري ؛ فقال : ان لم تسفري لأفصححك ؛ فسفرت ، فلم يزل يقول حتى أزيد ثم لم أره بعد ذلك ، وقال أبو الشبل المعدي : كانت خرقاء البكائية أصبح من القبس ، وبقيت بقاء طويلا حتى نسب بها العجيف العقيلي ؛ وعن صباح بن الهذيل أنه مر في طريقه الى الحج بالمنزل الذي تنزله خرقاء ، فاذا امرأة جزلة عندها سباطان من الأغراب تحدثهم ؛ وتناشدهم فسلمت فردت ، ونسبتني فانتسبت لها ؛ ثم قالت لي ما اسمك ، قلت صباح ، قالت وأبو من ؟ قلت المغلس ، قالت أخذت أول الليل وآخره ، قال فما كان لي همة الا الذهاب عنها .

ويصفها محمد بن الحجاج التميمي : بأنها عالة بالأنساب كانت وهي قاعدة كأنها قائمة من طولها بيضاء شهلاء فخمة الوجه ثم يذكر حديثا طويلا معها ؛ وفي رواية جحظة عن رجل من بنى النجار أنه التقى بها أيضا هي وابنتها . . . ويؤكد ابن قتيبة تشبيهه بخرقاء فيقول : وكان يشبيب أيضا بخرقاء ؛ وهي من بنى البكاء بن عامر ابن صعصعة وسبب تشبيهه بها ، أنه مر في سفره ببعض البوادي ، فاذا خرقاء خارجة من خباء لها فنظر اليها ، ف وقعت في قلبه فخرق ادأوته ، ودنا منها يستطعم كلامها ، فقال : اني رجل على ظهر سفر ، وقد تخرقت ادأوتى فأصلحنيها لي فقلت ، والله اني ما أحسن العمل ؛ واني لخرقاء ، والخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على أهلها . فشبيب بها ، وسماها خرقاء ؛ وقال المفضل الضبي كنت أنزل على بعض الاعراب اذا حججت فقال لي يوما : هل لي أن أريك خرقاء صاحبة ذى الرمة ، فقلت ان فعلت فقد بررتني ؛ فتوجهنا جميعا نريدها فعدل بي عن الطريق بقدر ميل ثم أتينا أبيات شعر فاستفتح بيتا ففتح له : وخرجت علينا امرأة طويلة حسانة ، بها فوه ؛ فسلمت وجلست فتحدثنا ساعة ثم قالت لي : هل حججت قط قلت غير مرة ؛ قالت فما منعك من

زيارتى ، أما علمت أنى منسك من مناسك الحج ، قلت وكيف ذاك
قالت أما سمعت قول عمك ذى الرمة :

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثام

ولكن البغدادى لا يكتفى بأن يتشكك فى حب ذى الرمة لخرقاء
وانما يرى أن خرقاء هى مية ففى (١) الجزء الثالث من خزانة الادب
يقول : اشتهر ذو الرمة بحب خرقاء وهى مية ؛ ومما يؤثر عنه
أنه يخاطب نفسه فى قصيدة طويلة كلها غزل ونسيب فيقول :

إذا قلت ودع وصل خرقاء ؛ واجتنب
زيارتها تخلق حبال الوسائل

فمن أين لصاحب الخزانة هذا الرأى ؟ يبدو أنه استخلصه مما
جاء فى كتاب الأغاني (٢) من أن ذا الرمة لقب لقبته به مية ، وكان
اجتاز بخيائها وهى جالسة الى جنب أمها فاستسقاها ماء ، فقالت :
قومى فاسقه ، وقيل بل خرق أدأوته لما رآها ، وقال لها اخزى
لى هذه فقالت : والله ما أحسن ذلك فانى لخرقاء ؛ قال والخرقاء
التي لا تعمل بيدها لكرامتها على قومها فقال لأمها : مريها أن
تسقينى ماء ، فقالت لها قومى يا خرقاء فاسقه ماء ، فقامت فأتته
بماء وكانت على كتفه رمة ، وهى قطعة من جبل فقالت اشرب
ياذا الرمة ٠٠ فلعب بذلك ، وهذه القصة نفسها قد سبق أن ساقها
ابن قتيبة عن خرقاء لا عن مية ، والذي فعله أبو الفرج الأصفهاني
لم يكن سوى بعض الاضطراب والخطأ نتيجة لجمعه كل الآراء التي
قيلت حول هذا الحب ٠٠ واذا لجأنا الى شعر ذى الرمة - كما
هى عادتنا - نجده يعضد ، الرأى الأول القائل أن مية غير خرقاء ؛
« فمية » من بنى منقر ؛ وخرقاء من بنى البكاء بن عامر بن صعصعة
٠٠ يقول فى احدى قصائده ربما شبه معتذر لى :

(١) الاغانى ج ١٦ ص ١٠٦

(٢) خزانة الادب ج ٣

ومن حاجتى ؛ لولا التنانى ، وربما
منحت الهوى من ليس بالمتقارب

عطابيل بيض من ذؤابة عامر
رقاق الثنايا ؛ مشرفات الحقائق

وإذا كان العطف يقتضى المغايرة كما يقول النحاة ؛ فهما
اثنتان لا واحدة اذ نجده يعطف خرقاء على مية فى صدد حديثه
عن رفيق سفره :

جعلت له من ذكرى تعلقة
وخرقاء ، فوق الواسجات الهواطل
ويقول فى قصيدة أخرى يمدح بها عبيد الله بن معمر
التميمي :

أخرقاء للبين استقلت حملها
نعم غربة فالعين يجرى مسيلها

كان لم يرعك الدهر بالبين قبلها
لمى ؛ ولم تشهد فراقا يزيلها

وإذا لم نستطع أن نتبين ملامح كل منهما من خلال صورة
المتشابهة ، فإن بيتا كهذا ربما يؤكد لنا ما قلناه من أن خرقاء غير
مية ؛ فخرقاء السيدة ذات المال والجاه والتي تعترض طريق الحاج
وتستنشد الشعراء بل تحاول أن تغريهم بالتشبيب ، كما صرح
بذلك الشاعر العجيف العقيلي فى قوله :

لقد أرسلت خرقاء نحوى جريها
لتجعلنى خرقاء فيمن أضينت

خرقاء المرأة العارفة بأسباب الاثارة والفتنة فهى التى تدهن
مارن أنفها بالمسك ، والتى تضع النقاب على وجهها لتزيد فى الاغراء
لا « مية » الفتاة الحدة السن التى ليست لها خبرة بمثل ذلك ؛

والشاعر يرسم لنا هذه الصورة فيقول بعد أن يصف ظليمة
تشبهها :

تلك التي أشبهت خرقاء جلوتها
يوم النقا بهجة منها وتطهيم (١)

تثنى النقاب على عرنين أرنبة
شماء مارنها بالمسك مرثوم (٢)

فالجلوة : ووضع النقاب على الأنف المدهون بالمسك . . لا يصدر
الا عن « خرقاء » التي وصفها لنا الرواة ، ومن الواضح لنا من أقوال
الرواة ، ومن شعر الشاعر أن حبه « لمية » هو الحب الاول الذي نفذ
الى قلبه ؛ وهز بنيان نفسه ، بل ولد مع ميلاد شاعريته حين كان
لا ينظم من القصائد الا الأراجيز ، ولقد اتفق الرواة على أن أول
قصيدة له في مية هي أرجوزته التي يستهلها بقوله :

هل تعرف المنزل بالوحيد
ققرا محاء أبد الأبيد

وقد ظل مسيطرا عليه مدى عشرين عاما . . كما صرح هو
بذلك حين حضرته الوفاة بأنه أحب مية عشرين سنة في غير ريبة
ولا فساد . . » ومن شعره نستطيع أن نجزم بأن أخرى ، ولو كانت
خرقاء ، التي حدثنا عن حبه لها الرواة - لم تقاسمها هذا القلب
الذي امتلأ بها ، ولم يعد يقبل الزيادة في الحب :

فما زال يغلو حب مية عندنا
ويزداد حتى لم نجد ما يزيدا

بل نكاد نجزم بأنه لم يكن في استطاعته التغزل في سواه ادون
استحضار طيفها المحبوب أمامه ؛ وأن قصائده في غيرها لم تكن
سوى قصائد يترجم بها عن حبه لى مع تبديل في الاسم ؛ بل كثيرا

(١) النقا - مكان ، تطهيم - حسن وتمام خلق .

(٢) عرنين - مقدم الأنف ، شماء - مرتفعة في شموخ وسمو ، المارن - مالان

من الأنف ، مرثوم - مدهون .

ما ينسى « خرقاء » أو « صيداء » ليأخذ في الحديث عن « مى » وسنسوق بعض الأمثلة التى تعضد هذه الظاهرة فى هذه القصيدة التى يستهلها بقوله :

أ ان ترسمت من خرقاء منزلة
كالوحي فى مصحف قد مع منشور (١)

ينسى أنه يتحدث عن خرقاء فينتقل عنها الى مى مباشرة
فيقول :

منازل الحى اذ حبل الصفا علق
من آل مى جديد غير مبتور

وفى القصيدة التى أشرنا اليها سابقاً ، والتى أولها « أخرقاء
للبن استقلت حمولها » يخالط أيضاً بين مى ، وخرقاء - اذ إنه
بعد أن يقول : « يزيد التنائى وصل خرقاء جلة ٠٠ » يخالط
رفيقه بقوله :

ألم بمى قبل أن تطرح النوى
بنا مطرحاً أو قبل بين يزيلها (٢)

ثم يقول فى قصيدة أخرى :

هيهات خرقاء الا أن يقربها
ذو العرش والشعشعانات الهراجيب (٣)

ثم يقول بعد أبيات منها :

كم دون مية من خرق ومن علم
كأنه لامع عريان مسلوب (٤)

(١) ترسمت - تتبعت ، الوحي - الكتاب ، مع - معى وزال .

(٢) بين - فراق .

(٣) الشعشعانات - الابل الطوال ، والهراجيب - الطوال .

(٤) خرق - فلاة ، علم - جبل ، لامع - يشير بثوبه أو يشير بيده ، مسلوب

- سلب ماله .

ولم يفرد لخرقاء سوى قصيدة واحدة تمكن فيها أن ينتصر على نفسه فينسى - مؤقتا - أن يذكر اسم مي ، وهذا يؤكد لنا أنه لم يكن جادا في حبه لغير مي ، وإنما فعل ذلك ربما ليثير غيرتها، وليوهمها - شأن العشاق من الشعراء أنه مرغوب فيه من النساء ألم يفتعل جميل قصة طويلة حول فتاة عرضت عليه وصلها ؛ وألحت في ذلك ، ولكنه رفض وفاء لبثينة التي لم تدع في قلبه ولو قدر قلامة ظفر فارغا لم تشغله ، وقد سبقهما الى ذلك امرؤ القيس الذي صرف بحبه ، كما يقول مرضعا عن طفلها ذى التمام الذي لم يتجاوز الحول من عمره ، ولقد أسرف الى حد النرجسية في هذا رفيقهما في الشعر وفي العصر عمر بن أبى ربيعة - فما الذى يمنع أن يفعل ذو الرمة ذلك .. والشاعر العربى كثيرا ما يكنى عن محبوبته . أو يخترع لها لقبا ليصرف الناس عنها .. ألم يقل ذو الرمة هذا :

وانى لأنحى الطرف عن نحو غيرها
حياء ولو طاوعته لم يعادل (١)

والمجنون يكنى عن ليلاه تارة بأم مالك فيقول :
الا انما غادرت يا أم مالك
صدى أينما تذهب به الريح أذهب

وتارة أخرى بأم بكر :

لقد شغفتنى أم بكر وبغضت
الى نساء ، مالهن ذنوب

وحينا بأم حسان :

أستقبل نفع الصبا ثم شائقى
ببرد ثنايا أم حسان شائق (٢)
ويصرح جميل بما يفعله الشعراء تصریحا يزيل كل شك
فيقول :

(١) أنحى - أميل الطرف .

(٢) نفع - محبوب ، الصبا بفتح الصاد - ریح شرقية رقيقة باردة .

سأمنح طرفى حين ألقاك غيركم
لكيما يروا أن الهوى حيث أنظر

وأكنى بأسماء سواك وأتقى
زيارتكم والحب لا يتغير

وليس معنى ذلك أن خرقاء اسم خيالى أو لقب لمية ، وإنما هو اسم حقيقى استطاع الشاعر أن يختبئ خلفه ؛ وربما صاحبة هذا الاسم كانت تعرف أن اسمها لا يعدو أن يكون واجهة « لمية » يخفيها عن أعين الرقباء .. وكذلك فعل بالأسماء والصفات الأخرى كأم سالم ، وصيداء ؛ والذي يعزز هذا أيضا أن أسماء الأماكن هي بعينها الأماكن التي تذكره كلما مر بها بمحبوبته مى .. واعتقد أنه لا داعى للاطالة بذكر هذه الأماكن لتأكيد أنها هي بعينها لم تتغير .

ونحن لا ننكر على الشاعر الذى يحمل قلبا كالفراشة المولعة بالزهر - أن يحب أكثر من واحدة فى أوقات متباعدة ؛ وإن كنا ننكر أن يجمع فى قلبه بين حبين أو ثلاثة كما كان يفعل عمر ابن أبى ربيعة .. فمثل هذا لا يمكن أن نسميه حبا بالمعنى العذرى .. وعلى كل فالذى يلوح لنا من معاشة ديوان الشاعر أن الحب الذى صحب رحلة حياته القصيرة ، والذي دام معه طيلة عشرين عاما ، هو حبه لمية ابنة المنقرى .. وهو الحب الذى جعل منه عاشقا وشاعرا رقيقا تصنع فى شعره الألحان الماخورية التى يتغنى بها المغنون .

الباب الثالث

الطبيعة في شعري الرمة

الطبيعة في شعر ذى الرمة :

ننتقل بعد هذا الحديث الى شعر الطبيعة عند ذى الرمة بعد أن نعرض عرضاً سريعاً مركزاً لشعر الطبيعة عند أستاذه عبيد بن حصن الراعي النميري ؛ فلقد كان ذو الرمة تلميذاً للراعي وراوية أشعاره كما يقول ابن سلام الجهمي متخطين الحديث عن شعر الطبيعة في صدر الاسلام ، لأن الحروب ، والغزوات قد شغلت الناس الى حد ما - عن الشعر المتوارث ؛ وسارت بهم في دروب أخرى جديدة كوصف المعارك الحربية ، وإن كان لبعضهم شعر في الطبيعة لا يقل روعة عن الشعر الجاهلي ، من ذلك هذه القصيدة التي يصف فيها أعرابي البحر الرهيب الذي لم يكن رأى أهواله من قبل ؛ وذلك حين أغزاه بلال بن أبي بردة من ناحية صور (١) ويندم على تلييته الدعوة للجهاد ، عازفاً عن العطاء الذي ينتظر المجاهدين بعد أن رأى من البحر وأهواله ما لم يره من قبل . . . يقول في هذه القصيدة :

(١) تجارب شعرية للمؤلف .

أقول ، وقد ولى السفين ملججا
وقد بعدت بعد التقرب صور (١)

وقد عصفت ريح ، وللموج هدة
وللبحر من تحت السفين هدير (٢)

فلله رأى قادني .. لسفينة
وأخضر موار السراب ؛ يمور (٣)

تري متنه سهلا اذا الريح أقلعت
وان عصفت ؛ فالسهل منه وعور

لئن وقعت رجلاى فى الأرض مرة
وكان لأصحاب السفين كروور (٤)

ليعترضن اسمى لدى العرض حلقة
وذلك ان كان الاياب يسير

لقد مزج فيها الشاعر بين احساسه بالخوف والفرح ، وندمه على المشاركة فى هذا الجهاد، وبين صور البحر المفزعة ، مختاراً منها كل ما يعبر عن احساسه ، والصدق فى تصويره ، وهذا هو شعر الطبيعة الذى تتوفر له عناصر النجاح ، والذى يخلع فيه الشاعر على الطبيعة من احساساته ، كما ينتقى منها الجزئيات التى تلون الصور التى هى صدى لوجدانه .

فاذا تركنا ذلك الى شعر الطبيعة عند الراعى النميرى الذى اخترناه من بين معاصريه لاشتهاره بوصف الابل حتى لقب بالراعى النميرى ولأستاذيته لشاعرنا الذى ندرس حياته وفنونه الشعرية فاننا نجده قد اتبع فى الغالب سبيل من سبقه فوصف الكثير من مظاهر الطبيعة ، وان لم يكن قد احتشد لها احتشاد ذو الرمة لاهتمامه بشعر الهجاء ، والمشاركة السياسية ؛ وذلك لزعامته لقومه التى دعت الى الدفاع عنهم بلسانه ؛ وسيفه بالرغم من ذلك ،

(١) ملججا - ماخرا فى لجج الماء .

(٢) هدة - دوى .

(٣) يمور - يضطرب .

(٤) كروور - رجوع .

وبالرغم من قلة ما وصلنا من شعره نرى أنه قد وصف الناقة وصفاً
يتناول كل جزئياتها يصفها في سرعتها ويشبهها بما سوف يشبهها
به ذو الرمة فيما بعد ب (قراقر في آذى « دجلة » تسبح) ويصف
رجلها بالخفة والسرعة كرجل الحمار الوحشى ، كما يصف خفها
بالسعة والمراوحة فيقول :

ورجل كرجل الأجدرى يشيلها

وظيف على خف النعامة أروح

ويصف خديها بأنهما « كالمصحفين خطهما واضح أزهر »
وأذنيها بأنهما دقيقتان متصصبتان حين تنظر ، وأعضاءها
المتماسكة المحكمة بالقناطر ، مقلداً طرفة الذى شبيهها « بقنطرة
الرومى » .. كما يصف حتى زمامها ، فهو :

أصفر مجدول من القند ، مارن

يلاث بعينيها فيلوى ويطلق (١)

ويصفها بالطاعة وصفاً جعل بعض الأعراب حين سمع ذا الرمة
ينشد قصيدته التى يقول فيها :

تصغى إذا شدها بالكور جانحة

حتى إذا ما استوى فى غرزها تشب (٢)

يصيح قائلاً : هلا قلت ما قاله عمك الراعى .. وحين يسأله
ذو الرمة ماذا قال ؟ ينشده هذا البيت :

ولا تعجل المرء قبل البروك

وهى بركبته أبصر (٣)

كما يصفها بالهدوء وقت حلابها وبالسرعة عند رحيلها فيقول :

نعوس إذا درت ، جروز إذا غدت

بويزل عام أو سديس كبازل

(١) اعتمدنا فى الحديث عن الراعى على ما أورده الدكتور محمد نبيه من شعر
للراعى فى بحثه الجامعى عنه .

(٢) القد - الجلد ، يلاث - يلف .

(٣) استوى - استقر ، الغرز - جبل توضع فيه الرجل عند الركوب .

ويصف رائحة عرقها وصف محب عاشق ؛ فهي تأكل العشب والأزهار الطيبة وينضج ذلك عرقا ذا رائحة طيبة على جسدها .
وكما وصف الناقة ، وصف الثور الوحشي ، ولقد أخطأ الدكتور فبيه حجاب في قوله : شبه عينيه المتوقدتين بعيني الطيِّب البراقتين في قوله :

يقلب عيني جؤذر بخميطة
كسأها قصي الخلفة المتروح

فالجؤذر هو ولد البقرة الوحشية وليس الطيِّب كما توهم ، ووصف الفرس ؛ والذئب والحيات ؛ كما وصف الصائد وقد أعد كلابه ، وسهامه المريشة ، ووصف من الطبيعة الصامتة الصحراء ؛ وما فيها من همهمات كههمات الجن واليوم ووصف الليل وظلمته والسحاب ، والرياح التي تسوقه ؛ والبرق الذي يلمع فيه ووصف الأثافي وهي تحيط بالرماد احاطة الحواضن ؛ وكأن بقايا هذا الرماد « بقايا هناء في قلائص مجرب » .

كما وصف ما في الصحراء من أزهار عاطرة كالخزامى التي شبهها بالمسك في قوله :

أتتنا خزامى ذات نشر ، وحنوة

وراح وخطار من المسك ينفع (١)

هذا هو الراعي النمرى الذي سلك طريق الاقدمين في الاهتمام بوصف الطبيعة الحية ، والصامتة ، والذي اهتم بصفة خاصة بوصف الابل التي اشتهر بها ، والذي لا شك أنه أوحى بعمله هذا الى ذي الرمة أن يسلك الدرب نفسه وينوع فيه ، بل يقف عليه ، وعلى الحب موهبتة الشعرية ؛ ولقد قال لمن اتهمه بسلوك الدرب الذي سلكه الراعي قبله « أما والله لئن قيل ذلك ؛ فما مثلي ومثله الا شباب صحب شيخا فسلك به طرقا ثم فارقه فسلك الشباب بعده شعابا وأودية لم يسلكها الشيخ قط (٢) » .

(١) خزامى - أزهار طيبة الرائحة ومثلها حنوة ، راح - نسمات باردة منعشة .

(٢) الأغاني ج ١٦ .

فماذا صنع ذو الرمة أو ما هي الشعاب والأودية التي سلكها بعد ذلك ! لقد كان ذو الرمة من الشعراء المحافظين ، وهم جرير والفرزدق والأخطل ثم ذو الرمة ، ففي الوقت الذي برز فيه شعراء غزليون لا يتغنون بسوى الحب كجميل بن معمر والمجنون ؛ وقيس ابن ذريح وعمر بن أبي ربيعة والعرجي أو شعراء مدحوا وتغزلوا كالأحوص ، ونصيب ، وشعراء استأثرت بهم السياسة كالكميت وشعراء الخوارج نجد ذا الرمة لا تشغله السياسة ، كما لا يشغله المدح والهجاء فهو مقل في هذين الغرضين ، كما لم يجعل قصائده غزلا كلها ، وإن كان في مطالعه الغزلية أقرب إلى شعراء الغزل العذري ، من شعراء الغزل التقليدي الذي تفتتح به القصائد - بل نجده يحافظ على نمط القصيدة الجاهلية ، وبحق ما قاله أبو عمرو « من أنه ختم الشعر بذى الرمة ، والرجز برؤبة ٠٠ »
 « فلقد كان ذو الرمة آخر من ذهب مذهب البنو في القصيدة ٠٠ » كما يقول بروكلمان .

١ - الوقوف على الأطلال :

فهو يبدأ قصائده جميعا بالوقوف على الأطلال باكيا عليها « كما بكى ابن خدام » مستفيدا من كل التراث الشعري الذي سبقه منذ امرئ القيس إلى الراعي النميري أستاذه ومعاصره ، لذلك نجده بالرغم من سلوكه هذا الدرب المألوف من الوقوف على الأطلال ينوع في وصفها محاولا في كل قصيدة أن يقول شيئا جديدا ، ولو مجرد التغيير اللفظي ، فهو مثلا : يشبه رسوم الديار ، بالكتابة البالية التي أوشكت أن تمحى ، وقد وصفها ليبد بذلك في قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها

زبر تجدد متونها أقلامها (١)

فينوع ذو الرمة في التعبير عن هذه الصورة الموروثة ، فيقول

(١) زبر - كتب ، تجدد - تجدد ، متونها - جمع متن وهو الظاهر من الشيء .

والمعنى : أن السيول قد أزالته ما على الطلول من غبار فانكشفت فكانها أقلام أعادت تجديده ما زال وانمحي من سطور بعض الكتب .

حينما ان الأبطال تلوح ككتب منشورة « كما تنشر بعد الطية الكتب »
 وحينما آخر هي ككتابة محجوة في كتاب منشور « كالوحي ، في
 مصحف قد مح ، منشور » أو كأن هذه الآثار كتاب زبور في مهاريق
 معجم (١) « أو » كان قرا جرعائها (٢) رجعت به ، يهودية الأقلام
 وحي الرسائل ، أو أخال نواحيها كتابا معجما « وأنوف الطير أقلام
 تخط وتعجم (٣) » .

كأن أنوف الطير في عرصاتها
 خراطيم أقلام تخط وتعجم

ويفعل مثل ذلك حين يحاول أن يرسم صورة لتلك الحشائش
 التي نمت في ديار محبوبته فيشبه ذلك بثوب منقوش ، وهذا
 التشبيه من الصور المألوفة المتوارثة ، فيأخذ في عرض هذه الصورة
 في أبواب جديدة من التعبير تبهر القارئ أو السامع ، بل ربما
 توهمه الجدة والتغير ؛ فيعرضها مرة في هذه الصورة :

كأن رسومه بسطت عليها
 ثياب الوشى أو لبس النمارا (٤)

وحيثما

كانها بعد أحوال مضين لها

بالأشيمين يمان فيه تسهيم (٥)

« أو كمنقوش في ثوب مخمل من الثياب الغالية » على ظهر
 جرعاء الكتيب « كأنها سنية رقم في سراة قرام (٦) أو مثل الثوب
 الحميرى المخطط .

(١) مهاريق - المفرد مهرق وهو الصحيفة .

(٢) قرا جرعائها - ظهر رمالها .

(٣) الاعجام - وضع النقط على حروف الكلمات .

(٤) النمار - نوع من الثياب .

(٥) بالأشيمين - جبلين اسمهما كذلك ، يمان - ثياب يمانية ، تسهيم -

صور سهام والأوان .

(٦) القرام - الثوب ذو الخمل يستتر به .

ماذا يهيج الشوق من رسم دمنة

عفت غير مثل الحميرى المسهم

لقد وفق فى أن يعرض علينا الصورة الواحدة فى أزياء من اللفظ أو العبارة مختلفة وإن لم يكن إلا مجرد خطوط أو لمسات صغيرة يضيفها فى كل مرة لهذه الصورة فتعطيها نكهة جديدة ، وحين يعجزه اضافة شئ جديد يأتى بأنواع مختلفة للشئ الواحد كالثوب فمرة يجعله يمانيا وأخرى يجعله حميريا . . وللشاعر عذره فى ذلك ، فثقافة عصره الضيقة المحدودة وخبراته بالحياة التى لا تتعدى هذه الارض من بلاده التى تتشابه بقاعها ، كل ذلك جعله يحجل فى معانى القدماء التى تناولوها جميعا بهذه الصورة ؛ وإن اختلفت صور التعبير عنها .

ولا شك أن اهتمامه بفنه هو الذى جعله يسهر باحثا عن ثوب جديد يبرز فيه معانيه التى عرضها من قبل فى ثياب أخرى مغايرة . . ولقد منحها الشاعر من قدرته التصويرية وموهبته فى اختيار الالفاظ ذات الجرس الخاص - حلاوة وروعة جعلتنا ننسى معها أن هذا المعنى قد تردد على آذاننا أكثر من مرة ، وفى تناوله لوصف الاطلال يعتمد على التعبير بالجزئيات الصغيرة ، التى باجتماعها تتكون لوحة تلتقى فيها كل ملامح الموصوف ، فحين يعبر عن زوال الديار ، لا يعبر عن ذلك تعبيرا مجردا ، وإنما ليخاطب حواسنا يعرض علينا صور ما تبقى من آثار هذه الديار :

يبلسو لعينيك منها وهى مزمنة

نؤى ؛ ومستوقد بال ؛ ومحتطب (١)

الى لوانح من اطلال احوية

كانها خلل موشية قشب

ثم هو بما أوتى من قدرة على الملاحظة الدقيقة ، يعرض عليك ألوانا من هذه الأشياء الباقية أو التى خلفت أحبابه ؛ وكثيرا ما يقف ليحيى هذه الآثار :

(١) سبق شرحهما .

قفا نحیی العرصات الهمدا
والنؤی ، والریم ، والمستواقدا (٢)
والسفع فی آیاتهن الخلدا ...

وهو فی كل قصیده یرض علینا صورا لبعض الآثار تغایر
ما ذكره فی قصائده الأخری أو یضیف الیها شیئا جدیدا لیمنحها
نكهة الجدة ، والمغايرة . فاذا كان فی البیتین السابقین أضاف شیئا
جديدا هو الحبل الریمم والأثافی ، فهو فی هذین البیتین یضیف
الحبل الذی تشد به الخیمة ویعرض الأثافی فی صورة جدیدة هی
أن الأمطار قد هطلت علیها حتی أصبحت كنوق منعطفات علی بو .

ولم یبق منها غیر أری خیمة
ومستوقد بین الخصاصات هأمد (١)

ضریب بأرواق السواری كأنه
قرا البو تغشاه ثلاث صعائد (٢)
وفی قصیده أخرى یذكر هذه الأشياء : ؛ قطع الأعنة ؛
والأثافی ؛ ووتد فقد الحبل الذی یربط به .

به قطع الأعنة ، والأثافی
وأشعث خاذل فقد الاصارا (٣)

كما یذكر فی موطن آخر ملاعب الأطفال ، هذا هو كل ما تبقی
للشاعر من الآثار التی تعیده الی ذکریات الماضي بأفراحه ، وأتراحه ،

(٢) الهمدا - التی لاهیة فیها ولاحركة لذهاب أهلها ، النؤی - حفرة حول
الخیمة تحمییها من الأمطار ، الریمم - كل شیء قديم بال من حبال وغیرها ، السفع -
الأثافی وهی الحجارة التی یطبخون علیها ویوقدون النار التی غیرتها ، آیات -
علامات .

(١) أری خیمة - الحبال التی تشد بها الخیمة ، الخصاصات - الشقوق
والفراغات ، هأمد - ساكن .

(٢) ضریب - مضروب ، أرواح السواری - أوائل المطر الساری لیلا ، قرا البو -
ظهر البو ، والبو جلد یحشى تبنا ویوقف لتتوهم الناقة أن ولدها حی والمعنى :
أن الأثافی کالبو تحیط به ثلاث نوق صعائد .
(٣) سبق شرحه .

وكثيرا ما يمزج بين هذه الأوصاف لآثار الديار ؛ وبين أشواقه ؛
بل كثيرا ما تكتسى هذه الصور مسحة من الحزن ، لأنها تذكره بأن
كل شيء الى فناء :

أودى بها الدهر قدما ، واستحال بها
بكل داج مسف الودق مبحور (١)

أضحت ، وكل جديد صائر عجلا
يوما الى قلة منه ، وتغيير

والدهر لا يبقى شيئا على حاله :
فاستبدلت والدهر ذو استبدال
من ساكنيها فرق الآجال فرائدا تحنو على أطفال (٢)

والبين قطاع ذوى الأوصال
وغير الأيام والليالى

وهو لا يكتفى بذكر آثار الديار ؛ وانما يتناول بالوصف تلك
الحيوانات التى ترتع فيها وهو لا يذكر الا الحيوانات التى تمتاز
بجمالها كالبقرة الوحشى المشهور بجمال عينيه ، وكذلك الطباء ،
والنعام كأنه يرضن بديار من يحب أن تقيم بها الذئب ؛ أو الثعالب
أو غيرها من الوحوش المخيفة المفترسة ، بل يكاد لا يذكر تلك
الحيوانات الجميلة دون أن يذكر معها أولادها ؛ والمحبون دائما
يمتازون بانسانيتهم وقوة عاطفتهم ، وروحهم الودود التى تسكن الى
كل جميل أو برى .

لقد رحل الحى وهامى الثيران تطوف فى الربع كملوك من
الفرس يطفون بمعايدهم :

تمشى به الثيران كل عشية
كما اعتاد بيت المرزبان مرابه

كما تخور فيها أولاد الطباء ، وتنتشر الجآذر :

(١) أودى بها - أهلكها ، استحال بها - غيرها وأزالها ، داج - سحاب مظلم ،

مسف - قريب من الأرض ، الودق - المطر ، مبحور - شارب من ماء البحر .

(٢) الآجال - قطعان البقر الوحشى ، فرائد - منفردات ، البين - الفراق .

بها كل خوار الى كل صلعة
ضهول، ورفض المذروعات القراهب (١)
وتراب هذا الربع مسك مسحوق ، لما ينبعث فيه من روائح
الأزهار بعد أن يرشها الندى :

كأن سحق المسك ربا ترابه
إذا هضبته بالطلال هواضبه
وهو يدعو دائما للربع بأن يتردى بألوان من النوار ؛ وتمطره
السماء .

تردیت من ألوان نور كأنه
زرابی ، وانهلت عليك الرواعد
وبالرغم من أن هذا الربع قد هاج أشواقه ، وأشجانه ؛ فانه
لا يرغب في أن يقتصر هذا الرى والخصب عليه ؛ وانما يمتد
فبشمل كل مكان تحل به مى .

٢ - الصيف :

كان من الممكن أن أتحدث عن وصفه للطبيعة الصامتة معددا
مظاهرها ؛ متحدثا عن كل مظهر على حدة ثم أتناول بالحديث وصفه
للطبيعة الحية سالكا فيها نفس المسلك ، ولكننى آثرت أن أنهج فى
البحث النهج الذى سلكه الشاعر نفسه فى أغلب قصائده ؛ فهو يقف
على الأطلال أولا ، وأثناء حديثه عنها يتعرض لسبب ارتحالهم ، وهو
ما أصاب الربع من جلدب وجفاف ؛ وهو فى هذا يعرض علينا
صورة صادقة - فيما أعتقد - لقسوة الحياة فى البادية ، وبخاصة
فى أشهر الصيف ؛ حقا ان حديثه عن قسوة الصيف نجده موزعا
بين حديثه عن قسوة السفر فى البادية ، وبين الحديث عن أسباب
الارتحال ، ومن هذين المصدرين يمكن أن تجمع خيوط اللوحة التى
رسمها الشاعر للصيف .

(١) خوار - ولد الظبية ، الصلعة - الظبية ، ضهول - قليلة اللبن - المذروعات
- البقرة الوحشى ، والذرع - الجؤذر ، رفض - فرق ، القراهب - المسنات أو
الاجسام .

ومن قصيدته التى مطلعها :
الا أيها الربع الذى غير البلى
كانك لم يعهد بك الحى عاهد

نقف على أن أهل محبوبته (خرقاء) أقاموا فى موطنهم
بوهيين الى أن تعذر الحصول على الماء ، والمرعى ، وأخذ السفا
يجول جول الحباب ومع ارتفاع نجم الثريا قصر اليوم من غداته ،
وعشيه ، ويبس نبات القلقلان ، وأخرج ما فيه من ثمر حين هبت
عليه الرياح الحواصد « وقد فقس كل بيض طائر المكاكى وقد
اكتست الأرض الصلبة بملاء من السراب ، والظباء فى هذا الحر
تبحث الثرى تحت جنوبها لتتبرد ، كما تلجأ الى الاحتماء من
وهج الصيف بالغصون المائلة أو بجوانب الشجر كما يبدو
عليها الدهول ؛ والبسوى الذى يحب البسادية ويكره الريف
بل يحتقره كآثر من آثار عادات المجتمعات العبودية ، حيث يحتقر
فيها الناس العمل اليدوى لأنه من شأن العبيد ، كما ان البدوى
يعتقد أن الوباء ينتشر فى القرى فهو دائماً يتجنبها كما يتجنب المدن
أيضاً فى هذا الحر يتشهى لو يغادر البادية الى الحضرة حتى الابل
أسقط الحر عن أكتافها الوبر ، كما جعلها تنزف عرقاً أسود فى
أوله ، أصفر اذا مرت عليه ليال ، والحصا يكاد أن يتصدع
من الحر :

وهاجرة شهباء ذات وديقة

يكاد الحصا من حميها يتصدع (١)

ومن وهج الصيف يلجأ الطائر الى عش سواه ، بل تستظل
الفريسة مع مفترسها فى ملجأ واحد « تجاوزن ، والعصفور فى
الجحر لاجئ مع الضبيب ؛ والشقذان (الحبارى) تسمو صدورهما
والحرباء قد جعل يبيض لونه ، ويخضر من لفح الهجير غباغه »
كما تركض الجنادب الحصا برجليها أو بأجنحتها من شدة
الحر .

هذه هى بعض ملامح الصيف التى تلجئ القوم الى الارتحال

(١) وديقة - شدة الحر ، شهباء - قاسية شديدة والشهباء لون أبيض ضارب

الى السواد ، الهاجرة - وقت الظهر عند اشتداد الحر .

الى حيث توجد بعض أعداد المياه يتلمسون فيها الرى ، كما
يلتمسون المرعى ..

تيمم ناوى آل خرقاء منهلا
اله كوكب فى صرة القيظ بارد (١)
لقى بين أجساد ؛ وجرعاء نازعت
حبلا بهن الجازئات الأوابد

٣ - التغزل فى المحبوبة :

حين يتغزل ذو الرمة أو سواه من شعراء العربية فى عصورها
الأولى، فانه يلجأ الى رسم العديد من الصور الحسية غالبا لمحبوبته.
وهذه الصور مستمدة من الطبيعة بنوعيتها وقد عرضنا الكثير من
هذه الصور حين تحدثنا عن محاسن مى ؛ وحاولنا أن نتعرف على
ملامحها أو قسما من الجمال كما يراها العربى ، فرأيناه يشبه
جسمها فى ليونته بالغصن من شجر البان :

وذو غدر فوق الذنوبين مسبل
على البان يطوى بالمدارى ويسرح

كما ان ذراعيها لينان ممثلتان ناعمان كشجر العشر المرتوى
بالماء ، وكفلها ككثيب من الرمل لبدته الأمطار ، كما تشبه الظبية
فى جيدها ؛ ومقلتها وعطفيها :

هى الشبه أعطافا ، وجيدا، ومقلة
ومية أبهى بعد منها وأملح
وهى :

تجلو بفرع من أراك كأنه
من العنبر الوردى بالمسك يصبح
أسنانها البيضاء النقية التى تشبه :

ذرى أقحوان راحه الليل وارتقى
اليه الندى من رامة - المتروح (٢)

(١) سبق شرحها .

(٢) أقحوان - زهر أبيض طيب الرائحة ، الندى المتروح - الهابة عليه
الرياح الباردة .

تحف بترب الروض من كل جانب
نسيم كفار المسك حين تفتح (١)

وصف الابل :

وكما ورث ذو الرمة عن الأقدمين وصف الأطلال ؛ فأفاض عليه من شخصيته كذلك ورث عنهم وصف الابل وقد رأينا طرفة يصف الناقة وأمرؤ القيس رغم اشتهاه بوصف الخيل له قصائد رائعة يصف فيها ناقته ، كما تأثر ذو الرمة في ذلك « بالراعي النميري » الذي عرف عنه ذلك ، ولقب « بالراعي » من أجله ؛ ولقد كان ذو الرمة يحفظ شعره ؛ بل يحتج به مدافعا عن نفسه حين تحوشه السنة النقاد ، فحين عابوا عليه قوله :

والقرط في حرة الذفرى معلقة

تباعد الحبل منها ، فهو مضطرب (٢)

وقالوا له : جعلت لها ذفرى كذفرى البعير - احتج بشعر الراعي في قوله « وذفرى أسيلة » قال أبو عبيدة فغضب العدويون ، وقالوا : كيف يحتج بشعر راعي الابل ، وهو أشعر منه ، قال منتجع ابن نبهان « انه كان يروى أشعاره ؛ ويجعله اماما » لقد سلك ذو الرمة نفس الطريق الجاهلي في الوصف ، فكان يتبع أجزاء ناقته بعد أن يحسن التخلص من الغزل ، فيقول مثلا :

زار الخيال لمى هاجعا لعبت

به التناثف ، والمهرية النجب (٣)

(١) فار المسك - وعاء المسك .

(٢) الذفرى - صفحة عنق الدابة .

(٣) هاجعا - نائما ، التناثف - جمع تنوفة وهي الصحراء ، المهرية - ابل منسوبة الى مهرة ، النجب - النجبة الكريمة ، معرسا - نائما في أخريات الليل ، منجذب - أى منجذب الى المسير ، والمعنى : زار خيال مى نائما لعبت به الصحراوات الواسعة والابل النجبية ينام فى أخريات الليل قرب الصباح ، أما سائر الليل فهو يقطر مرتحل .

معرسا فى بياض الصبح وقعته
وسائر الليل الا ذاك منجذب
ثم يواصل الحديث عن نفسه ؛ وعن ناقته ؛ فهي تشكو
الحشاش الذى فى أنفها كما تشكو من السيور المضفورة حول حقويها ؛
وهى تن أئين المريض لعوده ، لكنها قوية ، تحت الابل من حولها
وتزجر ؛ أما هى فتنسلب من جوارها وتنسل بسرعة ولا يخشى
راكبها السقوط رغم احديداب ظهرها من قطع الفيافى ، فكان
راكبها على ريع جنوبية شديدة الهبوب ، وهى ذكية مطيعة :
تصغى اذا شدها فى الكور جانحة
حتى اذا استوى فى غرزا تثب (١)

وثب الحمار الوحشى المعضض من حلائله ، ولسرعتها تكاد
تنسل من الحزام لمجرد أن ترى راكبها يرفع يده الى عمامته . وهى
طويلة الجسم ، ضامرة البطن من الترجاف كهلال بدا من خلال
السحاب ، ألواح ظهرها كحجارة متلاصقة ، أذنبا تدل على عتقها
من انتصاب وتنبه وقلة فى الشعر ، ملتصقة السنام من الاجهاد ،
ذات خد ناعم كمرآة الغريبة أسجح « تدفع بأرجلها الحصى فيتطاير
من خلفها ؛ وأرجلها كظل الذئب خفة وانطلاقا ، وعيناها عينا ثور
أسود القرنين ؛ يسيل منها اللغام ، فكأنما ضربت قدام أعينها ،
قطن لمستحصد الأوتار محلوج ، تلقى بأجنتها أثناء السفر من الاجهاد
التي يشبه كل منها « دعموص الفراشة مغرق » وما أروع تشبيهه
رأسها الضخم بقبر المرء من آل تبع :

ورأس كقبر المرء من آل تبع
غلاظ أعاليه ، سهول أسافله (٢)

وكما يصف الناقة المفردة ، قد يصف الابل مجتمعة لأنهم

(١) الكور - الرجل ، جانحة - مائلة ، الغرز - جبل توضع فيه القدم عند
الركوب .
(٢) آل تبع - ملوك التبابعة وكانوا باليمن قبل الاسلام ، سهول أسافله -
خده طويل ناعم .

عادة يسافرون جماعات خوفا من مخاطر الطريق وهو لا يكتفى بوصف أعضاء الناقة أو الجمل عضوا عضوا بل يصف حتى الزمام وقد ترك أثره على الأرض فكأنه ملاعب حيات ذكور « وصريف أنيابها كصياح البكرات التى يسقى بها ، ويكثر من ذكر كلمات الزجر للابل كهيد : هيد أو « أيا » .

اذ قال حادينا أيا . عسجت بنا

صهابية الأعراف ، عوج السوالف (١)

ويبدو أنه كان يطيل التفرس ، والملاحظة ، لمثل هذه الأمور الدقيقة ، التى قد يعبر بها الإنسان العادى دون أن يوليها أى اهتمام ، فهو يلاحظ السفاحين يشوك أيديها ؛ فيعبر عنه بهذه الصورة الدقيقة :

وشاكت به أيدى الجمال ، كأنما

يعض به أعلى فراسنها النمل

بل يلاحظ ظل أخفاف الناقة وهو يجرى بازائها فيقول :

لألقباك ؛ قد أدابت ، والقوم كلما

جرت حذو أخفاف المطايا ظلالها

والرحل عليها كعش طائر على نخلة سامقة . ومن دراستنا لشعره نعرف أن له ناقة اسمها صيدح « فقلت لصيدح انتجعى بلالا » كما أن له ناقة أخرى اسمها « أطلال » وثالثة اسمها « عجلى » .

أقول لعجلى بين يم وداحس

أجدى فقد أقوت عليك الأمالس (٢)

(١) أيا - صوت لزجر الناقة ، عسجت - مدت عنقها فى السير ، الأعراف - شعر الأعناق ، السوالف - الأعناق أى مائلات الأعناق فى السير .

(٢) يم وداحس - مكانان أو اسمان لناقتين ، الأمالس - الأرض الملساء الصلبة ، أقوت - أفقرت .

وهو يضم الكثير من الحب لناقته ؛ بل كما سنتبين فيما بعد يكن الحب لسائر حيوانات الصحراء الجميلة كالحمار الوحشي والثور والظبي والنعامة ؛ وطيورها كالمكاكي والقطا . فلا غرابة أن يخاطبها دائما مخاطبة الصديق ؛ الرفيق ، بل نكاد نتصوره وهو يقطع الصحراء وقد نام رفاقه يحدث ناقتة بكل ما في نفسه من حب وشوق ، وما يشكو منه من آلام ؛ ولو أن بلال بن أبي بردة شعر بما يضمره الشاعر لناقته من ود وحب ، لما عابه حين أنشده قصيدته التي يمدحه بها والتي يقول فيها :

« فقلت لصيدح انتجعي بلالا ، فصاح بلال يا غلام ، اعطيه حبل قت لصيدح فأخجله ، ويظهر أن الشاعر المرهف الحس لم يستطع الدفاع عن نفسه ، فقال له أبو عمرو بن العلاء هلا قلت له « ان هذا مثل قوله تعالى « واسأل القرية » أى أهل القرية ؛ ولكن هل يدري بلال أو سواء ممن استبد بهم غرور السلطان بهذه الاحساسات الشاعرة التي يتجاوب فيها الانسان الشاعر مع الحيوان ، ألم يقل المتنبي بعد ذلك .

خلقت ألولا ؛ لو رجعت الى الصبا
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

حقا لقد كان ذو الرمة محبا بل عاشقا متيما بالصحراء ، وما فيها من حيوانات ألفها وأحبها من طول ما مر بها كما أحب وألف ناقتة التي تشاركه همومه ومسراته ، ذلك هو احساس العربي نحو وسيلة حله وترحاله ألم يقل لنا ذو الرمة : ان الاماء يكسون الجمل ثياب الوشى ؛ ويعتنين به عند العزم على السفر :

أطافت به أنف النهار ، ونشرت
عليه التهاويل القيان التلائد (١)

ومن المعتاد عند العرب أن تركب الفتاة الجمل لقوته ؛ ولتوفير الراحة لها ، فى حين يرتحل الرجل على أى نوع من الابل جمالا أو

(١) أنف النهار - أوله ، التهاويل - الألوان ، القيان التلائد - الاماء المولدة-

اينقا ، وحين يستقر بهم المطاف تقبل الاماء على هذه الابل بالمسح لازالة ما علق بها من شوك أو غبار « كما يمسخ الركن الاكف العوابد » وهذا أكبر دليل على حب العرب للابل واعزازهم لها لذلك جعلوا لها انسابا تنتسب اليها ؛ وذو الرمة ينسب ابله التي تشاركه الرحلة تارة الى « الجديل » وهو فحل مشهور أو الى « العصافير » التي قيل انها كانت ابلا وحشية واستؤنست وأول من ملكها النعمان ابن المنذر :

نجائب من آل الجديل ، وشاركت
عليهن في انسابهن العصافير (١)

أو حميرية النسب : « تمر برحلى بكرة حميرية » أو تنتسب الى الفحل « داعر » أو الفحل « الجديل » السابق :

« أبوهن الجديل وداعر » - والمسافرون لا يأنفون من أن يتخذوا من سواعد الابل وسائد لهم ، كما يشبه حنينه الى مي بحنين الناقة الى رفاقها من الابل :

تحن الى مي كماحن نازع
دعاه الهوى ، فارتاد من قيده قصرا
وهو يصفها بالذكاء ، والفتنة ؛ كما يخلع عليها صفات العذارى من الخوف والحياء والطاعة حين يدعوها الفحل :

دعاهن فاستسمعن من أين رزه
بدر كما ارتج الغمام الرواجس (٢)

فيقبلن اربابا ويعرضن رهبة
صنود العذارى ، واجهتها المجالس

(١) العصافير - ابل كانت متوحشة ثم استؤنست للنعمان بن المنذر فيما يقال .

(٢) رزه - صوته ، الرواجس - ارتجس الرعد تردد صوته .

وفى البيت الأخير عبر عن احساس مركب لدى النوق هو
الاقبال مرغمت ؛ والاعراض خائفات ، كل ذلك فى لحظة واحدة ؛
ولجبه للناقة ، وخطواتها فى الطريق يشبهها بترشاف الظمان
للماء :

لاخفافها بالليل وقع كأنه
على البيد ترشاف الظماء السوابع (١)
ويشبه الفتاة الجميلة بالبكرة البيضاء :

كأنها بكرة آدماء ، زينها
عق النجار وعيش غير تزليج (٢)
وتميل الى من تحب بعنقها - كناقاة شد عنانها - ليرتشف
الصديان من ريقها المثلوج ارتشاف الابل من أحواض المياه .

تسقى . . اذا عجن من أجيادهن لنا
عوج الأعنة أعناق العناجيح (٣)

صوادى الهام والأحشاء خافقة
تناول الهيم ارشاف الصاريح (٤)

والصورة الشعرية هنا من النوع المتداخل الذى هو من خصائص
ذى الرمة التى انفرد بها فى صياغته . . وقد يشبه شعره بهدر
الابل ؛ فيقول مخاطبا هشاما المرثى وقومه امرأ القيس :

أحين ملأت الأرض هدرا وأطرقت
مخافة ضغنى جنبها وأسودها

(١) السوابع - مرت عليها سبعة أيام دون أن تشرب .

(٢) آدماء - بيضاء ، عق النجار - كرم الأصل ، تزليج - قليل .

(٣،٤) أعناق العناجيح - العناجيح هى جياذ الخيل والابل ، صوادى - عطشى ،
الهيم - العطاش أى يميل عنقها الى من يقبلها كما يميل العنان عنق الناقة
وترتشف ارتشاف الابل الظماى لمياه الصحاريح .

كما يجعل للأرض سناما فيقول : « منعنا سنام الأرض بالحيل
والقنا » .

ويحزنه أن يسمع أنين ناقته من الجهد والأعياء :
أنين الفتى المسلول أبصر حوله
على جهد حال من ثنياه عودا (١)

ولعلنا في نهاية هذا العرض لحديثه عن الناقة ، لا نغفیه من
اللوم على افراطه الزائد وحرصه الشديد على ألا يدع شيئا له مسداس
بالناقة دون أن يصفه ، ولقد حاول الدكتور محمد صبرى أن يدافع
عنه في صنيعة هذا معلقا على وصفه لأبوال الأبل « بأن هذا وصف
مصور ، والشئ الحقير قد يكون جليلا في عين المصور . وقد استقد
جرير والفرزدق ذا الرمة على وصفه أبوال الأبل وأبعارها ، وهذا
يذكرنا بما حدث للمصور الهولندى الحيوانى « بول بوتير » فقد
رسم صورة بدیعة تمثل أبقارا فى الحلاء وفيها بقرة تبول فكل
من رأى الصورة شاهد البقرة وهى تبول فعرفت الصورة بالبقرة
التي تبول وحين عرضت على الأميرة التي عملت خصيصا لها
رفضتها لذلك فاشترتها أحد الهواة وهى اليوم فى أكبر متحف فى
العاصمة الروسية (٢) « والفن - فى رأينا - ذوق وانتقاء وليس فى
ما يرى يمكن أن يكون فنا ، وكون هذه اللوحة فى أكبر متحف فى
العاصمة الروسية لا يمنحها صفة الروائع الفنية الخالدة ،
ولذى الرمة صورة عن الناقة وهى تبول فتقطع رغبتها فى السير
أبوالها ، فهنا أعطى هذا الجزء للصورة ملمحا خاصا عاون فى
إبرازها ؛ أما تصويره البول لذاته أو كالصورة الشنيعة التى يصور
فيها لغام الناقة ، وقد اختلط بالدم يسيل على أنفها ومشفريها ؛
فمما لا يرضى عنه الذوق ، بل تثير الاشمئزاز .

الحمار الوحشى :

بعد أن يفرغ من وصف الناقة كما رأينا يرغب فى وصف
الحمار الوحشى ؛ فيحسن التخلص إليه بقوله :

(١) ثنياه - من استثناء من خاصته .

(٢) الشوامخ ذو الرمة ص ٣١ للدكتور محمد صبرى .

..... حتى اذا استوى فى غرزها تثب

وثب المسحج من عانات معقلة

كأنه مستبان الشك أو جنب (١)

ويستمر فى وصف ملامحه ؛ فهو يعلو معترضا مائلا لنشاطه كأن به ظلما خفيفا أو يشكو مرضا بجنبه ؛ يحدو أتنا أشباها قوية ، رمادية اللون مع خضرة تضرب الى السواد يتنقل بها من مرعى الى مرعى نائرا ، صاخبا ، فاذا داهمه الصيف بحره اللافح فجف الماء والرطب ، وصوحت البقل ريح نكباء تهب من فاحية اليمن ، وذهب ما فى بطون الحمر من ماء وغذاء ؛ وشم شجر القصباء انتصبت حوله الحمر الطويلة الضامرة تراقبه وكأنها تنتظر أوامره للشروع فى الارتحال ، ومع الغروب وعند اصفرار قرص الشمس اشتدت به الرغبة فى الانطلاق بحثا عن المراعى ومنابع المياه . . فانطلق يحدو حلاله . وكلما تنكبت الطريق منها واحدة بدا عليه الهم والحزن ، وصاح عليها بصوت حزين ، وهو يعلو بالأتن النجاد كأنه يريد الاضرار بها ، وكلما أرفضت جماعتها أسرع ليجمعها ، ويضم بعضها الى بعض عاضا أكفاله ، ولسرعتها تشبه ابلا مسرعة يريد أن ينجو بها صاحبها من قوم اغاروا عليه . وكل ما يقصده هذا الحمار هو عين « اثال » لا يرغب فى عين سواها من عيون الماء .

لقد وصلت الأتن فى الغلس عند انصداع عمود الصبح الى تلك العين المطحلبة الطامية التى تصطخب فيها الضفادع والحيثان ، ويستل منها جدول كالسيف المنصلت يجرى بين صغار النخل الذى ارتفع جريده (عسيبه) وقرب هذه العين كمن صائد من قبيلة « جلان » المشهورة بالاكتساب بالصيد ، ثيابه ممزقة ؛ رثة ، اختبأ فلا يتبين شخصه ، أعد سهامه المريشة حتى اذا هبطت الحمر الى

(١) مستبان - ظاهر واضح ، الشك - الظلح (عرج خفيف) ، جنب - مريض الجنب - المسحج - المضض ، عانات - جمع عانة وهى القطيع من الحمر الوحشية .

منهل الماء ، وتغيبت رابها الأمر فأمالت أعناقها ورفعت آذانها متسمة ، ولكن خرير الماء العذب استمالها وجذبها اليه (يلاحظ أن الاحساس مركب) فأقبلت على الماء ؛ وقد اضطربت أكبادها الناشرة من العطش ، حتى إذا وصلت جرع الماء القليلة الى غليها الملهب لم تروه أرواء كاملا .

رمى ، فأخطا ، والأقدار غالبية
فانصعن ، والويل هجيرا والحر

فهربت الأتني بعد أن تركته يندب حظه العائر ؛ يطأن الصخر بحوافرهن « وطأ تكادله المعزاء تلهب » وهن في سرعتهن يشبهن خوافي صقر جائع أخذ في مطاردة خرب ضعيف .

وهو في موضع آخر يصف التفاف الأتني حول الثور وتغاليها ؛ وهو واقف في مكان عال كربيثة لقوم عليهم ذحول كثيرة .

فظلت تغالي حول جاب كأنه
ربيثة آثار عظام ذحولها (١)

والحمار الوحشي في ليونة جسمه « كأنه عصا قس قوس - لينها واعتدالها » ويصف صوت الثور أثناء جريه السريع « كأنه نحيب الثكالي تارة ، واعتوالها » كما يذكر في موضع آخر ذنبها بأنه قليل الشعر ؛ تطرد به الذباب ، كما ان الأتني المخططة تحوم حول الماء وتبصبص بأذنانها .

البقر الوحشي :

اعتاد هو ؛ كما اعتاد الشعراء الجاهليون أن يشبهوا عيون النساء الجميلة بعيون « العين » أي البقر الوحشي وبعيون الظباء ؛

(١) تغالي - تغالى ، جاب - حمار وحشي صلب شديد ، الربيثة - من يراقب الأعداء من مكان عال ، آثار - جمع ثار ، الذحول - الثارات .

والجآذر وهى أولاد البقر الوحشى ، لكن فى بيان السرعة يشبهون بالثور الوحشى ، وفى القصيدة الأولى من الديوان ، وهى القصيدة البائية التى قيل ان ذا الرمة ظل يضيف اليها الأبيات الى أن فارق الحياة ، والتى تمنى جرير أن تكون له من دون شعر ذى الرمة « فان شيطانه كان له فيها ناصحا » والتى يقول عنها : « جرير » لو لم يكن له سواها أو لو مات دون أن ينظم غيرها لعد من كبار الشعراء . . ولقد اعتمدنا عليها أكثر ما اعتمدنا فى تحليل ونشر أبياته فى وصف الناقة ، والحمار الوحشى وكذلك فى وصف الثور ، وقد تخلص اليه كما تخلص من قبل بقوله : أذاك أم نمش بالوحشى أكرعه (١) ؟ « أى أيهما أشبه فى سرعته بالناقة ؛ الحمار الوحشى أم الثور المنقط الأكرع ؛ الأسود الخدين مع ميل الى الحمرة . الشاب النشيط الذى أقام خلال أشهر الصيف الى أن هزت رياح الحريف نبات الخلفة فجف ، والأرطى تساقطت ذوائبه ، ولما اشتد الحر هاجر مجتازا وهيبين « وذا الفوارس » تدعوه رائحة الربى من بعيد ، حتى اذا ضمته الرمال ؛ ولفه الظلام بشملته ؛ واحتوته السحب الممطرة أوى الى شجرة أرطاة استضافته فوجد فيها الدفء والاحتجاب ، وهى شجرة بمنأى عن القطعان الوحشية تتجمع الأبعاد على الكثبان القريبة منها ، وتجول حول جذورها أوراق حائلة شبيهة اللون كأن شجرة التوت قد ألقت بأحمالها حولها فاذا استهل عليها المطر تأرجت مرائب البقر « حتى يارج الحشب » فكأنها بيت عطار وضع فيه أوعية المسك (يحويها وتنتهب) فاذا لمع البرق كشف عن ذلك الثور المنكمش الأبيض ؛ كأنه عزب يلتف فى « قباء » تسيل قطرات المطر من على ظهره وتتدرج تدرج الحرز الفضى هوى من نظامه ؛ فاذا دخل الكناس فى الشجرة اقتحمه بروقيه والرمل من حوله « ما بين منقاض ومنكثب » حاشرا نفسه بين عروق الشجرة التى تشبه أطناب الخيمة ، وهو فطن ذكى يتوجس خيفة ، لديه المعية وخبرة بنبأة الصوت لا يكذبه سمعه ، لقد بات يقلقه الندى ؛

ويسهره تذبذب الرياح والوسواس والمطر ؛ حتى اذا بدا الصباح ، وجلا عن وجهه أغباش الظلمة هاله تجمع الغيم وتراكمه ، فأصاب الثور ما يشبه الجنون فهو يخشى ويرتقب ؛ ثم تلهي بالنبات (يلاحظ التتبع لوصف حالته النفسية) الذى حوله ، ومدت الشمس أشعتها - بعد أن لاح الصبح المشهور « بنقبتة » أى بلونه كاللهب على جبل « عاقر » هاجمته كلاب جوع زرق ضوامر ، لوحها الجوع والعطش فالتصقت رثاها بظهرها ، وهى كلاب غصف الآذان ، واسعة الأشداق ؛ كالذئاب الضارية التى شدت فى أعناقها سيور جلدية ، ويتمادى فى وصف الصائد الذى ورث الاكتساب بالصيد عن والده ، وليس له مصدر سواه ، فهو هبال للفرص ؛ تساقط شعر رأسه فلم يبق منه سوى قنازع كالغيم المتناثر ، وحين رأى الثور الكلاب نفر بجانبه الوحشى ؛ وهو جانبه الأيمن ، فانقضت الكلاب عليه فأسرع هاربا لا يقصر فى الجرى كل منهما ؛ حتى اذا الكلاب دارت فى الأرض حول نفسها ، وتمكن هو من الفرار راجعه الكبير وعزة النفس فرجع إليها ، لقد أدركه خذى ممزوج بغضب فخفف من اسراعه رغم أنه سمع نحيب الكلاب الغضب خلف ذنبه ، فاذا تمكنت منه أو كادت تمسك بعرقوبه وذنبه ؛ ومن سوء حظها أنها التقت بثور غير طياش ولا وجل - كر عليها يمشق روقيه فى صدورهما كمجاهد يطلب من الله الأجر والاحتساب ، يطعنهما فى أعناقهما طعنات تنتظم الرثات والقلوب بروق حاد (١) كالسيف القاطع ، ولما أصبحت الكلاب صرعى ، فهى بين مطعون بطعنة نافذة الى حجاز قلبه ، وبين ميت أو موشك على الموت ولى مسرعا نشيطا فرحا وقد خضبت الدماء روقيه ؛ وزايلت نفسه الكروب وهو فى سرعته كالكوكب المنقض على عفريت من الجن ؛ لقد ترك الكلاب خلفه بين واطئ أمعائه برجليه وآخر يعانى سكرات الموت وعروق جوفه تشخب دما . ويضطرب حين يحرق ذنبه ليطرد الذباب كذيل السراذق هزته الرياح ، أما البقر الوحشى فهو يشبهه بالنساء آنذا فيقول :

(١) الروق - القرن .

إذا ما نعاج الرمل ظلت كأنها
كواعب مقصور عليها حجالها (١)

أو يشبه النساء به أنا آخر :

كأنا رمتنا بالعيون التي بدت
جآذر حوضى من جيوب البراقع (٢)

ولقد لاحظنا - كما سبق أن أشرنا الى ذلك - كيف أن
حيوانات الصحراء قد اكتسبت لديه الألفة ، والمودة ؛ فأصبح يحس
نحوها ما يحسه الانسان نحو الانسان ، لذلك تلاشت فى وجدانه
الفروق ما بين الانسان والحيوان ، فسيان أن يشبه الانسان
بمحاسن الحيوان أو يعكس فيشبه الحيوان ببعض صفات الانسان ،
ظهر ذلك فى وصفه للناقة ، كما ظهر فى وصفه للثور .

كما رأينا الشاعر لا يقف فقط عند الصفات الحسية عند
الحيوان بل يتغلغل فى وجدانه فيصف لنا احساساته وانفعالاته
النفسية ، كما يصف ذكاه وفطنته .. وما أروع تشبيهه للثور
« وهو راجع من ضحائه » « يختال ويمشى » مثل مشى الهيرزى
« أى الملك » المسرول .

الظباء :

لم يفرط فى وصف الظباء افراطه فى وصف الناقة
أو الحمار والثور الوحشيين ولكن لمساته القليلة التى يتناول بها
وصف الظبية أدخل فى باب الشاعرية اللامحة من كل أوصافه فى
الناقة أو الحمار الوحشى .. ذلك أن الذى يثيره فى الظبية ليس
القوة أو السرعة أو الاهتمام بالقطيع أو الصبر على متابعة السير وإنما

(١) مقصور عليها حجالها - مقيمة فى الحجال ومفرد الحجال حجلة وهى مكان
مزين بالستائر تقيم فيه العروس ، والكواعب - الشابات الملتفات القدى .
(٢) جيوب - فتحات وخروق .

الذى يثيره ربما هو نقيض ذلك يثيره فيها ضعفها ، ورقتها ، فحين تلتهب الصحراء فى الصيف يصيبها الذهول والدوار فتبدو كأنها صرعى فى الطريق ، أو تهرب من وهجه الى أقصى مكان فى كناسها :

ويوم يزير الطبي أقصى كناسه
وتنزو كنزو المعلقات جناده (١)

ويروقه دائما أن يرسم صورة لبياضها وقد انعكست على ظهرها أشعة الضحى أو أشعة ما قبل الغروب التى تلونها بلون ذهبى جميل ، ويذكره ذلك ببياض « مية » وقد رشت المسك السحيق على صدرها ولبتها بل سائر جسدها . كما يجذبه دائما منظر عينيها وهى مذعورة تراقب من بعيد ولدها الضعيف الذاهل وما أجمل تعبيره عن ذلك فى الأبيات الآتية :

ذكرتك اذ مرت بنا أم شادن
أمام المطايا تشرئب : وتسنع (٢)
من الآلفات الرمل أدماء حرة
شعاع الضحى فى متنها يتوضح
تفادر بالوعساء ، وعساء مشرف
طلا ، طرف عينيها - حواليه يلمح
رأتنا كأننا قاصدون لعهدا
به ، فهى تدنو تارة ، وتزحزح
هى الشبه أعطافا ، وجيدا ومقلة
ومية أبهى بعد منها وأملح

وهو دائما يكرر هذا المعنى ، كما لا يحب أن يصف الطبيبة الا وقد جعل كل ما حولها ينبض بالروعة والجمال ذلك لأن جمال

(١) كناسه - بيته ومكانه الذى يقيم فيه ، تنزو - تضطرب ، المعلقات -
الوحوش التى علق بها الشرك .
(٢) سبق شرح الأبيات متفرقة .

ما حولها يزيد في ابراز جمالها ٠٠ أنظر اليه وهو يصف عينيها
الحائقتين حين بصرت بانسان يدنو نحوها ، وقد وقفت على تلعة
م مطورة ، كساها المطر ورقا ناضرا ، وأحاطت بها الرمال الضارب
لونها الى الحمرة الذهبية :

فما ظبية ترعى مساقط رملة
كسا الواكف الغادى لها ورقا نضرا (١)

تلاعا ، هراقت عند حوضي ، وقابلت
من الجبل ذى الأدعاص أميلة غفرا

رأت أنسا عند الحلاء ، فأعرضت
ولم تبد الا في تصرفها ٠٠ ذعرا (٢)

كما أن عنقها حين تمدده مشرئبة يبدو جميلا فاتنا ، لذلك
يشبه به عنق مية ورفيقاتها حين رأينه وهن مرتحلات قد جاء
ليودعهن أو ليودع محبوبته من بينهن :

فألمحن لمحا من خلود أسيلة
رواء خلا ما ان تشف المعاطس

كما أتلعت من تحت أرطى صريمة
الى نبأة الصوت الأطباء الكوانس (٣)

ومن المؤكد أن عاطفة الحنان الأبوى عند ذى الرمة عاطفة
متقدمة ، فالأسفار التي تطرح به كل مطرح وتعرضه للهلاك في
وسط الصحراء ، فالماشى فيها كالماشى على حد السيف ، كما يقول

(١) الواكف - السحاب المطر ، تلاعا - جمع تلعة وهي مسيل الماء الى
الوادي ، الأدعاص - جمع دعص وهي الكثبان الرملية ، أميلة - جمع ميلة وهي

جبل من الرمل عرض ميل ، غفرا - ضارب لونها الى الحمرة ٠

(٢) أنسا - انسانا ٠

(٣) أتلعت - مدت عنقها ، صريمة - رملة ٠

هو فى بعض قصائده دائم الشوق والحنين لفلذات كبده
ذلك ما جعل بصره يتتبع بالحب ، والرحمة كل فرخ صغير أو حيوان
صغير لقد رأيناه وهو يصف طير المكاكى ، وقد خلا له الجو فأخذ
يعلم صغاره الطيران ، كما يصف ضعف هذه الصغار وقسوة
الطبيعة حولها ، والنعام والظليم قد تركا فراخهما فى مكان
لا مؤيس « نأيا ولا كشب » أى ليس بالقرب أو البعيد ، وحين تغير
الجو ، وتجمع الغيم وبدا يتساقط المطر ، ومد الليل رواقه
حولها ، انتهيا الصحراء الى فراخهما نهبا :

لا يذخران من الايغال باقية
حتى تكاد تفرى عنهما الأهب (١)

لا يأمنان سباع الطير أو بردا
ان أظلما ، دون أطفال لها لب

كما أن القطا تحتفظ بالماء فى حواصلها لصغارها ، وتعود
اليها من بعيد :

ومستبقيات من بلاد تنوفة
لمصفرة الأشداق ، حمر الحواصل (٢)

وفى الأبيات الآتية يكشف عن هذه العاطفة التى تشده الى
كل ما هو صغير ، ضعيف ، لقد كانت الطيبة ترضى بأعطاف الرمال
اللينة ، وقد أودعت ولدها صفصفا من الأرض أو وضعت فوق
رملة منعزلة لتعرف مكانه ثم لا تلبث أن تنتحى مرتفعا من الأرض ،
وتمد جيدها ناضرة اليه :

حذرا على وسنان يصرعه الكرى
بكل مقيل عن ضعاف فواتر

(١) لا يذخران - لا يذخران ، الايغال - التوغل فى الجرى ، الأهب -
الجلود جمع اهاب ، أظلما - دخلا فى الظلام ، لب - صخب .
(٢) مصفرة الأشداق حمر الحواصل - فراخها الصغيرة .

وتهجره الا اختلاسا نهارها
وكم من محب ، رهبة العين هاجر
حذار المنايا رهبة أن يفتنها
به ، وهى الا ذاك أضعف ناصر

وحين تسمع صوته الصغير ، أو ترى راكبا يمر قريبا منه
أو منها ترأع ، وتفزع ، فيستبين جمال عينيها ، وما أدق تصويره
وأروع حين لجأ الى تصغير الصوت ، كما صغر هذا الطلا الأبيض
اللون الذى قام من نومه باحثا عن أمه ، ومناديا بصوته الصغير
عليها :

تثور فى قرن الضحى من « شقيقة »
فأقبل أو من حضن كبداء ، عاقر (١)

رأت راكبا ، أوراها لفواقها
صويت دعاها من أعيس ، فاتر (٢)

كما يبدى الإعجاب المزوج بالحنان والحب الأبوى لهذا الطلا
الصغير ؛ فيشبهه بدملج منسى أو غمامة منفردة يظهرها البرق ؛
والظلماء شديدة السواد ، كما يردد صوت الأم وهى توقظه من نومه
« بماء » :

لا ينعش الطرف الا ما تخونه
داع يناديه باسم « الماء » مبغوم (٣)
ولألفته للظباء يخاطبها كما خاطب ناقتة من قبل ، مخاطبة
الانسان لصديقه الانسان .

(١ ، ٢) تثور - ثار من نومه ، شقيقة - أرض صلبة ، حضن - ناحية ،
كبداء - رملة عظيمة الوسط ، عاقر - لانيات ولا ماء فيها ، لفواقها - الفواق -
ما بين الحلبتين ، أعيس - ولدها الأبيض ، فاتر - ضعيف .
(٣) لا ينعش الطرف - لا يرفع طرفه ، الا ماتخونه - الا تعهده ، الماء - بكسر
الميم صوت نداء الطيبة ، مبغوم - من البغام وهو أجمل صوت للطيبة .

أرى فيك من خرقاء ، يا ظبية اللوى
مشابه ؛ جنبت اعتلاق الجبائل
فعيناك عيناها ، ولونك لونها
وجيـدك الا أنه غير عاطل

النعام :

فى قصيدته البائية التى احتشد لها طول حياته • وكاد أن يجعلها ملحمة ، لو توفرت لها شروط الملحمة والتى عدد أبياتها مائة وواحد وثلاثون بيتا ، صور الأطلال ، كما تغزل فى محبوبته مى لا أقول غزلا فقط ، وانما هو ترجمة صادقة لعاطفته الملتهبة نحوها ، ثم وصف الحمار الوحشى فالثور الوحشى ، وفى مجال الموازنة بين سرعة ناقته وسرعة غيرها ، تناول بالوصف الظليم الذى هو ذكر النعام فقال :

أذاك أم خاضب بالسى مرتعه

أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب (١)

وكعادته فى رسم ملامح الحيوان حتى يتعرف عليه رسم ملامح هذا الظليم وهو دائما يستغنى بذكر الملامح الجسمية والنفسية عن الذكر المباشر للحيوان ، وهذه إحدى الظاهرات التى يتميز بها فنه ، ولقد سبقه القرآن الى ذلك فى قوله : « ذات ألواح ودسر » أى السفينة ، كما نجد لطريقته هذه نظائر فى شعر لبيد وأبى ذؤيب الهذلى وغيرهما ، ولكيلا نطيل سنتجنب ذكر الأبيات التى عرض فيها ملامح هذا الحيوان الذى يقال عنه انه طائر أكثر منه حيوانا ، مكتفين باستخلاصها من شعره • لقد وصفه بأن مرتعه مخضب من أكله الحشائش ، كما أنه يبيض بيضا كثيرا قد يصل الى عشرين أو ثلاثين بيضة ؛ قوائمه دقيقة « أى غير ممثلة » ، مرتفع (مثل البيت سائره) ضخم ، طويل خشن ، كأن رجليه عمودان من كبار شجر العشر الضخم طويلان لم يزل عنهما

(١) السى - ما استوى من الأرض ، أبو ثلاثين - فرخا أو بيضة •

القشر ، يرعى النباتات التى تنمو خلال الحجارة فى الصحراء ، أسود اللون كأنه حبشى «يتفتى أثرا أو من معاشر من السود يثقبون آذانهم كأنه يلتف فى مخملة سوداء ذات أهداب ، له جناحان يشبه بهما جملا ارتخى الحبل الذى يشد الى ظهره حمليه فتأخرا الى الوراء ؛ وحين رأى أن الجو اكفهر من حوله أسرع يبارى نعامه صلعاء ، ذات لونين أبيض وأسود ، خاضعة الرأس ليلحقا فراخهما التى « جاءت من البيض زعرا ؛ لا لباس لها » الا الرمل اللين « وأم برة وأب » كأنما فلتت عنها ببلقة جماجم ييس أو حنظل خرب « ذات أعناق مائلة سوداء كأن الجرب يشمل كل أجسامها » أشداقها كصدوع شجر النبع فى قلل الجبال أو مثل الدحارج وهو نوع من الثمر « كالجوز لم ينبت لها زغب » وأعناقها كنبات الكرات الذى طارت أكمامه أو شجر الهيشر الذى سقط ورقه . ولعلنا نلاحظ أن تصويره لفراخ النعام قد خلا هذه المرة من العاطفة التى نلمسها فى كل وصف وصفه لحبوان ، أو طائر صغير ، ويبدو أن هدفه كان ايجاد المشابهة العقلية فقط والا فآين العاطفة الانسانية فى قوله « شامل أجسامها جرب » أو « فلتت عنها جماجم ييس أو حنظل خرب » فالحنظل المر والجماجم اليابسة والجرب صور لا تحمل شيئا من معانى الحب التى ظهرت واضحة فى أوصافه لفراخ المكاكى أو القطا أو أطلاء الظباء .

وربما كان أكثر صدقا حين قال : « اذا هبت الريح الصبا درجت به غرابيب » فقست من بيض شديد البياض ، والظلم وهو يرعى يخیل لها بشخصه ، كما يتنقنق بصوته لتسكن وتطمئن . الموضوعات السابقة هى التى كان يعمد عمدا الى وصفها وهى التى استغرقت الجزء الأكبر من اهتمامه .

وقد رأينا فيما سبق انه يبدوها بعد المقدمة الطللية ، ثم القصيد الغزلى بوصف الناقة ثم يشبهها بالحمار الوحشى أو الثور فيأخذ فى وصفه ، كما يصف الصحراء الواسعة التى يقطعها متحدثا عن قوة احتماله ؛ دون رفقته غالبا ، كما يتحدث عن نشاط ناقتة وسرعتها التى تفوق نشاط سائر الابل التى تسير معها .

لكنه فى خلال ذلك قد يصف أشياء أخرى وصفا جزئيا
لا يمنحه الكثير من عنايته السابقة خاصة حين يتناول الصحراء
وحرها اللاهب بالحديث ، وما أكثر الحيوانات والحشرات ، والطيور
التي تموج بها الصحراء من ذلك وصفه للحرباء ، والقطا ، والنسر ،
والغراب ؛ وكلاب الصيد ، والسراب ، والليل والنجوم والفجر
والصباح وغير ذلك ، وسنستعرض موضوعاته هذه فى شيء من
الايجاز الذى يتلاءم مع مقدار اهتمامه بها .

الحرباء :

الذى يسترعى انتباه ذى الرمة فى الحرباء هو تأثيره بحر
الهجرة ، وهو دائما يصوره وهو يعاني من هذا الحر كما يسترعى
انتباهه أيضا ما استرعى الشعراء قبله استقباله للشمس ،
واستدارته معها .

فمن الأول هذا البيت الذى جاء بعقب حديثه عن لظى الصيف
الذى جعل الجندب يرمح كما جعل الحرباء يلوى رأسه ويترنج :
إذا جعل الحرباء مما أصابه

من الحر يلوى رأسه ويرنج

وقد فطن ذو الرمة لدقة ملاحظته ، وتردده الكثير بين جوانب
الصحراء الى تأثير الشمس فى لون الحرباء .. فيبيض لونه ،
وتخضر جلدة حلقه ، وأيا قال العلم فى سبب هذه الظاهرة ،
فالذى نصل اليه من هذا هو دقة الملاحظة التي تميز بها ذو الرمة
على سائر شعراء عصره وبخاصة المشهورين منهم كالفرزدق
وجرير والأخطل الذين شغلهم الهجاء والسباب عن تصوير جمال
الطبيعة بل حاولوا كما سنرى فيما بعد النيل من ذى الرمة شاعر
الحب والطبيعة .. وفى هذا التأثير بحرارة الشمس يقول :

وقد جعل الحرباء يبيض لونه

ويخضر من لفح الهجير غباغيه (١)

كما أنه ينتصب بقامته على الاعواد باسطا ذراعيه كالمصلوب .

(١) غباغيه - جلدة حلقه .

ويشبح بالكفين شبعا كأنه

أخو فجرة ، على به الجذع صالبه (١)

ربما هو يفعل ذلك من شدة وهج الشمس ، أو لأنه لا يعرف
أين الشمس ، لأنه يفعل ذلك حين تكون في كبد السماء لا يهتدى
الى مكانها ليستقبلها بوجهه كعادته ، وقد كرر هذه الصورة
في مكان آخر ؛ ويضيف الى صوره بعض الخطوط التي تخرج بها
عن أن تكون مكررة فيقول :

لظي تلفح الحرباء حتى كأنه

أخو جرعات ، بز ثوبيه شابع (٢)

فقد أضاف الى الصورة « بز ثوبيه » أى صلب عاريا .
وفي موضع آخر يوحى اليه هذا المنظر بصورة مغايرة فهو ليس
مصلوبا وإنما عاص رفع يديه ضارعا الى الله أن يعفو عن خطيئته
وذلك حين يكون الحرباء متجها بوجهه الى الشمس :

كان يدي حربائها متمسما

يدا مذنب يستغفر الله - تائب

ويخرج الصورة في اطار آخر هو أن الحرباء كمصل ينقصه
التكبير وهو مسلم في العشي حين تتجه الشمس الى الغروب
ونصراني في الضحى حين تكون الشمس في جهة المشرق .

يظل بها الحرباء للشمس مائلا

على الجذل الا أنه لا يكبر (٣)

إذا حول الظل العشي رأيت

حنيفا ، وفي قرن الضحى يتنصر (٤)

(١) فجرة - ارتكب جريمة فصلبه صالبه .

(٢) بز ثوبيه - خلع عنه ثوبيه .

(٣ ، ٤) الجال - جذع الشجرة وأصلها ، حنيفا - مسلما يتجه الى القبلة

شرقا .

ولقد سبقه الى رسم هذه اللوحة الدينية للحرباء شاعر آخر هو الظالم بن البراء الفقيمي (١) الذي يقول :

ويوم من الجوزاء أما سكونه
فضح ، وأما ريحه فسموم (٢)

إذا جعل الحرباء والشمس تلتظي
على الجذل من حر النهار يقوم

يكون حنيفا بالعشى وبالضحى
يصلى لنصرانية ويصوم

وبيتا ذى الرمة أدق ، وأوجز تعبيرا من أبيات الفقيمي ، فالبيت الأول عند الفقيمي تعبير مباشر ، في حين يشتمل عند ذى الرمة على صورة للحرباء وهو منتصب كالمصلى الذى لا يكبر ، وفي البيت الثانى عند الفقيمي إضافة لا مبرر لها وهى « ويصوم » ولا ندرى لم خص الصيام فى الضحى علما بأن الحرباء يصوم اليوم كله ويبحث عن طعامه فى الليل بعد غروب الشمس ، لا وقت أن تكون فى جهة الغرب ونحن ننكر باب السرقات بأكمله فى البلاغة القديمة ونرى أن الشاعر الحق لا يسرق أو يسلمخ وإنما قد يختلط عليه الأمر فيذكر أبياتا برمتها فى شعره معتقدا أنها له وهى فى الواقع من محفوظه ، كما حدث لذى الرمة قديما ، وللبارودى حديثا ، وهو كشاعر مثقف قد يستمد صوره من ثقافته كما يستمدها من واقعه وليس فى كلا الأمرين ما يعيب ، رغم أن القدامي قد لاحقوه بتتبع واحصاء الصور والمعانى التى رآها صدى لشعراء آخرين ، كما تبهم فى ذلك بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى فيقول (٣) : وليس ذو الرمة من الشعراء المطبوعين ، فإنه يفتخر بسهره لنظم الشعر الغريب يجنبه السناد والمحال . . ثم يقول : ومن الظواهر الدالة على قصده الى التقليد

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٣ .

(٢) ضح - شمس ، سموم - ريح حارة متربة .

(٣) تاريخ الأدب العربى ج ١ .

أنه كان يضمن شعره أبياتا للقدماء فى بعض الأحيان . فأخذ أبياتا لم يكذب فيها لكعب بن سعد الغنوى ، ولبيد والناطقة — كما أخذ عن الأعشى تشبيه قوم ينظرون الى رجل أريحي بقيامهم للهلال ، فيقول الأعشى :

أريحي صلت يظل له القـو

م قياما قيامهم للهلال (١)

ويقول الفرزدق :

قياما ينظرون الى سعيد

كأنهم يرون به هلالا

ويقول ذو الرمة :

قياما ينظرون الى بلال

رفاق الحى أبصرت الهلالا

ولقد حمل النقاد البلاغيون القدامى عبء الدفاع عن الشاعر اذ قالوا ان اللاحق اذا أخرج المعنى فى ثوب من التعبير والتصوير أجمل وأروع من السابق كان هو أحق بهذا المعنى الذى أخذه ، وأبو هلال العسكري يثنى على الأبيات التى صور فيها ذو الرمة الحرباء قائلا : وهذه تشبيهات مصيبة عجيبة الاصابة ، دالة على شدة الحزن ، وثقوب الذهن ، وقد أجمعت العرب على أن ذا الرمة أحسنهم تشبيها (٢) .

القطا :

ومن الطيور التى ينظر اليها بعين الإعجاب طيور القطا ، ولقد شبه مرة بها النجوم وهى تبدو ضعيفة باهتة كالعيون الخوص

(١) أريحي — كريم ، صلت — ماض فى الأمور أو براق الجبين .

(٢) ديوان المعاني لأبى هلال العسكري .

أى التى تضيق وتقترب جفونها من النظر الى ضوء قوى كضوء الشمس . . فيقول :

مصايحه خوص العيون كأنها

قطا خامس أسرابه متميم (١)

ومن أغرب الصور تشبيهه جرعات الماء المتتالية كأوساط القطا المتتابع ، حقا أن هذه الصورة البعيدة النادرة دليل ساطع على نفاذ بصيرته ، وعمق ملاحظته فالابل حينما تسحب الماء بمشافرها أى تمتص فانه ينسحب اليها متكوراً فى لون رمادى كلون ظهور القطا ، مثل هذه الصور الرائعة النادرة هى التى جعلت الصيقل الذى قيل عنه انه أنشد شعر ذى الرمة فاستحسنه يقول : ماله قاتله الله ما كان الا ربيقة ، هلا عاش قليلا . . نعم لو عاش قليلا لكان أثرى الشعر العربى بمثل هذه اللوحات الرائعة ولكن كيف يعمر أو يطول أجل من يستنزف حياته كل يوم قطرات فى شعره . ويذكرنا ذلك بأبى تمام حين رآه أحدهم وهو ينشد شعره فتنبأ له : بأنه سيموت شاباً « وقد مات أبو تمام أيضا شاباً » ولقد شبه مامس الأرض من صدر الناقة وركبتى رجليها ويديها - كما شبه غيره بقطا خمس متجاورات فقال :

مناخ قرون الركبتين كأنه

معرس خمس من قطا متجاور (٢)

وحين يتصدى للحديث عن مناهل الماء كثيرا مايشير الى القطا والحمام الذى يحوم حولها أو يسعى فيها اذا جف ماؤها ، كما يصف هديلها بتراطن قوم من الروم :

اذا ماوردنا لم نصادف بجوفه

سوى واردات من قطا وحمام

(١) خوص العيون - ضيقة للعيون ضعيفتها والمراد أن ضوءها قد ضعف ، قطا ، نوع من الحمام ، خامس - فارق السرب منذ خمسة أيام ، متميم - قاصد للسرب .

(٢) قرون الركبتين - فاقة تقترب ركبتيها ، معرس - مبيت ، والمراد أن مسها الأرض بصدورها وركبتى يديها ورجليها كخمس من القطا جائمة على الأرض .

كأن صياح الكدر ينظرون عقبنا
تراطن أنبساط عليه قيام (١)
كما يصفها وقد شربت ثم ملأت حواصلها بالماء عائدة الى
فراخها الضعيفة :

ومستخلفات من بلاد تنوفة
لمصفرة الأشداق ، حمر الحواصل (٢)
الى مقعدات تطرح الريح بالضحي
عليهن رفضا من حصاد القلاقل (٣)
ينؤن ، ولم يكسين الا قنازعا
من الريش تنوء الفصال الهزائل (٤)

ودائما يصف طيور الصحراء وحيواناتها بالضعف والهزال،
كما أن عاطفة الأبوة التي تقلقه تجعله يرى في فراخ القطا الضعف،
والحاجة لرعاية أمهاتها . وما أروع تصويره لهذه اللقطة ، وهي
أن كل قطاة تملأ حوصلتها بالماء ثم تسرع عائدة دون انتظار
الأخريات أو الاستعانة بهن في حمل سقائها .
إذا ملأت منها قطاة سقائها
فلا تنظر الأخرى ، ولا تستعينها

النسر :

لقد وصف النسر ، وذلك في مجال تشبيه نفسه به ، وقد
ربض فوق ناقته بعينيه النافذتين كعيني الصقر :

(١) الكدر - القطا ذو اللون المغبر ، عقبنا - ماتعقب منا من ماء ، أنباط -
النبط قوم كانوا بالعراق .

(٢،٣،٤) مستخلفات - مستبقيات الماء لفراخها ، رفضا - متفرقا ، القلاقل ،
نبات ، ينؤن - لا يستطعن النهوض الا بجهد ، قنازعا - نتفا من الريش ، تنوء -
نهوض ، الفصال - جمع فصصيل وهو ولد الناقة ، الهزائل - جمع هزيل أى
ضعيف .

نظرت كما جلى على رأسى رهـوة
من الطير أقنى ينفض الطل أزرق (١)

ويقول أيضا :

كما نفض الأشباح بالطرف غدوة
من الطير أقنى أشهل العين واقع (٢)

كما يشبه به ذلك الأمير الذى يطرق الناس حوله اطراق الخربان
أمام الصقر :

ورب أمير يطرق القوم عنده
كما أطرق الخربان من ذى المخالب (٣)

تخطيت باسمى عنده ودسيعتى
مصاريع أبواب غلاظ المنساكب (٤)

الغراب :

أما الغراب ، فلا يذكره الا فى موقف الفراق ، فالغراب عند
العرب - نذير الفراق أو الهجران وحين يختار الكلمة التى تعبر
عن صوته يختار له كلمة طويلة متنافرة الحروف تدل على غلظ
صوته هى مستشججات قال الجاحظ فى كتابه الحيوان : « اذا مرت
على الغراب السنون ، وغلظ صوته قيل شحج » ثم يذكر بيت ذى
الرمة الآتى : -

(١) جلى - ظهر ، رهوة - مكان مرتفع ، أقنى أزرق - النسر .

(٢) أشهل العين - فى سواد عينه زرقة .

(٣ ، ٤) الخربان - ذكر الحبارى وهو نوع من الطيور ، دسيعتى - أعمال

العظيمة وشهرتى .

ومستشججات بالفراق كأنها
مثاكيل من صيابة النوب نوح (١)

يحققن ما حاذرت من صرف نية
لمية أمست في عصا البين تقدح (٢)

فقد وصف الغربان بالمثاكيل كما اختار لها ذلك اللفظ
المتنافر الثقيل . ولما كانت الغربان نذير شؤم ناسب أن يختارها
من بين سائر الطيور لتعبر عن همومه وأشجانه في هذا البيت
الرائع :

أخط ، وأمحو الخط ثم أعيده
بكفى ، والغربان حولى وقع

وقد نسب هذا البيت الى جران العود ، ولكن الدلائل تؤكد
أنه لذي الرمة ، فهو يحمل طابعه من التعبير بالصورة التى تتكون
من جزئيات صغيرة تتكون منها الصورة الكلية ، كما أن التذييل
الذى جاء به فى قوله : « والغربان وقع » ، له نظير عنده ، من ذلك
قوله فى وصف رضاب الشجر :

كان السلاف المحض منهم طعمه
(اذا جعلت أيدى الكواكب تضجع)

وقوله يصف ناقته :

بمخططة الأرجاء أذرى بنيتها
جذاب السرى بالقوم (والظير هجع) (٣)

-
- (١) مستشججات - شحيج الغراب صوته الغليظ ، مثاكيل - جمع مثكال، وهى
من فقدت عزيزا عليها ، من صيابة النوب - من خيار أهل النوبة .
(٢) عصا البين - أى عصا الفراق - كناية عن التفرق .
(٣) مخططة الأرجاء - ضامرة الجوانب والأعضاء ، أذرى - ذهب ، بنيتها -
بشحمها .

الطبيعة الصامتة :

لقد تناولت أهم أجزائها وهو وصف الأطلال ، كما تحدثت عن الصيف وقسوته لكن الصحراء غنية بمناظرها ، ومظاهر الطبيعة فيها ، حقا انها قاسية ، ومدمرة « على مثل حد السيف يمشي دليلها » وسالكها دائما يتوقع الهلاك ، لهذا أطلق عليها مفازة تفاؤلا ، وعلى الناقاة « نجاة » كذلك وللريح فيها نواح الشكلى كما أن « لصوت الجن فى منكراتها هزيز ، وللأبوام فيها نوائح » ولطولها واتساعها « يقتات الأحاديث ركبها » ويهلك فيها النسيم ، ولصمتها الرهيب يخيل للسائر فيها أنه يسمع « غناء أناسى بها وتنادى » يلفها الظلام بعباءته ، وتعوى ثعالبها والجندب الجـون يرمح ؛ وتخشى القطاة الردى من التهاب قيظها . . ومن أهم مظاهرها سوى ماسبق أن ذكرنا ، السراب : الذى يشبهه بملاء منسوجة من الحر تلتف بها ثنايا الطرق الجبلية لى الملاء بمصاريع الأبواب ، والريح تتلاعب به :

يجرى ، ويرتد أحيانا ، وتطرده

نكباء ، ظمأى من القيظية الهوج (١)

فى قاع صحراء مضرع بلعاب الشمس ، وكل شئ يتحرك فى السراب ، أعناق الرمال حينما يعبر بها السائر ثم ينظر اليها من بعيد يخالها « أحصنة شقرا » يركضها السراب ، كما يخيل للرأى أن كل مرتفع من الأرض يدور ويلف كفلكة المفزل « يدوم وقراق السراب برأسه كما دومت فى الخيط فلكة مفزل » .

فلا عجب اذا اختلطت الرؤية ، فى وجدان الشاعر فتخيل الماء صحراء ، والابل زوارق ؛ وعبر عن ذلك فى هذا البيت الذى قيل عنه انه من الصور الرمزية فى الأدب العربى « تلك الصور التى يتبادل فيها معطيات الحواس فيشتم الشئ المسموع ويرى لونا للصوت

(١) نكباء - ريج بين الصبا (الشرقية) والشمال ، القيظ - الحر الشديد ،

الهوج - جمع هوجاء .

كما يقول الجارم « والنبرة السوداء فى آهاته (١) يقول ذو الرمة
معبرا عن هذا الاحساس :

كان مطايانا بكل مفازة

قراقر فى صحراء دجلة تسبح (٢)

ومن صور الطبيعة الصامتة الليل الذى يقول عنه الشاعر انه
قد « صبغ الحصى بسواد » كما أنه كجل على ظهر البیداء أو خندق
مضروب حولها ، ويبدو أن الظلمة فى الصحراء شيء كريبه وجامد
وحين يشقه بناقته يقول :

شجبت الدجى .. أو مزقتها .. وكلا الفعلين يوحى بالضيق
كما تبدو روح التحدى من الشاعر لهذا الليل الجاثم على صدر
الحياة ، ويتصوره أحيانا غابة من الظلمة تكاثف سوادها ، وحينما
يقترب الفجر ، يغبش الليل مصابيحہ ... تلك النجوم التى تشبه
« المها واليعافر » لقد كانت النجوم تسبح فى السماء ، كسرب من
قطا يرد مناهل الماء ، وتبدو الثريا من بينها كطائر ابن الماء المحلق ،
والدبران الذى تزعم الأساطير أنه خطب الثريا وزف لها قطيعا من
الابل فرفضت الزواج منه يتبعها بابلہ «فلا هو مسبوق ولا هو يلحق»
بعشرين من صفرى النجوم

كأنها قلاص كادت عليه تفرق

ولكن الفجر بدأ يهتك ستار الظلام « فالليل «أدهم أبلق» «كما ساق
الثريا فى ملاءته الفجر » فبدأ الشاعر وصحبه يشربون ويسقون
ابلهم ، وأخذت تهلل أساريهم وانعكس ذلك على الصور التى عبر
بها عن الفجر ، فهى صور كلها زاهية ، فهو كالحصان الأشقر :

وقد لاح للشارى الذى كمل السرى

على أخريات الليل فتق مشهر (٣)

(١) الشعر المصرى بعد شوقى للدكتور مندور .

(٢) قراقر - زوارق .

(٣) فتق مشهر - مشهور واضح والمراد به الصبح الذى يشبه الفتق فى

نوب الليل .

كلون الحصان الأنبط البطن قائما

تمايل عنه الجل واللون أشقر (١)

أو : كأن عمود الصبح جيد، ولبة

وراء الدجى من حرة اللون حاسر (٢)

أما الأشجار والنباتات فقد ذكر منها الكثير اذ أنها مورد خصب من الموارد التى يستمد منها صوره شأنها شأن المظاهر الأخرى للطبيعة ، ومن أمثلة ذلك شجر العشر الذى يشبه به رجلى الظليم فيقول :

« كأن رجله مسمكان من عشر » ، كما يقول أيضا : ألهاه
آه ، وتنوم » وهما نوعان من النبات ، وفراخ النعام مثل الدحاريج
ويقال ان ثمره كالجوز ، وأشداقها كصدوع « النبع » ، وأعناقها
« كالكرات » أو « هيشر » طارت كمائمه . وأعناق امرى القيس
الحمراء كأنها فوق اللحي « الصرب » أى الصمغ الأحمر ، والجمال
كالنخلة من نخل بيرين أو هجر ويصف الروضة حين يريد أن
يتحدث عن نكهة فم محبوبته فيفضلها على روضة مطرتها السماء
وهبت عليها نسيمات ريح الصبا الرخية، بهذه الروضة زهر الحنوة،
والذرق الغض ، تعاودها الامطار مرة بعد مرة ، كما يكثر من تشبيهه
ببياض أسنانها بالأقحوان الممطور ، وقد يصف السحابة فى موطن
الدعاء لديارها بأن وجودها المطر ، فيقول : سقى دارها سحاب
متراكم له صوت أجش ؛ يقبل من ناحية العراق ، له هزيم كالرعد
أبيض كالخيول المائلة بجنوبها تستدرها ريح الصبا ، وتتذاب
حولها ريح تجرى المطر وتمنحه للحياة ، فإذا افترقت المزن دعت
سحبا ثقالا « مرجحنت » واللفظة تفيد الامتلاء كما يشبه الندى
فى ضوء الشمس بنثار الفضة .

(١) الانبط - الأبيض ، الجل - الجلال - وهو كساء يوضع على ظهره ،

أشقر - بياض مع حمرة .

(٢) حرة اللون - حسنة اللون ، حاسر - مكشوفة الوجه .

هذه هي مظاهر الطبيعة التي فتن بها الشاعر ، فصرف اليها كل جهده وحياته ولم يغره طلب المال بالجرى وراء المدح الزائف أو الهجاء المقذع حتى زعم البطين الناقد أنه ربع شاعر ، لأنه لا يجارى الشعراء فى الأغراض الأخرى كالمده والهجاء (١) ولقد كان خيرا للفن عامة ، وللشعر خاصة أن يقصر ذو الرمة فى الأغراض التى أولوها اهتمامهم صارفا عبقريته الى رسم هذه اللوحات الرائعة .

الخصائص البارزة لشعر الطبيعة عند ذى الرمة :

أولا : نعتبر ذا الرمة امتدادا ؛ بل استمرارا طبيعيا لشعر الطبيعة فى العصر الجاهلى ، وإذا اعتبرنا عصره عصر احياء للشعر (٢) كما يرى الدكتور سيد نوفل فذو الرمة يعتبر عودة وانعطافا الى الشعر فى أزهى عصر من عصوره بالنظر الى العصر الذى كان يعيش فيه ذو الرمة بعد أن انقطع أو توقف قليلا الاهتمام بالشعر ، وانصرف الى غرض جديد هو المشاركة فى الكفاح الدينى والسياسى بعد ذلك ، وكل ما قلناه عن شعر الطبيعة فى العصر الجاهلى يتفق وشعر ذى الرمة الى حد كبير ، كالوصف الحرفى الذى تستقصى فيه كل جزئيات الموصوف ، وكأن يكون الوصف غرضا لذاته وهو ما يمكن أن نطلق عليه الوصف الفوتوغرافى أو التسجيلى الذى يلتقط المنظر كما هو دون أن يضيف اليه من ذات الفنان شيئا سوى اختيار زاوية الالتقاط كما أنه يعتمد الوصف تعمدا خاصا فى الموضوعات التى اعتاد الجاهليون وصفها كالأطلال والحمار الوحشى والبقر الوحشى ، والناقة ، والصحراء ، ودمج الحديث عن الطبيعة بالفخر بالنفس ، وإبراز القدرة على المخاطرة ، وشيوع الكلمات الغريبة فى وصفهم للابل والحيل

(١) الموشح للمرزابانى .

(٢) الطبيعة فى الشعر العربى .

والثيران ، والحمر الوحشية التى يؤتى بها كما قلنا لابرار
قوة الناقة أو الفرس ، وبيان مدى صلابتها .

ثانيا : لكن ذا الرمة ينفرد عن شعراء الجاهلية بما يأتى :

١ - كان الوصف عند الشعراء السابقين جزءا من أجزاء
القصيدة الجاهلية ، كما أنهم لم يجعلوه همهم ، وغايتهم ، فكانوا
يمدحون كثيرا ، ويتبدلون أحيانا فى المدح طلبا للمال كما كان
يفعل النابغة والأعشى ، كما يفخرون بقبائلهم أو بأنفسهم ،
ويصفون حروبهم وأسلحتهم ، مما قد تجنبه ذو الرمة ، لما أصاب
المجتمع العربى من تغير فى بنائه الاجتماعى ، اذ لم يعد مجتمعا
قبليا كما كان فى الجاهلية ، وان ظلت آثار هذا المجتمع باقية .

ولقد غلب على ذى الرمة هذا اللون من الوصف للطبيعة ،
ويبدو أنه قد راق لمعاصريه فجعله بعض النقاد أوصف الناس فى
الإسلام ، كما كان امرؤ القيس أوصف الشعراء فى الجاهلية ،
ونحن نرى وسنؤيد هذا رأى بالدليل فيما بعد - أن ذا الرمة
كان يحتقر المدح ، كما اضطر اضطرارا الى الهجاء ولم يمنعه من
أن يتفوق على معاصريه أو أن يكون ندا لهم فى هذين الفرضين
سوى إيمانه بأن غرض الوصف الذى أخلص له - الصق بالفن من
الأغراض التكسبية الأخرى ، فنجده يمدح الأمير أو الخليفة فلا يمدحه
الا ببيت أو بثلاثة أبيات غالبا ، يضعها فى نهاية القصيدة كأنها
شيء منبوذ حقير مستهجن .

٢ - كما انفرد أيضا بدقة ملاحظته التى تشهد معالمها
واضحة فى الصور الجزئية المتناثرة خلال قصائده ولقد ذكرنا
بعضها ، ونذكر هنا منها ملاحظته للابل وهى تسير ووجوهها من
لفح الرمضاء تتجه الى غير وجهة أرجلها :

ترى الناعجات، الأدم ينحى خدودهها
.. سوى قصد أيديها سعار مكافح

أو رفاقه الذين ينامون على الحصى من الاعياء فكأنهم ينامون على الأرائك الوثيرة بعد أن كان نومهم كحسو الطير وهم « على شعب الأكوار فوق الحرائك » كما يصور ظل الناقة وهو يجرى بجوارها وكيف يلجئ القيط الطائر الى أن يحتوى بعش سواء ، ويجمع الضدان معا فيسكن الضب مع العصفور والنجوم تعوم فى السماء ، وخذ الناقة كمرأة الغريبة أسجج لأن الغريبة لا رفيق لها سوى المرأة فتكثر النظر فيها وإزالة كل ضرر عن صفحتها ، وجرعات الماء كظهور سرب من قفا يتبع بعضه بعضا ، والسراب يرتفع بالجبل ويهبط به فكأنه فرس أطلع ، ويرسم صورة لعين الناقة منعكسة على صفحة الماء فيقول :

كانما عينها منها ، وقد ضمرت

واحتمتها السير فى بعض «الاضاء» (١) ميم

والنجوم عند الفجر كفيون تتخاوض وتضيق .

٣ - الجمع بين الوصف الحسى والنفسى لحيوانات الصحراء ، وهو كثيرا ما يخلع عليها صفات تتسامى بها الى مرتبة عالية من الانسانية ، فلقد رأينا فيما سبق الثور الوحشى تتملكه روح الكبر ممزجة بالغضب ، والحجل من انسحابه من المعركة فيكر الى الكلاب راجعا ، وبشتبك معها فى معركة دامية ، والنعامة كالمرأة تتصف بالطاعة والخضوع بينما الذكر يتصف بالحذب والرعاية والقوة ، وهو الذى يتولى قيادة القطيع فى البحث عن المراعى الجديدة ، وهو الذى يأمرها بالارتحال ويعيد النافر الناد منها الى القطيع ، بل يشكو الثور من الهموم التى تمنع عينه من النوم كالشاعر تماما .

باتت لعينه الهموم عودا حوائما تمنعه أن يرقدا
الا غشاشا خافيا مسهدا ...

(١) الاضا - الفيران .

وناقته تحن مثله الى ابل الدهناء :

حنت الى ابل الدهناء فقلت لها

أُمى هلالا على التوفيق والرشد

والقطا يحمل الماء لفراخه فهو (أم برة ، وأب) والمكاكى يعلم
صغاره الطيران فى الجو ، والطبية لا يغادر طرفها ولدها فاذا سمعت
صوته الصغير أسرع فتزعه اليه . . لقد قلنا من قبل ان الشاعر
يتميز بعمق العاطفة الأبوية ، كما يشعر بالحب لسكان الصحراء
من الوحوش والطيور لذلك لم نصادف له بيتا واحدا يعرض فيه
صورة حيوان من الحيوانات الوحشية المحبوبة صريعا ، بل ينهى
دائما وصفه لآى معركة تدور بين أحد هذه الحيوانات ، وكلاب
الصيد أو الصياد بانتصار الحيوان وهربه .

فالنعامه تحاصرهما كل مظاهر الطبيعة الغاضبة كالليل
والسحب والمطر، ومع ذلك تنجو وتعود لفراخها، والثور ينتصر على
الكلاب بل يصرع بعضا منها ، والجرم الوحشية لا تصيبها سهام
الرماة المصوبة ، ويعود الصائد حزينا متحسرا . أما الطبيعة التى
تحمل ملامح مى فلا يرغب حتى فى مجرد تنفيرها أثناء سيره .

٤ - يصور دائما مناظر الطبيعة وهى فى تحرك أى لا يصفها
ساكنة جامدة مستقرة انما فى حال تحركها وهذه كما يقول ليسنج
احدى الفروق التى بين فن النحت أو الرسم وبين الشعر ، فالشعر
فى امكانه رسم الحركة بخلاف فن النحت الذى يتقيد بلحظة
زمنية واحدة لا يتعداها ، وشاعرنا ذو الرمة يتتبع بجهاز تصويره
المنظر أثناء حركته لأن الحركة هى التى تهب لمنظر الحياة ، وقد كان
أرسطو يعرف المأساة اليونانية « بأنها محاكاة فعل نبيل تام ، لها
طول معلوم بلغة مزودة بألوان من التزيين ، تختلف وفقا لاختلاف
الأجزاء (١) . . ولا أبالغ فأزعم ان قصائده تشبه شعر المأساة
عن قرب ، وانما يمكن أن نقول : تقرب أن تكون فصلا من مأساة
تتوافر لها أناقة العرض والحدث بما فيه من بداية وخاتمة، وكثيرا

(١) الشعر لارسطو ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .

ما تنتهى نهاية سعيدة فهو يرسم صورة للصخراء وهو يتحرك فوقها وهي تتحرك بحركته ، كما يتحرك كل ما فيها بفعل السراب الذي يجعل آكامها تبدو وتختفى ؛ ويخيل للرائى أن تلال الرمل ابل تسير ، أو زوارق تسبح ، كما يصور الثور وهو يشتبك فى معركة طاحنة مع كلاب الصيد ، والحمار الوحشى وقد طاردته قوى الطبيعة الفاضية ، والسحاب المزم ، والريح العاصفة والليل الزاحف ، والخوف الذى يملأ قلبه ، حتى محبوبته لا يذكرها الا وهي مرتحلة .

٥ - لثقافته ، ونعنى بها احاطته بالتراث الشعرى « فهو من الشعراء الرواة » ، ولا تساع تجاربه استطاع أن يعرض أفكاره ومعانيه المحدودة بفعل البيئة المغلقة فى صور قشيبية وأزياء من اللفظ والعبارة تجعلها جديدة ، ولقد كان كما لمسنا ذلك يحاذر من تكرار الصور فيضيف اليها بعض اللمسات الصغيرة حتى تتجدد معالمها ، كما أنه يمتاز بالقدرة على اكتشاف المشابهة بين أشياء تبدو للانسان العادى متباعدة ، كصورة جرعات الماء التى تشبه القطا ؛ كما يورد هذه الصورة التى لا شك انها أثر من آثار الحضرة فى شعره ، ربما سمع بها فى البصرة أو الكوفة أو شاهدها عند أمير من الأمراء الذين تردد عليهم ، وهي صورة فتاة تلبس ثوبا بدون كمين ، وتروح بمروحتها المصنوعة من ريش الطواويس لتطرد الذباب عن وجه أمير فارسى . ولقد شبه ذنب ناقته وهي تحركه كلما نقلت رجلا بهذه الصورة الحضرية الرائعة (١) كما أن له معرفة بالأنواء ، ومهاب الرياح وأسماء الأمكنة التى يتحدث عنها ، وخبرته بمعرفة أوصاف الحيوانات والطيور والحشرات وعاداتها كاشارته دائما الى قوة حاسة الشم عند الثيران والحمر الوحشية مثل قوله :

أمسى بوهبين مجتازا لمرتعه

من ذى الفوارس تدعو أنفه الرب (٢)

(١) أشار إليها بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى .

(٢) الرب - يفتح الراء المياء الكثيرة ، وبالكسر جمع ربة ما تصلح عليه

الابل من نبات وهو المناسب هنا .

كما يشير الى قوة حاسة السمع عندها ، وروح الشك التي تسيطر عليها ويبدو أن هاتين الحاستين وهما حاسة الشم ؛ وحاسة السمع قويتان عند الشاعر ، فهو كثيرا ما يكرر فى شعره كلمات الأرج ولطائم المسك كقوله :

إذا استهلكت عليه غيبة أرجت

مرايض العين ، حتى يأرج الخشب (١)

كأنه بيت عطار ، يضمه

لطائم المسك يحويها وتنتهب (٢)

ومى محبوبته ترش المسك على شعرها ، وترائبها ، وصدرها بل تجعله شعاعا تحت ثيابها ، ولقمها رائحة عطرية محببة حتى بعد القيام من النوم ؛ وإذا كان الثور الوحشى حديد السمع ؛ فهو يتوجس « ركزا (٣) ؛ بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب » - فان الشاعر يسمع وسط صمت الصحراء همهم كفناء النصارى ، أو غناء محب عاشق يضرب فى رمال الصحراء .

فلاة لصوت الجن فى منكراتها

هزيز ، وللأبوام فيها نوائح (٤)

٦ - قدرته على اختيار الزاوية التي يلتقط منها صورة المنظر ، فحين يريد أن يشبه مية البيضاء الجسم التي تدهن بالعطر

(١) غيبة - مطر غليظ ، أرجت - فاحت منه رائحة طيبة .

(٢) لطائم المسك - أوعية المسك .

(٣) ركزا - همسا .

(٤) هزيز - حفيف وسرعة كصوت الريح وسرعتها ، الأبوام - البوم .

والطيب ؛ بالطيبة لا يشبهها بها الا وهى واقفة فى الضحى أو قرب المساء لتتكسر الأشعة الذهبية على جسمها فتطليه بلون أشعة الشمس الصفراء ، وكذلك حينما يشبه الثور الوحشى المتكمش فى ظل شجرة الأرطى ، يشبهه بعزب يلتف فى ثوبه أو قبائه ، لقد شبه امرؤ القيس جبل ثبير وقد ألبسه المطر ثوبا من العشب اليابس بعجوز يلتف فى ثوبه أو عباءته المخططة ؛ وذو الرمة هنا ؛ شبه الثور بعزب ملتف فى قبائه ومن الواضح أن نظرة ذى الرمة أدق من نظرة امرئ القيس ، لا من باب التعصب له ، وانما لأن كل انسان يعرف أن الشيخ العجوز كثيرا ما يلتف فى قبائه من البرد ، وليس كل انسان يدرك أن العزب ينكمش فى نفسه وحيدا وبخاصة فى الليل .

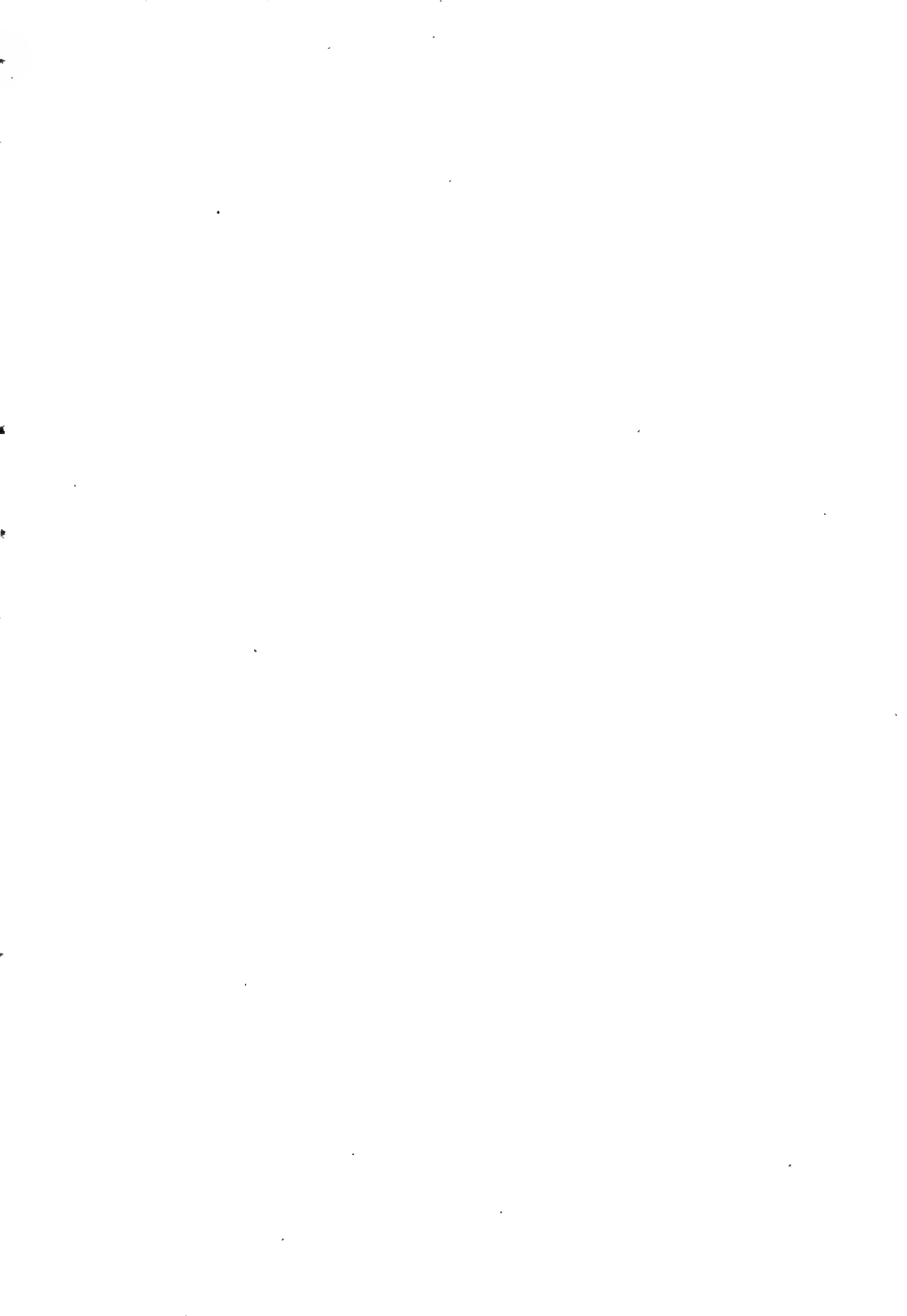
وفعل ذلك فى وصفه للأزهار والرياض التى كثيرا ما يصورها وهى بمعزل عن غيرها ليكون أدعى للاعجاب بها ، وقد هطلت عليها الأمطار فازدهرت وتفتحت ، ثم كفت الأمطار عن التهطل ، ولكنها تراوحها بين آن وآخر .

هذه هى خصائص فنه فى وصف الطبيعة - الى جانب ما سنتناوله بالتفصيل عن صوره وتشبيهاه ، ودقة اختياره لكلماته ؛ وتركيبه للعبارة تركيبا خاصا يسهم فى جلاء الصورة وتثبيتها فى النفس .

الباب الرابع

المديح والفخر والهجاء

في شعر ذي الرمة



المديح :

لقد بلغ المديح في عصر بني أمية أعلى ذروتها ، فكان الشعراء يترددون على أبواب الامراء ، والخلفاء ، ويتبارون في المديح ليحصل كل منهم على أكبر قدر من عطايا الامراء والخلفاء ، وكان النقاد والخلفاء ذاتهم يدفعون الشعراء الى التنافس بنقدتهم لمذائجهم ، واجزالهم العطايا للبعض دون البعض الآخر . كما فعل عبد الملك ابن مروان اذ حرم عبيد الله بن قيس الرقيات من أن يعطيه شيئا على قصيدته التي مدحه بها قائلا له :

تمدحني بالتاج كأنني من العجم وذلك في قوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
وتقول في مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
بل ربما كان من أسباب تلك الأهاجي التي شاعت في ذلك
العصر الى جانب الاسباب الاخرى السياسية والقبلية هو الصراع
على التقرب الى الخلفاء ؛ ونيل الحظوة لديهم وهذا ما كان يقلق
شاعرنا ذا الرمة ، فكثيرا ما شكا من أنه لم يعامل معاملة الفحول
من الشعراء . . لهذا فقد حاول أن يشارك بنصيب في فن المديح ،

فتردد على البصرة والكوفة وخراسان والشام وغيرها مادحا بعض
الولاء والامراء ، ولقد مدح هشام بن عبد الملك أميرا وخليفة بثلاث
قصائد ، كما عتب على عمر بن عبد العزيز حين توجه لمدحه مع من
توجه فتركه واقفا منتظرا على بابه دون أن يأذن له ، وإذا كان
الشعراء سواء قد قبلوا الذل والاهانة فإنه لم يقبل ذلك وهو ينتمى
الى بنى تميم القبيلة الشهيرة التى لولا الاسلام ما أعطت جبل
مقادتها لأحد كما يقول هو فى بعض قصائده ، لهذا عتب عليه عتابا
قاسيا ، واصفا كرم نفسه ، شاكيا متألما من المرض الذى حال بينه
وبين التعجيل بمدحه :

وقائلة ما بال غيلان لم يلح
الى منتهى الحاجات لم تدر ما شغلى
ولو قمت مذ قام ابن ليل لقد هوت
ركابى بأفواه السماوة والرجل
ولكن عداى أن أكون أتيته
عقائل أوصاف يشبهن بالخبيل
أتتنى كلاب الحى حتى عرفننى
ومدت نسوج العنكبوت على رحلى (١)

ومدح ابراهيم بن هشام بن الوليد بن المغيرة خال الخليفة
هشام ، الذى عزل من أجله عبد الله بن عبد الله النضرى وولاه
بدلا منه على المدينة ومكة والطائف بقصيدة واحدة ، كما مدح
عبد الملك بن بشر بن مروان وهو ابن عم الخليفة هشام بن عبد الملك
ببيت فى قصيدة طويلة عدد أبياتها تسعة وستون بيتا وهذا
البيت هو :

نؤم فتى من آل مروان أطلقت
يداه ، وطابت فى قريش مضاربته

كما مدحه بأربعة أبيات فى نهاية قصيدته التى مطلعها :

(١) سبق شرح الأبيات .

خليلى عوجا عوجة ناقتيكما

على طلل بين القلات وشارع (١)

وما أظنه قد مدح عبد الملك بن مروان لأنه لم يكن قد تجاوز
الحادية عشرة من عمره يوم وفاة عبد الملك بن مروان الذى توفى
عام ٨٦ هـ بينما ولد ذو الرمة فى العام السابع والسبعين من
الهجرة والقصيدة التى أولها :

بكيت ، وما يبكيك عن رسم منزل

كسحق سبابا بقى السخوم رحيضها (٢)

والتى فيها :

اليك ولى الحق أعلمت أركبا

أتوك بأنضاء قليل خفوضها (٣)

أعتقد أنه قد مدح بها هشام بن عبد الملك ، لا عبد الملك بن
مروان كما زعم ابن يموت فى مختاراته لشعر ذى الرمة ، وإذا كان
قد حاول أن يمدح بعض الخلفاء وأقاربهم كعبد الملك بن بشر
وابراهيم بن هشام ، فلقد تردد على أكثر من واحد من الولاة والأمراء
ويظهر أنه حين قعد به حظه عن التطلع الى أبواب الخلفاء رضى بمدح
الولاة والقضاة ورجال الشرطة .

فلقد مدح من هؤلاء عمر بن هبيرة الذى كان والياً على العراق
وخراسان ولاء هشام بن عبد الملك عام ١٠٤ هـ ثم عزل عام ١٠٥ هـ
وولى بدلا منه على هذه الاقاليم خالد بن عبد الله القسرى ، كما مدح

(١) عوجا - ميلا واتجها .

(٢) سحق - قديم بال ، سبا - ثوب من الحرير ، السخوم - السواد أى

المنزل اسود كهذه الثياب ، رحيضها - غسلها .

(٣) أنضاء - ضعاف مهازيل ، قليل خفوضها - الخفض الراحة أى راحتها

قليلة ، أعلمت - أخبرت وأرشدت ، أركبا - جمع راكب .

مالك بن المنذر بن الجارود الذي كان رئيسا للشرطة في مدينة البصرة ، ولقد كان عبد الملك بن بشر بن مروان أيضا واليا على البصرة حين مدحه ذو الرمة بقصيدته السالفة ، كما مدح المهاجر ابن عبد الله الذي كان واليا على اليمامة بقرابة ثلاث قصائد ولقد كانت إحدى هذه القصائد وهي قصيدته التي مطلعها :

عفا الزرق من مي فمحت منازله
فما حوله صمانه ، فخمائله (١)

شكوى من عتيبة بن طرثوث الذي احتال بواسطة رومي كاتب المهاجر فسلب ذا الرمة وقومه بئرهم التي يتجمعون حولها ، معبرا عن مخاوفه من أن يحصل عليها بواسطة أكاذيبه ، وبما يقدمه للوالي من رشاوى .. فيقول :

لعل ابن طرثوث عتيبة ذاهب
بعاديتي تكذابه ، وجعائله (٢)

بقاع منعناه ثمانين حجة
وبضعا لنا احراجة ومسايله (٣)

جمعنا به رأس الرباب فأصبحت
تعض معا بعد الششتيت بوازله (٤)

الى أن يقول :

إذا خاف قلبي جوساع وظلمه
ذكرتك أخرى فاطمأنت بلايله

(١) محت - زالت وذمبت ، صمانه - حجارته ، وخمائله - أشجاره .

(٢ ، ٣ ، ٤) عادييتي - بئري ، تكذابه - كذبه في ادعائه ، وجعائله - جمع جمالة - رشوة ومال يبدله ، منعناه - حميناه ، حجة - سنة ، احراجة - أحرأشه ، مسايله - جمع مسيل للماء ، بوازله - أبله المسنة والمعنى اجتمعت الرباب وهو اسم قبيلة الشاعر حول هذا البئر واتحدت بعد تفرق فأصبحت تدافع عن نفسها متحدة .

كما مدح الملازم بن حريث الحنفى ، وأبان بن الوليد ، وعبيد الله بن معمر التميمي ، وأبا غسان مالك بن مسمع الذى كان رئيسا لقبيلة بكر فى البصرة فانضم الى عبد الملك بن مروان وقت أن كانت البصرة تحت حكم عبد الله بن الزبير ، وقد كان مصعب أخوه واليا عليها ، ويظهر أنه كان فيما بعد ذا منصب وجاه ، وقد شكوا منه الشاعر لأن على بابة الحراس يحولون بينه وبين القاصدين «والباب دون أبى غسان مسدود» كما مدح هلال بن أحمد التميمي الذى قتل آل المهلب، وقضى على قوتهم، وأخيرا فلقد كان أكثر تردده على بلال بن أبى بردة الذى كان واليا على شرطة البصرة عام ١٠٩ هـ ، وفى سنة ١١٠ ضم له خالد بن عبد الله القسرى الامامة والقضاء والاحداث الى ولايته على الشرطة (١) والذى يقال عنه انه أول من أظهر الجور من القضاة، وكان يقول: ان الرجلين ليتقدما الى فأجد أحدهما على قلبي أخف فأقضى له (٢) وروى أنه وفد على عمر بن عبد العزيز بخناصرة فلصق بسارية من المسجد فجعل يصلى إليها ويديم الصلاة ، فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغيرة بن البدار ان يكن سر هذا كعلايته فهو رجل أهل العراق غير مدافع فقال العلاء : أنا آتيك بخبره فأناؤه وهو يصلى بين المغرب والعشاء ، فقال: اشفع صلاتك فان لى اليك حاجة ، ففعل فقال له العلاء قد عرفت حالى مع أمير المؤمنين ، فان أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لى ؟ قال لك عمالتى سنة وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم قال فاكتب لى بذلك، فكتب له بذلك، فأتى العلاء عمر بالكتاب فلما رآه كتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والى الكوفة : أما بعد فان بلالا غرنا بالله فكدنا أن نفتر فسبكناه فوجدناه خينا كله والسلام . ويروى أنه كتب الى عبد الحميد : اذا ورد عليك كتابى هذا فلا تستعن بأحد من آل أبى موسى على عملك . . قال أبو العباس المبرد « وكان بلال داهية لقنا ؛ أدبا » ويبدو أن بلالا هذا كان يقبل على ذى الرمة ، ويجزل له العطاء ، ولقد حاول

(١) الطبرى ج ٧ .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٦٨ .

بعض الحاقدين على ذى الرمة ان يصرفه عنه، فلقد قال له: «رؤبة.. .
علام ؟ تعطى ذا الرمة ، وهو يعمد الى مقطعاتنا فيفصلها ، فيمدحك
بها، فقال : والله لو لم اعطه الا على تأليفه لأعطيته وأمر له بعشرة
آلاف درهم » (١) ؛ كما قيل لذى الرمة أيضا « لم خصصت بلالا
بمدحك ؛ قال : لانه أوطأ مضجعى ، وأكرم مجلسى فحق له أن
يستولى على شكرى لما وضع مو معروفه عندى (٢) لذلك فقد مدحه
بخمسة قصائد يظهر فيها الجد والاعتناء ، والحرص على رضاه
واعجابه .

اسلوبه فى المدح :

لذى الرمة ثلاثة أنواع من شعر المديح ، أولها هو المدح الذى
يصدر فيه عن ذات نفسه ، وتحس فيه الصدق ، والانفعال وعدم
التكلف ، وهذا النوع هو الشعر الذى يمدح فيه بعض الولاة او
القادة الذين ينتمون الى القبيلة التى ينتمى اليها الشاعر ، وهى
قبيلة بنى تميم ، وكان الشاعر حين يمدح هؤلاء التميميين انما
يمدح نفسه ، وقومه ، من ذلك مدحه لهلال بن أحمد التميمى الذى
قضى على سلطان آل المهلب فى السند ، وهو يمدحه بالكرم فى بيت
واحد على عادة القدامى فى المدح بالكرم ثم يأخذ فى وصف بطولته،
وحسن قيادته للجنود ، وقتله للأعداء وقضائه على الأزدي قوم المهلب
الذين كانوا ذوى عدد وعدد حتى تمنوا لو أن المهلب (لم يولد ولم
يلد) ؛ وبهذا الانتصار رفع هلال مجد تميم حتى تمتنت النساء أن
يفدينه بالمال والولد :

القائد الخيل تمطو فى أعنتها

اجذام سير الى الأعداء منجرد (٣)

رفعت مجد تميم يا هلال لها

رفع الطرف على العليا بالعمد (٤)

(١) الاغانى ج ١٦ .

(٢) التاريخ الكبير لابن عساکر ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٣) تمطو - تتبختر ، اجذام - اسراع ، منجرد - مواصل السير نحوهم .

(٤) الطرف - بيت من جلد .

حتى نساء تميم وهي نائية
 بقلة الحزن فالصمان ، فالعقد
 لو يستطيعن اذا نابتك نائية
 وقيتك الموت بالآباء والولد
 تمنى الأزدي اذ غبت أمورهم
 أن المهلب لم يولد ، ولم يلد (١)
 كانوا ذوى عدد دثر ، وعائرة
 من السلاح وأبطال ذوى نجد (٢)
 فما تركت لهم من عين باقية
 الا الأراذل والأيتام من أحد
 ويختما بهذا الفخر الذى وصل فيه الذروة التى ما بعدها
 ذروة :

فى طحمة من تميم لو يصك بها
 ركننا ثبير لأمسى مائل السند (٣)
 لولا النبوة ما أعطوا بنى رجل
 جبل المقادة فى بحر ولا بلد (٤)
 ومن المعروف أن بنى تميم كانوا أكثر القبائل ثورية وتمرداء
 كما أنهم من أوائل من ارتدوا عن الدين بعد وفاة الرسول ولم يعودوا
 الى حظيرته الا بقوة السلاح .

اما النوع الثانى : فهو المدح الذى لا ينبعث من ذات نفسه ،
 ولا يصدر عن غريزة الفخر والاعتداد بالنفس ولكنه رغم ذلك
 يحتشد له احتشادا كبيرا وهذا النوع يتمثل فى مدحه لبلال بن أبى
 بردة ذلك الرجل الذى وصف بأنه «أديب لبق» راوية للأشعار كثير
 الجدل والمناقشة للرواة والادباء كما كان كثير الضحك ولهذه الصفة

(١) غبت - تأخرت .

(٢) دثر - كثير ، عائرة - كثير .

(٣، ٤) طحمة - دفعة كبيرة ، ثبير - جبل ، السند - ماسند منه ، المقادة

- القيادة .

قبل منه ذو الرمة قوله : «ياغلام أعطه جبل قت لصيدح» حين مدحه
ذو الرمة بالقصيدة التي يقول فيها :

رأيت الناس ينتجعون غينا

فقلت لصيدح انتجعي بلالا(١)

وقد رأينا فيما سبق مدى إكرامه له رغم مزاعم الوشاة
والحاقدين ، لهذا فقد مدحه بخمس قصائد استغرق المديح أكثر
أجزائها ، ومن مظاهر اهتمامه ، واحتشاده لمدحه ، تتبعه لوصف
ممدوحه بصفاته النفسية والجسدية البارزة ، فهو أبيض ، ضخ
واسع العينين ، يبهل الناس بطلعته ، وهو خطيب مصقع :
إذا المنبر المحظور أشرف رأسه

على الناس جلى فوقه نظر الصقر(٢)

فسلم ، فاختار المقالة مصقع

رفيع البناء، ضخ الدسيعة والأمر(٣)

كما يصف شدته، وقوته حين ردع الثائرين في العراق فحمى
النساء العربيات اللواتي غادرهن الأزواج بعد أن ذهبوا للغزو أو
مطاردة الأعداء .

ونكلت فساق العراق فأقصروا

وغلقت أبواب النساء على ستر

فلم يبق الا داخل في مخيس

ومنحجر من غير أرضك في حجر(٤)

يفار بلال غيرة .. عربية

على العربيات المغيبات بالمصر(٥)

كما يمدح قومه ، ويصفهم بالطيبة ، والتخلق بأخلاق النبي ،
والخلفاء الراشدين :

(١) انتجعى - اطلبى واقصدى .

(٢ ، ٣) المحظور - غير المباح ، أشرف رأسه - أطل على الناس . جلى -

أظهر ، مصقع - فصيح بليغ ، الدسيعة - الأخلاق والأفعال .

(٤ ، ٥) داخل - صاغر ، مخيس - سجن ، منحجر - داخل في حجره ، حجر -

- ناحية ، المغيبات بالمصر - اللواتي غاب أزواجهن بالبصرة لأن بلالا كان أميرها .

خلفت أبا موسى وشرفت مابني
أبو بردة الفياض من شرف الذكر
وكم لبلال من أب كان طيبا
على كل باق في الحياة ، أو القبر
خلال النبي المصطفى عند ربه
وعثمان والفاروق بعد أبي بكر
ولقد عودنا ذو الرمة الصدق في التعبير عن نفسه ، بل ألزم
نفسه بالأ يمدح انساناً لا يستحق المديح فقال في إحدى قصائده
التي يمدح بها بلالا أيضا :
ولم أمدح لأرضيه بشعري

لئبما أن يكون أصاب مالا
ولكن الكرام لهم ثنائى
فلا أخزى اذا ما قيل قالوا

ولعله قد تفرد بهذه الصفة الاخلاقية النبيلة عن سائر معاصريه
من الشعراء الذين كانوا لا يأنفون من أن يصفوا القاسى ، سفاك
الدماء بالعدالة ، كما يصف الفرزدق الحجاج الذى أذل العرب ،
وقتل فيهم كبرياءهم ، بل قد يهجو الشاعر قوما كبنى أمية ،
ويعلن عصيانه وخلعه لطاعتهم ثم يعود ليمدحهم حين تضطره الظروف
لذلك كما فعل الكميت بن زيد الاسدى الذى هجا الامويين ثم
صالحهم ، ومثله عبيد الله بن قيس الرقيات الذى كان زبيريا ثم
صار أمويا بعد ذلك .

ومن مظاهر صدقه أن مدائحه لبلال تدرك لأول وهلة أنها
لم تصدر عن عاطفة اعجاب وانما عن رغبة فى المال مع حرص على
أن يجيد فى المديح ، لهذا نجده يكرر فى القصيدة الواحدة وصفه
له ولقومه بالكرم ، بل يطالبه بذلك ، فكأنه يخشى أن يجرمه من
المال الذى حبر قصائده من أجل الحصول عليه ، يقول فى القصيدة
السابقة :

ذخرت أبا عمرو لقومك كلهم
بقاء الليالى عندنا حسن الذخر
أجل ، هو صادق مع نفسه ومع مملوحيه ، فاذا كنا لا نلمس

عاطفة متدفقة فى مدائحه لبلال بن أبى بردة كالعاطفة التى تبدو فى شعيره للمنتمين لبني تميم فأننا نجد فى هذه القصائد الاهتمام ومحاولة رسم صورة للممدوح ، وحشد لكل مفاخره ، ومفاخر قومه ؛ ثم طلب عن طريق التصريح أو التلميح للعطاء ، ولقد شذت عن ذلك قصيدته التى هى آخر قصائد الديوان والتى قال عنها المبرد أنها من أحسن القصائد التى مدح بها ذو الرمة بلالا ، فلقد خلت من الأوصاف العامة أو التكرار ، والألحاح فى الطلب ، وجاءت صورها وعباراتها محكمة النسيج مركزة ، وقد تخيل فيها أن امرأة رآته يتردد كثيرا على البصرة فتساءلت :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ناويا

فقلت لها ، لا إن أهلى لجيرة
لأكتبة الدهن جميعا وماليا

ولكننى أقبلت من جانبى قسا
أزورا مرءا محضا نجيبا ، يمانيا

من آل أبى موسى ترى الناس حوله
كانهم الكروان أبصرن بازيا

وفى هذه القصيدة ، ربما لأول مرة ينتقل من وصف الدقة إلى المدح ثم من المدح إلى وصف الناقة ثم يعود إلى المدح مرة أخرى ليختم به القصيدة ؛ حقا أنه فعل مثل ذلك فى الغزل فأوضح بينه وبين وصف الناقة والصحرَاء ومشاهداته فيها ، أما فى المدح فلم يفعل ذلك فى سوى هذه القصيدة وفى انتقاله من المدح إلى الوصف أو العكس لا تشعر معه بالقصد أو التكلف وإنما هو انتقال طبيعى ، انظر إليه حين أراد الانتقال إلى وصف الناقة والصحرَاء كيف مهد لذلك فقال :

بلال أبى عمرو وقد كان بيننا
أراجيح يحسرن القلاص النواجيا (١)

(١) أراجيح - صحرأوات تتأرجح فيها الإبل من السير والتعب ، يحسرن - تعريها من اللحم ، القلاص - الإبل ، النواجيا - السريمة سميت نواجيا تفاؤلا .

قلولا أبو عمرو بلال تزغمت
 بقطر سواها عن ليال ركابيا (١)
 إذا ما مطوت النسج في دف حرة
 الخ

أما النوع الثالث : فهو هذا المديح الذي تدفعه إليه الحاجة فيما يبدو أو حب مجازاة الكبار من الشعراء فهو لا يصدر فيه عن عاطفة حب أو فخر أو إعجاب كما في النوع الأول أو عن عاطفة ولاء كما في النوع الثاني . . . لذلك جاء شعره في هذا النوع الثالث لا يمت إلى المدح بصلة سوى أنه قد قاله في شخص بعينه ، وذو الرمة المرهف الحس الذي كان ينشد شعره في البصرة ودموعه تسيل بغزارة على وجهه ولحيته ، وصاحب النفس الطموح الأبية ، لم يستطع أن يكذب أو يلبس شعره قناعا براقا زائفا ، وإنما غلبه صدقه على رغبته ، فجاءت قصائده في هؤلاء الذين لا يكن لهم حبا أو ولاء فاترة خالية حتى من عبارات المجاملة ، والا فماذا نقول عن شاعر يمدح خليفة بقصيدة طويلة يستغرق كل أبياتها في وصف رحلته ، وناقته ، ومفتخرا بنفسه ، وتحمله لمشاق السفر ، ولم يذكر هذا الخليفة بسوى أنه قد قصده متحملا عناء السفر ، «ولم آتك من أجل أن تعينني في خصومة ، ولا مستجيرا بك من جريرة مجرم ، على نجائب هي من «عطاء الله» لا من عطاء خليفة أو أمير ، نتقى أعداءها بقبيلة رهيبة تضم بينها كل فتى مشبوح الذراعين تتقى به الحرب «شعشاع وأبيض فدغم» ولنعرض بعضا من أبياتها التي ذكر فيها الخليفة :

إليك أمير المؤمنين تعسفت
 بنا البعد أولاد الجدليل وشد قم (٢)

(١) تزغمت - رغت ، مطوت - مدت ، النسج - جبل تشدبه الرحال ، دف - جنب ناقة كريمة .

(٢) تعسفت - تسير على غير هدى ، الجدليل وشدقم - فحلان تنسب إليهما الابل الكريمة .

نواشط من يبرين أو من حذائه
 من الأرض تعمى فى النحاس المخزم (١)
 الى أن يقول :
 جشمت اليك البعد لا فى خصومة
 ولا مستجيرا من جريرة مجرم (٢)
 ولو شئت قصرت النهار بطفلة
 هضيم الحشا ، براقه المتبسم (٣)
 تحن الى الدهنا بخفان ناقتى
 وأنى الهوى من صوتها المترنم
 الى ابل بالزرق أوطان أهلها
 يحلون منها كل علياء : معلم (٤)
 نجائب ليست من مهور أشابة
 ولا دية كانت ولا كسب مائم (٥)
 ولكن عطاء الله من كل رحلة
 الى كل محجوب السرداق : خزم (٦)
 تبرك بالسهل الفضاء وتتقى
 عداها برأس من تميم عرمم
 ثم يواصل الفخر بقومه فيقول :
 وان تدع قيسا قيس عيلان يأتها
 بنو الحرب يستعلى بهم كل معظم
 كثير الحصا عال لمن فوق ظهرها
 بهامة ملك يفتح الناس مكرم (٧)

(١) تعمى - ترمى بالزبد الذى يسيل على مافى أنفها من حلقات النحاس

(النحاس المخزم) .

(٢) جريرة - جريمة .

(٣) طفلة - ناعمة ، هضيم الحشا - ضامرة الخصر .

(٤) كل علياء - مكان عال ، معلم - كالجبل وهو العلم .

(٥) أشابة - مختلطة .

(٦) محجوب السرداق - ملك لا يراه الناس ، خزم - كثير المطاء .

(٧) مكرم - صيد .

هذا هو نموذج يشبه أن يكون كاملا في بيان معالم هذا النوع
من المدح ، الذي قد يكتفى فيه ببيت من عتاب ، كما فعل مع أبي
غسان مالك بن مسعم الذي لم يذكره في قصيدته الطويلة بسوى
قوله :

ان العراق لأهلى لم يكن وطننا
والباب دون أبي غسان مسدود

ومثل ذلك قصيدته التي يلوم فيها نفسه ، ويعاتب الخليفة
عمر بن عبد العزيز ؛ بل يفخر بكرم نفسه معرضا أو متهما الخليفة
عمر بن عبد العزيز بالشح والبخل ، ويجاهر فيها بأن ما يحزنه هو
سهره في تحبير قصائد المديح الرائعة فيه . . كما يمدح عبد الملك
ابن بشر بن مروان ببيت واحد في قصيدة طويلة له هو :

نؤم فتى من آل مروان أطلقت
يداه ، وطابت في قريش مضاربه

ويمدح هشام بن عبد الملك أيضا ببيت واحد فيقول :

الى ابن أبي العاصي هشام تعسفت
بنا العيس من حيث التقى الغاف والرمل (١)

بل قد يجمع بين المدح والهجاء في القصيدة الواحدة كما في
مدحه للملازم بن حريث الحنفي الذي يمدحه فيقول :

أعاذل ان ينهض رجائي بصدرة
الى ابن حريث ذى الندى والمكارم

ثم ينتقل الى هجاء امرئ القيس قوم هشام المرثى الذي التحم
معه في معركة هجائية استمرت فترة طويلة فيقول :

أحار بن عمرو لامرئ القيس تبتغى
بشتمى ادراك العلاء والمكارم

(١) الغاف - شجر بعمان .

كان أباهما نهشل أو كأنهم
بشقشقة من رهط قيس بن عاصم

وغير امرئ القيس الروابي وغيرها
يداوى به صدع الثأى المتفاقم (١)

لا نحب أن نعرض نماذج لهذا اللون من المديح أكثر من ذلك .
وانما نقول ان هذا اللون الأخير من المديح هو الذى جعل نقاد
الشعر ورواة الأدب يتهمون ذا الرمة بالتقصير فى فن المدح وهذا
فى رأيهم من أسباب تقصيره عن أن يلحق بالفحول من أمثال
الأخطل والفرزدق ، وجرير ، يقول ابن قتيبة : « وقالوا ذو الرمة
أحسن الناس تشبيها وانما وضعه عندهم أنه كان لا يجيد المدح
ولا الهجاء » (٢) ويسال الفرزدق قائلا : فمالى لا أعد فى الفحول من
الشعراء ؟ فيجيبه قائلا : « يمنعك من ذلك ذكر الأبعاد ، وبكاؤك
الديار ، وكان الأصمعى يقول :

« انما وضع من ذى الرمة أنه كان لا يحسن أن يهجو ؛ ولا يمدح »
فما السر فى انصرافه عن المدح وتقصيره ، خاصة مع هؤلاء الخلفاء
والأمراء الذين أشرنا اليهم فى النوع الأخير من فن المديح ، يرجع
سر ذلك - فى رأينا - الى حساسية ذى الرمة ، وعلم النفس يقرر
أن السوداويين الذين يميلون الى الضمور والنحول كذى الرمة
يكونون ذوى أنفُس منفعة متوترة حساسة انطوائية غالبا ؛ فلم يكن
يروق له ما يعامل به الشعراء على أبواب الحكام والولاة لذلك كان
كثيرا ما يعاتبهم عتابا هو أدخل فى باب الهجاء منه فى باب العتاب
كما فعل مع الخليفة عمر ، ومع ابن مسمع .

بل قد هجا أحدهم وهو الحكم بن عوانة الوالى على خراسان
لأنه غاب شعره كما يقول صاحب كتاب الأغاني ، لذلك لم يقبل
بنفس راضية على مدحهم ، كما أنه فيما يبدو كان يأمل أن يبهرهم

(١) الثأى - الفتق .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة .

باتجاهه الجديد في عرض صور البادية وما فيها ؛ وقد بهر هذا الشعر سكان البادية فدنوا يعجبون بشعره ، أما النقاد المحترفون فقد قالوا : ان شعره لا يشبه شعر العرب الا واحدة تشبه شعر العرب وهي التي يقول فيها « والباب دون أبي غسان مسدود » وقد نسي الشاعر أن هؤلاء الخلفاء والحكام أنازيون بطبعهم لا يستهويهم الا أن يشاهدوا صورهم وصور أمجادهم وبطولاتهم الزائفة غالبا في مرايا قصائد الشعراء ، ولا يروق لهم الفن الذي لا يتحدث عن ذواتهم مهما كان رائعا جديدا ، وهناك سبب ثالث هو أن ذا الرمة رغم فقره وحاجته حتى زعم ابن عياش « أنه كان طفيليا يأتي العرسات (١) كان ينظر الى هؤلاء الأمراء والحكام على أنهم لا يفضلونه في شيء فقبيلته بنو تميم من أكبر القبائل العربية وقد تولى عدد كبير منها الامارة أو قيادة الجيوش ، وربما كان بعض الأمراء أقل شأنا منه ، خاصة أن علو الشأن وانخفاضه يتوقف على العائلة التي ينتمى اليها هذا الأمير أو ذاك لذلك وجدناه يهجو بعضهم ويعاتب البعض الآخر ، ويفتخر بقومه في مجال مدح الخليفة ، وكأنه يهدده بقومه ، وقلمانجده يعود الى الواحد منهم ليمدحه مرة أخرى ولم يمدح سوى بلال الذي كان يعزه ويكرمه بأكثر من قصيدتين ، وخلاصة رأينا أن ذا الرمة يملك من وسائل النجاح في فن المديح مالا يملكه سواه ، فهو غني بصورة ، كما كان يلم الماما واسعا بمحامد الممدوح القديمة والحديثة ، ومفاخر أجداده ، وقومه قبل أن يمدحه ثم يستعين بكل ذلك في قصائد مديحه ، بل نجح فيما لم ينجح فيه شاعر معاصر كأحمد شوقي الذي أخذ عليه بأن ملامح من يمدحهم أو يرثيهم تكاد تختلط بلامح غيرهم حتى قيل انه قد يرثي انسانا فاذا لم يمت بدل اسمه باسم آخر قد مات - أقول ان ذا الرمة نجح في رسم ملامح ممدوحيه النفسية والجسمية ؛ فاذا كان قائدا وصفه بصفات المحارب معددا معاركه وانتصاراته واذا كان قاضيا تحدثت عن عدالته وتمسكه بما جاءت به الشريعة الاسلامية ، كما يذكر اسمه ولقبه وكنيته

(١) الاغاني ج ١٦ .

أحيانا في القصيدة الواحدة متعرضا لذكر صفات آبائه وأجداده وأيامهم في الجاهلية ومفاخرهم في الاسلام .. ان شاعرنا هذا لم يكن يعتمد الى الصفات المألوفة المبتذلة ليخلعها على ممدوحه - حقا ان بعض قصائده لا تخلو من ذلك ولكنه يمدح كل انسان بما هو موصوف به في الواقع ، بل ان الموقف من الممدوح والمناسبة التي مدحه من أجلها كثيرا ما تلقى ظلها على مدائح ، لذلك أكثر من وصف المهاجر بن عبد الله بالعدالة ، ورد المظالم الى أصحابها ، وتمييزه للحق من الباطل مهما كان الخصم بليغا ذلق اللسان ، وكيف يروع الظالم وينكل به ، لأنه استعان به ذو الرمة في استرداد البثر التي سلبها من قومه عتيبة بن طرثوث .. ولعل ما أخره عن الفحول لم يكن هو التقصير في فن المديح أو الهجاء ، وانما لأسباب أخرى سننتبينها فيما بعد :

الفخر والهجاء :

لج الهجاء بين ذى الرمة وهشام المرثي ، ويبدو أن ذا الرمة هو الذي بدأ هذا الهجاء إذ أنه مر على قرية لامرئ القيس تدعى امرأة أو القصيبة من حوران فلم ينزلوه ولم يقروه واضطر الى أن يستظل مع رفاقه بظل ثيابهم التي نشروها على سيوفهم فهجاهم هجاء مقذعا مشهرا بهم ، ومعريا بخلهم للناس حاكيا قصته معهم ، يقول في هذه القصيدة :

نزلنا وقد غار النهار ، وأوقدت
علينا حصي المعزاء شمس تنالها (١)
فلما دخلنا جوف امرأة غلقت
دساكر لم ترفع لحير ظلالها (٢)

(١) المعزاء - الأرض الصلبة ذات الحجارة ، غار النهار - جاوز الزوال أي في ساعة القيلولة .

(٢) امرأة - اسم قرية سميت باسم قبيلة امرئ القيس قبيلة المهجر ، دساكر - مخادع المفرد دسكرة .

- بنينا علينا ظل أبراد يمنة
 على سمك أسياف ، قديم صقالها (١)
 فقمنا ، فرحنا والدوافع تلتظي
 على العيس من شمس بطيء زوالها (٢)
 ولو عريت أصلا بها عند بيهس
 على ذات غسل ، لم تشمس رحالها (٣)
 وقد سميت باسم امرئ القيس قرية
 كرام صواديها ، لثام رجالها (٤)

وقد رماهم بالبخل ، كما وصف نساءهم بأنهن مرتخيات
 البطون ، يزيد القرط سوءا قذال الواحدة منهن ، ويبدو أن هذه
 القصيدة لم تكن الأولى - كما ادعى صاحب الأغاني - لأن ذا الرمة
 يرد على هشام الذي يفخر « بزيد » بأنه بعيد عن قبيلة زيد هذه
 بعد الثريا ، بينما هو أى ذى « الرمة عم زيد وخالها » ..

فخرت بزيد ؛ وهى منك بعيدة
 كبعد الثريا عزها وجمالها
 ألم تك تدري انما أنت ملصق
 بدعوى وأنى عم زيد وخالها

وسواء أكان هذا السبب فى نشوب الهجاء بينهما أم غيره ،
 فإن أمر هجائهما هذا قد اشتهر ، ويقال ان ذا الرمة كان مستعليا
 هشاما ، متغلبا عليه الى أن رفده جرير بأبيات يرد بها على قصيدة
 ذى الرمة السابقة جاء فيها :

(١) أبراد - ثياب من الحرير والمراد أنهم استظلوا بثيابهم التى رفعوها على
 أسيافهم .

(٢) الدوافع - الحر الشديد .

(٣) صلابها - ظهورها ، بيهس جد الشاعر ، ذات غسل - امرأة .

(٤) صواديها - نخلها .

غضبت لرحل من عدى تشمسوا
 وفى أى يوم لم تشمس رجالها
 وفيم عدى عند تيم من العلا
 وأيامنا اللاتي تعد فعالها
 وضبة عمي يا ابن ضل فلا ترم
 مساعى قوم ليس منك سجالها (١)
 يماشى عديا لؤمها لا تجنّه
 من الناس ما مست عديا ظلالها
 فقل لعدي تستعن بنسائها
 على فقد أغيا عديا رجالها
 اذا الرم قد قلدت قومك رمة
 بطيئا بأمر المطلقين انحلالها (٢)

فغلبه هشام ، والسبب الذى من أجله أعان جرير هشاماً هذا
 أن هوى ذى الرمة كان مع الفرزدق لما كان بين جرير وابن الجأ
 التيمي ؛ وتميم وعدي اخوان من الرباب ؛ وأخيراً يترضى ذو الرمة
 جريراً قائلاً له : لقد تعصبت على خالك للمرئى حيث قلت كذا
 وكذا ، فقال له جرير : لأنه أهلك البكاء فى ديار مية حتى استبيحت
 محارمك ثم يرفده بأبيات منها :

يعد الناسبون الى تميم
 بيوت العز أربعة كبارا
 ويهلك بينهما المرئى لغوا
 كما ألفت فى والدية الحوارا (٣)

هذه الأبيات التى بهرت الفرزدق حين سمعها من ذى الرمة ،
 فادعاه لنفسه ، وعلى كل فالتلفيق واضح فى هذا الأفراد المزعوم ،
 فالرواة الذين أعلنوا من شأن جرير هم الذين زعموا له هذه

-
- (١) ابن ضل - للرجل المجهول النسب ، سجالها - دلائها والمراد اعمالها
 العظيمة . لامت اليك بصلة .
 (٢) الرم - قطعة الجبل البالى وهو هنا يسخر من لقب ذى الرمة .
 (٣) سبق شرحه .

المزاعم ، فكان جريرا قد بلغ من الشاعرية ما يجعله بأبيات يمد بها شاعرا من الشعراء يكسب له النصر ، وأبيات ذى الرمة التي يهجو بها هشاما أقوى ، وأعنف بينما أبيات هشام التي زعموا أنها مما أمده به جرير تدور حول معنى جزئي واحد هو تعرض ذى الرمة ورفاقه للشمس المستعرة دون أن يجدوا الستر أو المأوى ، بينما تناول ذو الرمة في هجائه قصة بخلهم ، وعرضها في ثوب من الواقع الحى أو الخيال الذى هو أشبه بالواقع الحى ، كما استغل عنصر المقابلة والتضاد فى بيان بخلهم ، فنخلهم كريم ، وهم بخلاء ، وبيوتهم توصل عند ما يشاهدون ضيفا ، والنساء المرتبات المرتخيات البطون من الحمل والترهل لا يزين القرط قذالهن ، وإنما يزيده قبحا على قبح ٠٠ (١) وقد مات ذو الرمة خلال تلك المعركة فزعم الناس أن هشاما غلبه ٠٠ ليس من همنى الدفاع عن ذى الرمة ، بل كنا نود لو أنه أطاع خلقه الرضى ، ونفسه الشاعرة ، ولم يطع الفرزدق أو جريرا فى تحريشهما له للاشتباك مع هشام ابن سعد بن عبد مناة الذى ينتمى مثله الى فرع من فروع بنى تميم فى هذا الهجاء ، ولكن الأدلة التى بين أيدينا من شعره تثبت تفوقه فى هذا الفن وتمكنه منه ، حقا انه كان يصنع صنيع الهجائين من أمثال الفرزدق وجرير ، ولكنه لم يكن مقلدا لواحد منهما ، بل ربما كان يتفوق عليهما فى أن أهاجيه الممتزجة بالفخر كثيرا ما كانت تعتمد على صور من الواقع « مع سخرية » يمتاز بها عن سواه ، وسنكتفى بعرض هذا النموذج من شعره الذى يهجو فيه هشاما مفتخرا بنفسه وبقومه ، وفى هذه القصيدة يعتمد على أسلوب المفارقة فيتحدث عن معارك قومه ، وانتصاراتهم ثم يعرج الى المهجو فيجرده ويجرد قومه من مثل ذلك فبينما تثير خيولهم النقع يثير قوم امرئ القيس التراب بالفتوس لأنهم فلاحون أو حراثون ؛ يلبسون ثياب اللؤم ويمشون باكتاف مائلة من الارهاق والعمل ؛ والعربى يحتقر الريفى الذى يسكن القرى وهذا أثر من آثار العصر العبودى الذى يحتقر فيه السادة العمل الذى هو من شأن العبيد ،

وكثيرا ما وصفهم بأنهم ليسوا عربا فشعورهم الصهباء تشي بذلك ،
كما يرمى نساءهم برجل يدعى اين خوط يظهر أنه أمير يقيم في
قصر منيف واسع .

وإذا كان أسرف في هجاء هشام فان ذلك لم يشغله عن هجاء
غيره ، ولقد كان ينود عن شعره بالتهديد بالهجاء ، فلقد هدد
أبا عمرو بن العلاء حين أيد رأى بلال بن أبي بردة أو مال قليلا
في الرأي ، كما هجا الأعور الكلبى الحكم بن عوانة الذى كان واليا
على السند وخراسان ولاء هشام ذلك عام ١٠٩ لأنه عاب عليه شعره ،
ويهجو رجلا يدعى موسى بهذا البيت الذى يثير الضحك والسخرية
فيقول :

فست أم موسى فوقه حين طرقت
فمازال منها منتن الريح أبخرا (١)

وفى مجال الهجاء كثيرا ما يفخر بشعره الذى يشبهه بقطيع
من الابل لا يستطيع المهجو ذوده عنه :

أحين ملأت الأرض هدرًا وأطرقت
مخافة ضفنى جنبها وأسودها (٢)

عوى مرثى لى فعصبت رأسه
عصابة خزى ليس يبلى جديدها
فأصبحت أرميكم بكل غريبة

تجد الليالى عارها وتزيدها (٣)
قواف كشام الوجه باق حبارها

إذا أرسلت لم يبق يوما شرودها (٤)

(١) طرقت - ولدت بعسر وشدة .

(٢) هدرًا - أى يهدر بشعر كالجمال والهدر صوت الجمال .

(٣) تجد - تجدد .

(٤) الشام - مفردها شامة وهى نقطة سوداء فى الوجه ، حبارها - اثرها ،

شرودها - شاردها أى لايقدر أحد على ردّها اذا سارت فى الناس .

توافى بها الركبان فى كل موسم
ويحلوا بأفواه الرواة نشيدها (١)

هذا لون من أهاجيه كما رأينا يمتاز بالجدة والابتكار
فى التصوير ، والبعد عن الدوران حول المعنى التافه الهزيل ،
كما يمتاز بالوضوح ، والاتكاء على أرض الواقع ، والاستمداد من
أحداث الحاضر والماضى ؛ وبخاصة أيام قومه فى الجاهلية . يعرض
ذلك فى أثواب زاهية من التصوير والتعبير مع إيقاع موسيقى
جميل يجذب اليه القلوب ، كما يستولى على الحواس .

ولعلنا نخرج من هذا العرض بأن شاعرنا لم يقصر به عجز
عن مجارة شعراء المديح أو الهجاء وإنما قصرت به أنفته ،
وتقواه ؛ واقتناعه بأن تلك الصور الرائعة التى يعرض فيها مناظر
الصحراء وما فيها تضمن له السبق والتقدم وتروق الحكام والرواة
كما راقى لسكان البادية . . وقصر به عمره القصير ، فلقد مات
فى الأربعين من عمره ؛ وقعد به عن بلوغ شأو هؤلاء المتقدمين صغر
سنه ، كما كان يحسده معاصروه من الشعراء ، فعن صالح
ابن سليمان راوية ذى الرمة « أن الفرزدق وجريرا كانا يحسدان
ذا الرمة » وقال حماد الراوية « ما أكره القوم ذكره الا لحدائث سنه
وأنهم حسدوه » وقد سأل الوليد بن عبد الملك كلا من الفرزدق
وجرير عنه فشهدا بأنه « أخذ من طريف الشعر ، وحسنه مالم
يسبقه اليه أحد غيره » فقال الخليفة : « أشهد لاتفاقكما فيه أنه أشعر
منكما جميعا . . » ولا شك أنه لو عاش قليلا ولم يكن ربيعة كما
قال الصيقل حين أنشد شعره فاستحسنه ، لكان له شأن كبير ،
كما أن التعصب لشاعر دون شاعر لأسباب سياسية أو قبلية قد
رفع من بعض الشعراء كما وضع من البعض الآخر .

(١) توافى بها الركبان - جاءوا بها وتناقلوها .

الباب الخامس

مميزات أسلوبه

مميزات شعره :

إذا كان الفنان الملمهم يمتاز عادة بأسلوبه الخاص به ، والذي تتشكل بمقتضاه صورته وتراكيب تعبيراته فإن ذا الرمة شاعر ذو أسلوب متفرد ، بل لا أنكر أن الذي جذبني إليه ، وجبني في شعره هو ذلك الجديد في أسلوبه ، والذي نحاول أن نتعرض له في هذا الفصل من البحث ، والحق أن ميزات أسلوبه كثيرة ومتداخلة ، وربما كان التعرض لدراسة بعضها يحفه الخطر من حيث أنه لم يتناول بالدرس من قبل بل إن بعض الظواهر كظاهرة التقديم والتأخير لا نجد لها نظيرا في شعر شاعر آخر وهي في حاجة إلى أكثر من دراسة متخصصة .

١ - ظاهرة التقديم والتأخير :

بما أننا قد أشرنا إليها في صدر البحث هذا لأهميتها وتفرده بها فلنتناولها بشيء من الإفاضة . . . لقد لاحظنا أن ذا الرمة خاصة حينما يفعل وتلهث أنفاسه ، وتضطرب نفسه ، وتغيم الرؤى أمام عينيه ، فالشاعر الحق يكتب وهو في شبه غيبوبة أو في نصف اغفاء - يختل في يديه تركيب الجملة الروتينية المألوفة ، ويحدث في تركيباته تقديم ، وتأخير ، وفصل بين المبتدأ والخبر أو الصفة والموصوف قد يطول بل قد تمر بضعة أبيات ثم يأتي بعدها الخبر أو الصفة وهو يكثر دائما من تقديم الحال على صاحبها ، حقا إن هذا جائز عند النحاة ولكنه ليس الأسلوب المألوف المعتاد ، من ذلك قوله :

لا ، بل هو الشوق من دار تخونها
مرا سحب ، ومرا بارح ترب (١)

ومن التقديم قوله :
والهم « عين أثال » ما ينازعه
من نفسه لسواها موردا أرب
وأصل التركيب لا ينازعه أرب الى مورد سوى هذا المورد ، بل
لأول مرة نجد شاعرا يقدم أداة العطف والمعطوف على المعطوف عليه
فيقول :

خلاء تحن الريح أو كل بكرة
بها من خصاص الرمث كل ظلام (٢)

وتركيب الجملة هكذا كما يقول شارح الديوان : ألا حيا دارا
خلاء تحن الريح فيها كل ظلام أو كل بكرة من خصاص الرمث •
كما يقدم الصفة على الموصوف في قوله : « كأنه من كلي مفرية سرب »
أي كأنه سرب من كلي مفرية أو قوله : « كأنه متقبي بلمق عزب »
ومن ذلك تقديمه المعطوف وهو « وذا غدائر واردات » على المعطوف
عليه وهو مقلد حرة ، في قوله :

تريك وذا غدائر واردات
يصبن عثاعث الحجبات سود (٣)
مقلد حرة آدماء ترمي
بحدتها بفاترة ، صيود (٤)

ومن ذلك قوله :
ألربع ظلت عينك المياء تهمل
والعبارة : ألربع ظلت عينك تهمل المياء

(١) تخونها - تنقصها ، بارح - ربح حارة •

(٢) سبق شرحه •

(٣) (٤) واردات - شعر طويل ، الحجبات - ردوس الأوراك ، عثاعث -
لينة كالأرض الرملية ، مقلد - عنق ، آدماء - ظبية بيضاء ، فاترة - ساكنة الطرف ،
صيود - تصيد القلوب بجمالها والمعنى : تريك جيدا أبيض كجيد ظبية ذات طرف
فاتر صيود ، وتريك غدائر طويلة تصل الى ردوس الأوراك المتلثة •

ثانيا - الفصل بين أجزاء الجملة :

وشبيه بهذا التصرف في الجملة بالتقديم ؛ والتأخير ، ذلك الفصل بين أجزاء الجملة أو بينها وبين بعض ملحقاتها ، بل قد يستغرق الفصل بضعة أبيات كاملة ، من ذلك فصله بين الصفة والموصوف ، في البيت الذي أشرنا إليه سابقا اذ يأتي بالموصوف وبعد أربعة أبيات كاملة يأتي بالصفة ، ولا مانع من أن نورد الأبيات جميعا للاستدلال على هذه الظاهرة يقول :

- ألا حيينا بالزرق دار مقام
لمى وإن هاجت رجيع سقامى (١)
على ظهر جرعاء الكثيب كأنها
سنية رقم ، فى سرة قرام (٢)
الى جنب مأوى جامل لم تدع به
من العنن الأرواح غير خطام (٣)
كأن بقايا حائل فى مراحه
لقاطات ودع أو قبوض يمام (٤)
ترائك أياسن العوائد بعدما
أهفن ؛ وطار الفرخ بعد رزام (٥)

(١ ، ٢) رجيع سقامى - مرضى العائد الراجع ، جرعاء - أرض صلبة
رملية ، رقم - نقش ، سنية - غالية ، قرام - ثوب يستتر به ، والمعنى أن هذه
الجرعاء مخططة بخطوط مختلفة كنقوش تبدو فى ثوب غالى الثمن .

(٣) جامل - جمال ، العنن - حظائر الابل ، الأرواح - الرياح ، حائل - بعير
مضى عليه حول ، ودع - خرز أبيض .

(٤) لقاطات - جمع لقاطة أى يلتقطه من يريد ، قبوض - قشر بيض .

(٥) العوائد - الطيور التى تريد العودة الى بيضها ، ترائك - هذا البيض
متروك لفساده ، أهفن - أصابتهم الهيف أى الريح الحارة ، رزام - عجز عن
النهوض والمعنى الى جنب مأوى للجمال قد حطمت الريح ، والبعير القديم فى هذا
المكان كالخرز أو قشر بيض اليمام الذى خرج منه الفراخ ، ويثس اليمام من العودة
إليه .

خلاء تحن الريح أو كل بكرة
بها من خصائص الرمث كل ظلام

فخلاء في البيت الأخير - كما هو واضح - صفة لدار في البيت الأول ، ويأتى بمثل هذا التركيب الغريب فيصف دمه الغزير « كأنه من كلى مفرية سرب » فلقد تمت الجملة بذكر ركنيها ولم تعد في حاجة الى أية مكملات بعد ذلك ، وننتظر بعد ذلك من الشاعر أن يبدأ مستأنفا جملة جديدة ، ولكنه يفاجئنا بوصفه لكلمة « كلى مفرية » فيقول والقراء بالجر :

وفراء غربية أثأى خوارزها

مشلشل ضيعته بينها الكتب (١)

وفصل بين المضاف والمضاف اليه في هذا البيت الذي يرى النحاة أن الفصل فيه ضرورة ؛ ويعلق سيبويه عليه بقوله : « فهذا الفصل قبيح » فيقول :

كأن أصوات من ايغالهن بنا

أواخر الميس أصوات الفرائج (٢)

ومن الواضح أن التركيب هو : كأن أصوات أواخر الميس من ايغالهن بنا أصوات الفرائج ومثله قوله :

نضا البرد عنه فهو ذو من جنونه

أجارى تسهاك وصوت صلاصل (٣)

والتركيب المألوف : فهو ذو أجارى « كما يفصل بين » لم « الجازمة والفعل الذي دخلت عليه فيقول :

« كأن لم سوى أهل من الوحش تؤهل » وسيبويه يعلق على مثل ذلك قائلا :

(١) وفراء - واسعة ، غربية - مدبوغة بالغرف (اسم نبات) ، أثأى - أفسدها ، خوارزها - خائطوها ، مشلشل - سائل .

(٢) الميس - شجر تصنع منه الأعواد التي توضع على ظهر البعير ليحمل عليها .

(٣) تسهاك - سرعة جرى .

والكلام منه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ،
ومستقيم قبيح ، والمستقيم القبيح أن تضع اللفظ في غير موضعه
نحو : قد زيدا رأيت (١) .

فما السر في تبديله لتركيب الجملة المألوفة ، وتغييره فيها
بالتقديم والتأخير والفصل بين أجزاء الجملة فصلا يطول أحيانا
كثيرة ، ويكون أحيانا بين مالا يمكن أن يفصل بينهما كالفصل بين
« لم » التي لا تدخل الا على الفعل المضارع ، وفعلها ، وكالفصل
بين المضاف والمضاف اليه ، يمكننا في ضوء هذين البيتين اللذين
يمدح بهما بلال بن أبي بردة ، واللذين قد عيبا عليه ، فقل انه
اقتدى فيهما بأثر غيره ، فأساء التعبير : يمكن أن نتعرف على
السر . . يقول ذو الرمة :

كان الناس حين تمر حتى
عواتق لم تكن تدع الحجالا (٢)
قياماً ينظرون الى بلال
رفاق الحج أبصرت الهلالا

نجد أن فكرة الشاعر التي يريد أن يعبر عنها تنمو وتتكامل
أثناء التعبير عنها ليس قبل ذلك : فحين يقول « كان الناس حين
تمر » يرى أن المبالغة لا تتم والصورة لا تكتمل الا بإبراز العواتق
من خلورهن لمشاهدة موكب المدح ؛ فبلون صقل وصناعة يضيف
« حتى عواتق لم تكن تدع الحجالا » كما يضيف الى البيت الثاني
قوله « رفاق الحج » التي يخلو منها البيت الذي تأثره أو تأثر
معناه كما يقولون وهو :

..... كأنهم يرون به الهلالا

ولا شك أن رفاق الحج أكثر تطلعا وتشوقا الى رؤية الهلال
من غيرهم خاصة اذا كانوا برؤيته يفتطرون من صيام ويعجلون بأداء
شعيرة من شعائر الحج أو يرتحلون .

(١) كتاب سيبويه ج ١ صفحة ٣٦ .

(٢) عواتق - فتيات جميلات ، الحجالا - البيوت .

وفى البيتين السابقين (١) « ومن حاجتي ، لولا التناثي الخ ٠٠
نجد نموا من نوع آخر ، فهو ليس نموا فكريا وإنما هو نمو
نفسى ؛ أو ما يشبه التذبذب النفسى ٠ فهو يقول : « ومن حاجتي »
وفى نيته أن يتبعها بقوله : « منحت الهوى » لكنه يتردد نفسيا ؛
أى حاجة تلك التى ترغمه على أن يمنح هواه من ليس بالمقارب ،
فيضيف ما يشبه أن يكون استداركا وهو « لولا التناثي » أى بسبب
هذا التناثي ؛ ولكنه ليس بالشخص الضعيف الذى ينتقل بهواه
وراء كل انسان ، وإن كان بعيدا بوده عنه أو بمكانه وشخصه ،
فأضاف إضافة أخرى هي « وربما » ولا شك أن كل إضافة منهما
لا يمكن للنفس الشاعرة الموهبة أن تستغنى عنها أو تتناساها
فى مجال التعبير النفسى الدقيق الذى يجرى فى مسارب الذات ويعبر
عما فيها من قلق أو تردد أو اضطراب ؛ متمزج باحساسات أخرى
من الرغبة والحنين ؛ والخوف ، من إثارة غضب أو سخط من يجب ؛
وقد يحدث أن تتسابق احساساته النفسية لروعة أجزاء ما يصف ،
فهو يريد أن يعبر عن جمال عنق محبوبته فيقول « تريك » فقط ،
ويقفز الى بؤرة الشعور اعجابه بشيء آخر لا يقل جمالا عن الاول بل
يتفوق عليه فيعدل عن الاول الذى كان مقدرا له فى بناء العبارة
أن يكون معطوفا عليه ليقدم الشيء الجديد الذى قفزت ذكره الى نفسه
قفزا سريعا لم يدع له مجالا للتراجع فيقول :

تريك ؛ وذا غدائر ٠٠ واردات
يصبن غثاغت الحجبات ؛ سود
مقلد حرة ادماء ترمى
بحدتها بفاترة صبيود

وبمثل ذلك يمكن أن نعلل للفضل بين المضاف والمضاف اليه
فى قوله : « كأن أصوات من ابغالهن بنا » الخ ٠٠ ومن قبيل التذكر
العقلى عطفه « وحولا » على « كأن القطر والريح غادرا » فهو بعد
استكمال أجزاء الجملة تذكر عاملا ثالثا قد ذهب بآثار هذه الديار

(١) البيت هو :

ومن حاجتى لولا التناثي وربما منحت الهوى من ليس بالمقارب

وهو مرور حول على الارتحال عنها فأضاف « وحولا » ليستكمل كل أجزاء الفكرة التي يعبر عنها، ومن عادته دائما في صورة تتبع الأجزاء الصغيرة والدقيقة لرسم ملامح الصورة ، أما تأخير الخبر بعد أبيات ، أو الفصل بين الجار والمجرور ومتعلقه أو بين الصفة والموصوف فلاسباب تكنيكية غالبا ، فهو يؤخر مثلا الجار والمجرور لأن مفعول الفعل المتعلق في حاجة لاضافة بعض الصفات اليه لرسم ملامحه ؛ فيؤخر لأجل ذلك الجار والمجرور الذي سينتقل به الى شيء جديد هو « ريح الخزامى » التي تحملها الرياح المتعبة اللواعب ؛ لكن ذلك لا يمنعنا من أن نوافق بعض اللغويين والنقاد القدامى في أنه ربما يلجأ الى ذلك أحيانا ليستقيم له الوزن ، من ذلك قوله : « ألربع ظلت عينك الماء تهمل » فتقديم المفعول به على الفعل في هذه العبارة لا سبب له ؛ في رأينا - سوى اقامة الوزن لذلك جاء تركيب البيت ركيكا ، كما قد يفصل أحيانا ليجتذب اليه النحلة واللغويين الذين كان الشعراء يحبون أن يستشهدوا بأشعارهم فتزداد ذيوعا ، بل هدد بعض الشعراء الرواة اللغويين بالهجاء ليرغموهم على رواية أشعارهم والاستشهاد بها لذلك تألم ذو الرمة حين أجاب أبو عمرو بن العلاء بلال بن بردة على سؤاله :

هل تروون لذى الرمة ؟ فقال : نروى له على تضعيف .. فقال ذو الرمة له : « لولا أننى رأيتك تحتطب فى جبله لهجوتك » من هذا الفصل السابق بين « لم » والفعل « تؤهل » بسوى ؛ والفصل بين المضاف والمضاف اليه فى قوله « فهو ذو من جنونه - أجارى » ولقد أورد ابن طباطبا عددا من هذه التركيبات التي يراها غير مستقيمة ودعا شدة الأدب الى عدم التأثر بها فقال : فأما هذه الأبيات المستكرهة الألفاظ ؛ المتفاوتة النسيج ؛ القبيحة العبارة التي يجب الاحتراز عن مثلها (١) ثم يسوق شواهد على ذلك لشعراء مختلفين منهم ذو الرمة فى بيته « كان أصوات من يغالهن بنا - أواخر الميس » البيت .

(١) معيار الشعر ص ٤٠ .

ثالثا : الصورة الشعرية :

عن « حماد أن أحسن الناس (١) تشبيها في الجاهلية امرؤ القيس ؛ وأحسنهم تشبيها في الاسلام ذو الرمة » وكان ذو الرمة يعرف ذلك في نفسه ، ولقد قال مرة اذا قلت كانه ثم لم أجد مخرجا فقطع الله لساني « وعن محمد بن سلام » كان لذى الرمة حظ في حسن التشبيه لم يكن لأحد من الأسلاميين . » .

والحق ما قال هؤلاء النقاد ، فنو الرمة في الكثير من شعره يرسم لوحات واسعة (٢) يضع بعضها بجانب البعض الآخر في القصيدة الواحدة ؛ وربما لا تربطها في القصيدة الواحدة سوى أنها صور شعرية أو لوحات فنية معروضة في صالة عرض واحدة ؛ وتحمل سمات شخص بعينه ، وهو في رسم هذه اللوحات الكبيرة يستعين بأداتى التشبيه والاستعارة لتلوين وتظليل لوحاته هذا الى جانب التصرف في تكوين العبارة والموسيقى وغير ذلك وهو يستعين بالتشبيه أكثر من الاستعانة بالاستعارة ؛ بل أغلب تشبيهاته من النوع الذى تذكر فيه الأداة وهى كأن غالبا ؛ والاستعارات تكثر في شعره حين ينفع عمل بعنف ، وتختلط في مخيلته المرئيات ، فلا يستطيع أن يفصل بين ما هو حقيقى وما هو خيالى ويظهر ذلك واضحا في غزلياته حين يشتد به الهيام . ومثل ذلك الكناية وهى قليلة في شعره :

ومن كناياته قوله :

صمت الخلاخيل خود ليس يعجبها

نسج الأحاديث بين الحى والصخب (٣)

ومن الاستعارات الرائعة قوله :

(١) الاغانى ج ١٦ .

(٢) أشار الى ذلك الدكتور شوقى ضيف في بحثه القيم عن ذى الرمة في كتاب التطور والتجديد في العصر الأموى .

(٣) خود - شابة ناعمة جميلة .

ترأى لنا من بين سـجـفـين لمحـة

غزال أحم العين بيض ترائبه (١)

وهو فى استعاراته وصوره عامة يميل الى التجسيم والتشخيص
مع ميل للتلوين بالألوان الزاهية ، انظر اليه وقد جعل للريح ذبلا
منمنما لما يثيره من رمال وبقايا أعشاب يابسة :

والركب تعلو بهم صهب يمانية

فيفا عليه لذيـل الريح نمـنـم (٢)

والليل : « قد صبغ الحصى بمداد » ومن التشخيص تلك
الشمس الحيرى (والشمس حيرى (٣) لها فى الجو تدويم) وحين
توشك أن تغرب تشبه حال انسان يعاني سكرات الموت :

فلما رأين الليل ، والشمس حية

حياة الذى يقضى حشاشة نازع

والليل شجر أسود :

أكلفه أهوال كل تنوفة

لموع ؛ وليل مطالخم غياطله (٤)

بل الليل كطائر يحط حتى يلمس الأزهار بقواده : « دنا
الليل حتى مسها بالقوادم » والنجوم تعوم فى السماء :

تجوز منها زائر بعد ما دنت

من الفور أرداف النجوم العوائم (٥)

والشعر ينسدل على غصن من أغصان البان :

وذو غدر فوق الذنوبين مسـبـل

على البان ، يطوى بالمدارى ويسرح

(١) سـجـفـين - السـجـف - الستارة ، أحم العين - اسود العين ، الترائب -

عظام الصدر .

(٢) صهب - ابل يضرب سوادها الى حمرة ، فيفا - المستوى من الأرض

نمنيم - منقوش .

(٣) تدويم - وقوف .

(٤) مطالخم - أسود ، غياطله اشجاره .

(٥) تجوز - اجتاز وا قبل ، أرداف - أواخر .

وللريح أنفاس ضعيفة متعبة :
 بريح الحزامى هيبتها وخبطة
 من الطل أنفاس الرياح اللواغب
 وفي الفجر يغبش الليل مصابيحہ :
 الى نضوة عوجاء والليل مغبش
 مصابيحہ ؛ مثل المها واليعافر (١)

والنجوم مصابيح ذات عيون ضيقة ضعيفة :
 مصابيحہ خوص العيون كأنها
 قطا خامس ، أسرابه متميم

والمسافرون يقتاتون الاحاديث يتلهون بها أو يقطعون بها
 الوقت « وغبراء يقتات الاحاديث ركبها » وللأرض سنام « منعنا
 سنام الأرض .. » وللرمل أنف « وان حبا من أنف رمل منخر »
 وللنسيم روح تهلك :
 وقف كجلب الغيم يهلك دونه

نسيم الصبا واليعملات العواقد (٢)

لقد حاولت أن أعرض نماذج لصور من استعاراته ؛ لأن النقاد
 القدامى قد أفرطوا في الحديث عن التشبيه عنده افراطا يوهم
 بأن كل صورة لا تتعدى لونا واحدا هو أقلها جمالا في رأي البلاغيين
 وأعني به التشبيه ؛ حقا ان التشبيهات في شعره أكثر ؛ ولكن ذلك
 لا يمنع من أن الاستعارات تكثر في شعره أيضا خاصة حين لا يقصد
 التصوير قصدا ؛ وانما يندمج في موضوعه ، ويعيش في داخله :

وهو في صوره عموما يميل الى التركيز ، كما يميل الى
 الاستيعاب ، ولا منافاة بينهما فالمراد بالتركيز البعد عن ترحل
 الصورة ؛ وإضافة الذبول اليها ، وذلك يمكن مع استيعاب كل الأجزاء
 الضرورية لرسم الصورة ؛ فمن تركيزه هذه الصورة التي يريد أن

- (١) نضوة عوجاء - ناقة هزيلة ، مغبش - مطفىء ، المها - البقر الوحشي ،
 اليعافر - مفرد ما يفقر وهو - الغزال لونه لون تراب الأرض .
 (٢) قف - أرض غليظة ، جلب الغيم - أوله ومقدمته ، العملات - الأبل ،
 العواقد - الغويات .

يشبه فيها العذارى الجميلات بالظباء ، والجآذر فى وقت واحد
فلم يلجأ الى تعداد المشبه به ؛ وانما ألف صورة جديدة تجمع بين
أعناق الظباء ومحاسنها الأخرى وبين عيون صغار البقر الوحشى ،
فقال :

وتحت العوالى ، والقنا مستظلة
ظباء أعارتها العيون الجآذر

وقد ظن الدكتور شوقى ضيف (١) خطأ أن الشاعر يصف
نساء أسيرات لأنه قد قرأ البيت منفصلا عن القصيدة .

والشاعر يتحدث عن محبوبته مى وأترابها وقد ارتحلن الى
أماكن أخرى بعد أن تعذرت الحياة فى ديارهن ؛ وقد سرن
يحلوهن ويحميهن شباب القبيلة برماحهم أو هن تحت أعواد
الهودج التى تشبه العوالى والقنا ؛ وقبل هذا البيت :

فقد أورتثنى مى مثل الذى به
هوى غربة ، دانى له القييد قاصر

ومن الاستيعاب تشبيهه الفجر وقد بدا فى أخريات الليل وقد
بقيت من الليل بقية بحصان أبيض البطن مال جله الذى يغطى به
ظهره قليلا ؛ واللون أشقر ، فهنا لونان هما عمود الصبح الأبيض
وبقايا من الليل شقراء لاختلاط بياض الصبح فيها وحمرة الأفق
بسواد الليل :

وقد لاح للسابرى الذى كمل السرى
على أخريات الليل فتق مشهر
كلون الحصان الأنبيض البطن قائما
تمايل عنه الجل ؛ واللون أشقر

ويميل بشكل واضح الى رسم الصور الحركية ؛ بل لا يحب أن
يلتقط صورة المنظر بريشته الشاعرة الا وهو فى وضع متحرك ،
يصور الثور وهو يقاتل الكلاب ، وتقاتله ، والنعامة وهى تسرع مذمورة

(١) التطور والتجديد فى الشعر الاموى .

على فراخها بعد أن أقبل الظلام ؛ واكفهر الجو ؛ والقطا وقد شرب
فهو غائد ممتلئ الحواصل بالماء ، والرجل أثناء تحركها « ورجل
كظل الذئب » وحين تسير الناقة :

تموج ذراعها ؛ وترمي بجوزها
حذاراً من الإيعاد ؛ والرأس مكمج (١)

وفى سراب الصحراء يبدو كل شيء يتحرك فالابل كزوارق
تسبح في نهر دجلة : « قراقير في صحراء دجلة تسبح » وقنن
الجبال تبدو كل واحدة منها كأنها فرس كميت يبارى الخيل فى
الجرى :

ترى القنة القوداء منه كأنها
كميت يبارى رعلة الخيل فارد (٢)

والجبل وهو يرتفع وينخفض كفرس أعرج يتبع الخيل
« أحوى يتبع الخيل ظالع » ومن أدوع صوره الحركية تلك اللوحة
التي يرسمها لقطيع من الحمير الوحشية ، حين انشق عمود اللوحة
أبصرت جداول تترقق كالسيوف البيضاء اللامعة ، وفرحت وأخذت
تحوم حول الماء ثم تنظر إليه من كل جانب ، وتنفض أوتها وأذنانها
مبتهجة ثم شرعت تصف خلودها الواحدة بجوار الأخرى خائضة
فى الماء الى نصف سيقانها وأخيراً أخذت تشرب جرعات من الماء
كظهور القطا المتتابع ؛ بعضه فى اثر بعض :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت
جداول أمثال السيوف القواطع
فلما رأين الماء قفرا جنوبه
ولم يقض اكراء العيون الهواجع (٣)

(١) جوزها - وسطها ، مكمج - مرفوع .

(٢) القنة القوداء - القمة العالية ، رعلة - رجيل أى عدد كبير ، فارد -
ينفرد .

(٣) قفرا جنوبه - لا يوجد حوله أحد ، ولم يقض اكراء العيون الهواجع -
اكراء - نوم ، والهواجع - النائمة . والمعنى أنه كان ذلك ولم تزل فى الليل بقية ،
فالنائم لم يستيقظ من نومه .

- فحومن ؛ واستنفضن من كل جانب
وبصبصن بالأذنان حول الشرائع (١)
صففن الخبوء ، والنفوس نواشز
على شط مسجور، صخب الضفادع (٢)
فخضضن برد الماء حتى تصوبت
على الهول فى الجارى شطور المذارع (٣)
يداوين من أجوافهن حرارة
بجرع كائباج القطا المتتابع (٤)

لقد حملت هذه الأبيات كل سماته التصويرية ؛ من دقة
واستيعاب ؛ الى تصوير حسى ونفسى (على الهول ، النفوس نواشز)
والجو الذى يحيط بالمنظر ، كل شئ هادىء حول الماء ؛ وهى عطشى
والضفادع فقط هى التى تنق فى الماء وتصخب .. ان الانسان
ليعجب كيف تاتى له أن يرسم هذه الأجزاء الدقيقة بتلك العناية ؛
فكل شئ فى اللوحة محدد تحديدا دقيقا انظر اليه وقد حدد المكان
الذى بلغه الماء من سيقانها اذ لم يتجاوز أنصاف مذارعها ، ويرسم
لوحة للنعام وهى ترمى ؛ فهى تطول وتقصر :

- وكم نفرت دونك من صوار
ومن خرجاء مرثلة وخود (٥)

-
- (١) استنفضن - نظرن ، بصبصن - حركت أذنانها ، الشرائع - جمع شريعة
أى منهل الماء .
(٢) نواشز - خائفة ، مسجور - مملوء .
(٣) خضضن - حركن الماء ، تصوبت - انحدرت ، شطور المذارع - أنصاف
القوائم ؛ والمعنى حركن الماء ثم خضن فيه الى أن تغطت بالماء أنصاف القوائم منها .
(٤) أئباج - ظهور .
(٥) صوار - قطيع من البقر الوحشى ، خرجاء - نعام فيها سواد وبياض ،
مرثلة - لها رئال وهى أفرانخ النعام ، وخود - الوخد نوع من السير وهو اتساع
الخطو فى السير .

تقاصر مرة ، وتطول أخرى
تسف المرو أو قطع الهبيد (١)
وان نظرت الى شبح أمجت
كامجاج المعبدة ؛ الشرود (٢)

ولما كان صاحب ذاكرة واعية وعين لاقطة ، وقُدرة على
التأليف - رأى مشابه بين أشياء لا يرى فيها أنسان سوى ذى الرمة
أى تشابه أو التقاء ؛ فكان كل ما فى الحياة أرضها وسمائها ؛ من
مناظر جمعت فى وعاء أمام عينيه ؛ يختار منه ما يشاء لما يشاء
بل ان بعض الصور يفاجأ بها القارىء فيذهل ، من هذه الصور
الغريبة ، صورة الفجر وهو يسوق أمامه الثريا ، وهذه صورة
يمكن أن تكون عادية ولكن الشاعر يجعل الفجر يسوقها بملاءته
أو لافا اياها فى ملاءته البيضاء الشفافة فيقول : « وساق الثريا
فى ملاءته الفجر » «والخد الناعم كمرأة الغريبة» وخذ كمرأة الغريبة
اسجح « وأرض محبوبته عطرية الأنسام فكان العطر يخوض فى
برد أنفاسها فى الليل :

تطيب بها الأرواح حتى كأنما
يخوض الدجى فى برد أنفاسها العطر
والكلاب تنقض على الثور « أمثال الزنابير » وللثور جبهة ،
والليل حين ينصرم كرواق يتهدم :
حتى اذا الدجى مالأت أواخره
مثل الرواق ، ولاحت جبهة النور

ويشبهه عين الناقة وقد ارتسمت صورتها فى ماء الجدول
ميم ..

كأنما عينها منها وقد ضمرت
واحتشها السير فى بعض «الأضأ» ميم
والجندب يغرد فكان له طنورا يعزف عليه :

(١) تسف - تأكل ، المرو - الحجارة الصغيرة ، الهبيد - الحنظل المكسر .

(٢) أمجت - ابتعدت ، المعبدة - الجربى المعبدة عن بقية الأبل .

يضحي به الأرقش؛ الجون القرا غردا
كأنه زجل الأوتار - مخطوم (١)

وينكمش الثور من الخوف والبرد فيشبه العزب المتقبي
بقبائه « كأنه .. متقبي يلمق عزب » ولعمق نظرته في الحياة ،
وعمق انسانيته واتساعها يرى الكون شيئا واحدا فسيان عنده
أن يشبه المرأة بالظبية أو البقرة الوحشية أو يعكس فيشبهه
البقرة الوحشية أو الظبية بالمرأة ؛ من ذلك تشبيهه الرمل بأوراك
العذارى فيقول :

ورمل كأوراك العذارى قطعته
إذا جللته المظلمات الحنادس (٢)
وعمود الصبح جيد ولبة :

كان عمود الصبح جيد ولبة
وراء الدجى من حرة اللون حاسر
وللحب ورق أخضر يذبله الهجران » .
إذا الهجر أودى طوله ورق الهوى
من الالف لم يقطع هوى مية الهجر
والصحراء مثل كف المشتري غير أنها وأسعة :

ودو ككف المشتري غير أنه
بساط لأخفاف المراسيل واسع (٣)
والبقر والظباء ، كالنجوم أو ذبالات مضاعة :
بها العين والآرام فوضى كأنها
ذبال تذكى أو نجوم طوالع (٤)

(١) الجون - الأسود ، القرا - الظهير ، زجل الأوتار - طنبور ، مخطوم -
مشدودة عليه الأوتار .

(٢) الحنادس - الظلمات الشديدة .

(٣) دو - صحراء لها دوى من شدة ما فيها من صمت .

(٤) العين - البقر الوحشى المفرد عيناء ، الآرام - الظباء المفرد رئم ، فوضى

منتشرة ، تذكى - تشعل وتوقد .

والنجوم كالبقر والظباء :
وردت وأرداف النجوم كأنها
وراء السماكين المها واليعافر (١)

« ولقد أخذ عليه قوله يصف الكلاب ..
حتى إذا دومت في الأرض راجعه
كبير ، ولو شاء نجى نفسه الهرب

قالوا والتدويم انما هو في الجو ؛ يقال دوم الطائر في السماء
إذا حلق ، واستدار في طيرانه ؛ ودوى في الأرض إذا ذهب ..
لكن مثل ذى الرمة الذي تختلط في مخيلته المراتب ، وتشابهه ؛
وكثيرا ما تمثل الأرض سماء ، والبقر والظباء نجوما تسبح فيها
لا يقاس فنه بالمقاييس اللغوية الجامدة ، لقد تجلّى في مخيلته أن هذه
الكلاب وهي تلف وتصور طيور تحلق وتدور فعبر عن دورانها
والتفافها بفعل يستعمل عادة للتخليق في الفضاء والدوران فيها ..
ومن الصور الغريبة تصويره لقلوب الحائنين بأنها قد هوت في خوافي
أجنحة الطير ؛ وتصيره « بهوت » و « في خوافي » و « مطعومات
لوامع » كل ذلك خطوط وألوان تلتقى في رسم صورة الفزع ؛
فالقلب الحائف يهوى « ويختبئ في مكان خفي ؛ والمطعومات اللوامع
هي الطيور التي تطير بسرعة كالنسر والعقاب فأجنتها تهتز بسرعة
واستمرار ؛ ومن أغرب وأعجب الصور هذه الصورة التي يتحدث
فيها عن الناقة وهي تقطع المسافات واللحظات الزمنية يطلع عليها
نجم ثم يغيب فيطلع آخر وهكذا فيقول :

إذا اغتبت نجما ، فغار تسحرت
علاة نجم آخر الليل طالع

والغبوق هو شرب الخمر مساء وضده الصبوح ، فكأن النجم
اللامع كأس من الخمر تفتقب به الناقة في بده سيرها وتسحر

(١) السماكان - نجمان نيران (الاعزل والرامح) ، اليعافر - الظباء .

(٢) القمر والشعراء لابن قتيبة .

بآخر في آخر الليل ، لقد أخذ ذو الرمة ينشد إحدى قصائده التي يصور فيها رعوس رفقة السفر ؛ وهي تهتز وتنحنى من الاعياء والمام النوم بها فجعلها ظلعا أى عرجا والعرج عادة توصف به الأرجل لا الرعوس ، لهذا صاح به أعرابي قائلا : ما رأيت أحدا اطلع الرأس غيرك فقال ذو الرمة : نعم واستمر فى انشاده ١

إذا انجابت الظلماء أضحت رعوسها
عليهن من طول الكرى وهي طلع (١)

هذه صورة غير عادية صدرت عن شاعر غير عادى ؛ ومثل هذا الشاعر والشعر كثيرا ما يتنكر له زمنه الذى لم يعتد سماع مثل هذا الجديد الذى جاء به .

ان شاعرنا يتجنب دائما التعبير المباشر حتى كان بينهما عداء ، ويلجأ فى تعبيره الى الصور ، حتى اذا أراد ذكر الحيوانات فهو لا يذكرها بأسمائها ، وانما يذكرها بصفاتهما ويدعك أنت تستشف من الصفات معرفة نوع هذا الحيوان أو غيره من الموصوفات ؛ فحين يريد أن يصف الثور مثلا يفاجئك بهذه النقلة إليه :

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه
مسفع الخد، غاد، ناشط، شبيب (٢)

ومن المامك بهذه الصفات والتي تليها تدرك أنه يتحدث عن الثور الوحشى ؛ وكذلك يفعل حين يصف الحمار الوحشى فيقول :

وثب المسحج من عانات معقلة
كانه مستبان الشك أو جنب (٣)

(١) الأغاني ج ٢٦ والظلم - العرج .

(٢) نمش - منقط ، أكرعه - قوائمه (أرجله) ، مسفع الخد - أسود ، شبيب - شاب قوى .

(٣) المسحج - الحمار المعضض ، عانات معقلة - جماعات وقطعان الحمار الوحشية بهذا المكان ، مسفعان الشك - فيه عرج طفيف ، جنب - مريض بجنبه .

يحدو نحائص أشباها محملجة
 ورق السرايل ، فى ألوانها خطب (١)
 وتلتقى كلاب الصيد بالثور فى معركة ضارية ؛ فيرسم
 لك ملامح هذه الكلاب دون ذكرها فيقول :
 هاجت له جوع ، زرق ، مخصرة
 شواذب ، لاحها التفريث والجنب (٢)
 غضف ، مهرته الأشداق ، ضارية
 مثل السراحين ، فى أعناقها العذب (٣)
 ويلوح الصبح ، فيعبر عنه هكذا :
 ولاح أزهر مشهور بنقينه
 كأنه حين يعلو عاقرا لهب
 ولقد أدى به ذلك فيما بعد الى نظم أحجية شعرية ؛ أطلق
 عليها « أحجية العرب » ، يذكر فيها ملامح أشياء ثم يدعك تستنتج
 ما هى ، ومن أبياتها قوله :

وسقط كمين الديك عاورت صاحبي
 أباهـا وهىـأنا لموقعها وكراً (٤)
 مشهرة لا يمكن الفحل أمها
 اذا نحن لم نمسك بأطرافها قسرا (٥)
 أخوها أبوها ، والضوى لا يضرها
 وساق أبيها أمها اعتقرت عقرا (٦)

-
- (١) يحدو - يسوق أمامه ، نحائص - اتنا وحشية ، محملجة - شديدة
 ورق السرايل - وبرها كالرماد فى اللون ، خطب - خضرة تضرب الى السواد .
 (٢) مخصرة - كلاب ضامرة ، شواذب - يابسة ، لاحها - غيرها ، التفريث
 - العطش ، الجنب التصاق رثته من العطش .
 (٣) غضف - المفرد أغضف أى مائلة الأذان الى الألفية ، مهرته الأشداق -
 واسعة الأفواه ، السراحين - الذئاب ، العذب - سيور تشد فى أعناق الكلاب .
 (٤) سقط - أى النار ، أباهـا - الزند .
 (٥) الفحل - الزند ، أخوها أبوها - أخو الزند ، ساق أبيها أمها أى
 انهما من شجرة واحدة هى شجر المرخ .

والمراد بذلك « الزند » ، التي يقدح منها النار ؛ هــ
 الأحجية وغيرها عمل عقلي متكلف لا يلمس في القارىء وجدانه؛ ولا
 يهز مشاعره . وبالرغم من أن عددا كبيرا من صوره وتشبيهاته
 لا ترسم ملامح الموصوف من الداخل ، كما تعكس احساس الشاعر
 الا أن عددا غير قليل منها نستشف فيه روح الشاعر ونفسيته ؛
 من ذلك قصر الزمن مع حبيبته حين يغيب الغيور أبوها أو زوجها :

إذا غاب عنهن الغيور وأشرقت
 لنا الأرض في اليوم القصير المبارك
 تهللن واستأنسن حتى كأنما
 تهلل أبكار الغمام الضواحك

وأيام اللهو جميلة قصيرة كظل الكرم :
 فدع ذكر عيش قد مضى ليس راحها
 ودنيا كظل الكرم كنا نخوضها
 وهذه الصور المتألقة الباسمة تكشف عن نفس راضية ؛ وقلب
 مبتهج :

كان أدمانها ، والشمس جانحة
 ودع بأرجائها فض ، ومنظوم (١)
 يضحى به الأرقش الجون القرا غردا
 في لحنه عن لغات العرب تعجيم

لكنه حينما لا يتفعل يأتي ببعض الصور التي يتشابه فيها
 طرفا التشبيه تشابها خارجيا لا نفسيا من ذلك تشبيه الدموع
 « بفرائد خانتها سلوك النواظم » فحبات الدر المنفرطة الجميلة
 لا تشبه تلك الدموع الحزينة ؛ والبلاغيون وإن لم يكونوا اشترطوا
 المشابهة التامة الا أنهم جعلوا من شروط التشبيه البليغ أن يتشابه
 فيه الطرفان في أكثر صفاتهما وكشبيبه بيض النعام بجماجم
 انفلقت أو « حنظل خرب » وصغارها سنود « كأنها شامل أبشارها
 جرب » وقد يأتي بصور متتابعة متكلفة ، وذلك حين يريد أن يظهر

(١) ادمانها - طباؤها البيض ، فض ومنظوم - منثور ومنظوم .

براعته في التصوير . وأخيرا فإن مما يميز شاعرنا عن سائر شعراء عصره كجرير والفرزدق وأضرابهما هو تعبيره بالصورة . وبغضه الواضح للتعبير المباشر ، وتعليق جرير الذي علق به حين ذكر قوله :

ومنتزع من بين نسعيه جرة
نشيج الشجا جاءت الى ضرسه نزرا (١)

فقال : قاتل الله ذا الرمة حيث يقول : «ومنتزع من بين نسعيه جرة» أما والله لو قال من بين جنبيه لما كان عليه من سبيل ، هذا التعليق دليل على اختلاف ما بين الشاعرين ؛ فجرير يميل الى التعبير المباشر «من بين جنبيه» أما ذو الرمة فيهرب من التعبير المباشر الى التعبير المجازي «من بين نسعيه» والنسعان هما حبلا الحقب والتصدير اللذان يشد بهما القند الى البعير . ذلك لأن ذا الرمة لا يكتفى بالمعنى العام وإنما يغوص الى المعنى النفسى البعيد لينقله نقلا آمينا دقيقا ، فحين يريد أن يعبر عن الرياح الواهنة الضعيفة يعبر عنها هذا التعبير الدقيق الذي ما كان ليتأتى له التعبير عنه بغير الأسلوب المجازي فيقول : «حشاشات أنفاس الرياح الرواجف» والحشاشة البقية الباقية من النفس أو يقول :

بريح الخزامى هيبتها ؛ وخطبة
من الطل أنفاس الرياح اللواغب

فالرياح اللاعبة المنهكة ضعيفة الأنفاس ، وعن السهر ودبيبه في عظام رفقة السفر يقول مصورا له بالبقية من بقية كأس الكرى !
أخى قفرات دببت في عظامه

شفافات أعجاز الكرى وهو أخضع (٢)

(١) نسعيه - أى جبل الحقب وجبل التصدير ويكونان عادة على صدره وحقوقه قبل مؤخرته ، نشيج - تنفس ، الشجا - الضيق أو شيء فى الحلق ، نزرا - قليلة ، والمراد أنه أخرج اجترارته . من بين جبل التصدير والحقب فجاءت قليلة .

(٢) شفافات - بقايا ، أعجاز الكرى - أواخر النوم ، أخضع - منكس الرأس .

ولبعض الصور عنده ظلال تمتد على غير المشبه كقوله :
وفرد يطير البق عند خصيله

بذب كنفض الريح ذيل السراق (١)

هذا التصوير يتجاوز وصف ذيله الى وصف الثور نفسه وبيان
ضخامته .

رابعا - الموسيقى الداخلية فى شعره :

يقول بروكلمان «وهو كعادة الشعراء الجاهليين قد نظم شعره
من الأبحر الطويلة فيكثر عنده الطويل ؛ والكامل ؛ والبسيط ،
والوافر ولكنه يحسن مطابقة الحروف للمعاني ، فيصور ضرب رجل
الجنذب على الرمل بترديد الراء والضاد (٢) وهذه المطابقة هي التي
أطلقنا عليها الموسيقى الداخلية ، والتي تشمل ما أشار إليه
بروكلمان وما هو أوسع من ذلك فمن هذا . .

(أ) ترديده لأسماء الأصوات : كقوله :

تداعين باسم الشيب فى متثلم
جوانبه من بصرة وسلام (٣)

وقد سبقه الى ذلك الراعى فى قوله :

إذاما دعت شيبا بجنب عيزة
مشافرها فى ماء مزن ، وبافل

والشيب صوت يدعو الابل للشرب ، كما أنه تقليد لشربها
الماء ، ويقول « حتى إذا هأها به وأسدا » وهأها صوت لثته على
السير ، ويقول :

(١) خصيله - ذئبه .

(٢) تاريخ الادب العربى لبروكلمان ج ١ .

(٣) اسم الشيب - حكاية صوت مشافر الابل عند الشرب ، البصرة - الحجارة
البيضاء الرخوة ، سلام - حجارة واحدها سلمة ، متثلم - حوض فيه ثلم أى كسر .

إذا ما ارتمى لجياها يائين قطعت
نطاف المراح الضامات القوارح (١)

أى قال : يا .. يا .. «وفرخ النعام يصحو من النوم فينادى
أمه » بماء » بألف مماله :
ونادى به « ماء » إذا ثار ثورة

أصيح ، أعلى نقبة اللون ، أطرق (٢)

ومن أصوات زجر الابل : هيد ، هيد .. « إذا حدا هن بهيد ،
هيد » ويحكى صوت التثاؤب ، فالمسافرون إذا تشاءب أحدهم أعدى
بتثاؤبه الآخرين :

تعادوا « بيهيا » من مداركة السرى
على غائرات الطرف ، هدل المشافر (٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة فى الديوان :

(ب) اختيار ألفاظ ذات جرس خاص :

ومن ذلك أيضا اختياره للكلمات ذات الرنين والايقاع الذى
يوحى بمدلول الكلمة ، واللغة العربية غنية بمثل هذه الكلمات ،
والشاعر الفحل الملهم هو الذى يستفيد من امكانيات اللغة ،
ويستخرج أجمل وأروع ما فيها .. ومن هذه الكلمات الموحية
قوله : رضاض الحصا .. فتكرار الراء والضاد يوحى بارتطام
الحصا بعضه ببعض وقد دفعت به الريح ، وكلمة «نقنق» .. فى
قوله :

يخيل فى المرعى لهن بشخصه

مصعلك أعلى قلة الرأس ، نقنق (٤)

(١) نطاف - بول ، المراح - الابل المرحة النشيطة ، الضامات - الحاملات
القوارح - الظاهرات الحمل . والمعنى إذا ماحتها على السير بقوله : يا .. يا ..
قطعت الابل الحوامل النشيطة بولها وواصلت سيرها .

(٢) إذا ثار - قام من نومه ، أصيح - أحمر مع بياض وهو ولد الطيبة ،
النقبة - اللون ، أطرق - مسترخى اليدين من الضعف .

(٣) هدل - متدليات المشافر .

(٤) يخيل - يبدى شخصه لهن ، مصعلك - ظليم (ذكر النعام) صغير الرأس .

فالظلم ينقنق بصوته ، ولكلمة « حسييس » التى اذا مدت
أعطت صوتا ضعيفا واهنا كصوت سكون الصحراء فى قوله :
يها من حسييس القفر صوت كأنه

غناء أناسى بها وتنادى

وكذلك اختياره للكلمة « عزيز الجن » ولم يقل عزف لأن
حرف المد وهو الياء يوحى بالصوت فى قوله :
ورمل عزيز الجن فى عقداته

هدوءاً كتضراب المغنين بالطبل (١)

وقوله : تطنطنخ الغيم حتى ماله جوب ، يوحى بما فى الغيم
من أصوات للرعد والبرق وتجمع للسحب ، والتعبير « بارثعت
هوأضبه » يوحى بسقوط المطر على الصخر ، ويختار للتعبير عن الأبل
الطوال العالية كلمات طويلة أيضا فيقول :

هيهات خرقاء ، الا أن يقربها
ذو العرش ، والشعشعانات الهراجيب

ومن الكلمات الصوتية التى يستعملها : هينوم ، وهميم ،
وهزيز الريح ، وخضخضوا فى الماء .. وغير ذلك مما لا يهمننا
حصره ، وإنما يهمننا التعريف به كظاهرة من ظواهر الموسيقى
الداخلية عند شاعرنا ذى الرمة ..

(ج) وإذا كان يستغل إيقاع الكلمة المفردة فى الإيحاء بمعنى
ما يريد ، فإنه كذلك ودون إرادة واعية منه - يستغل الإمكانيات
الصوتية التى يحدثها تجاور بعض الكلمات ، وتكرار بعض حروف
معينة فى العبارة وذلك شائع فى شعره كثير ، فهو حين يرغب فى
تصوير صوت جناحى الجندب يكرر حرف الراء والضاد ليحدث هذا
الآثر فيقول : معروريا ، رمض الرضراض يركضه (٢) فلقد كرر الراء
ست مرات والضاد أربع مرات فى جملة واحدة .. وما أروع

(١) عقداته - رماله المنعقدة .

(٢) معروريا - يركبه عاريا ، رمض - الشديد الحرارة ، الرضراض - الحضا
المتحرك بهبوب الريح ، والمعنى أن الجندب يقف على الحضا الحار العارى يركضه
ويدفعه بجناحيه .

تصويره لأصوات الهيمنة التي تحيط بسالك الصحراء من كل جانب بقوله :

هنا ، وهنا ، ومن هنا لهن بها

ذات الشمائل والايمان هينوم (١)

أكاد أن أقول بأن ذا الرمة كان على وعي بما يفعل ، لولا أن استغلال أصوات حروف الكلمات في الإيحاء بالمعنى لم يهتد إليه بشكل عقلي واع إلا في عصر الرومانسية فعمد بعض الشعراء إلى نظم قصائد يكثر فيها حرف السين مثلا للأشعار بسقسقة العصفير في الروضة التي يصفها . . وذو الرمة يشبه ضمور الحمار الوحشي بعضا قسيس ، وبالرغم من أن المعنى لا يوحى بما يوحى به تكرار السين في قوله :

على أمر منقذ العفاء كأنه

عصا قس قوس لينها واعتدالها (٢)

الا أن ذكره للقس أحاطه بجو كنسي ، فكرر حرف «السين» تصويرا لرنين أجراس الكنيسة؛ ويبدو أن هناك تداعيا لفظيا كالتداعي المعنوي ، فحين يأتي بكلمة ذات أحرف معينة ، ونغمة معينة تستدعي تلك الكلمة مثيلاتها في الأحرف والإيقاع من ذلك قوله : عن كورها الكرى ، فلما قرعنا القاع ، وقوله : ولا مستجيرا من جريرة مجرم . . فالجيم والراء هما مدار هذه الكلمات الثلاث . كما يأتي بكلمات ممدودة متتالية ليوحى بضخامة الناقة وارتفاعها فيقول :

يتبعن شأو علنداة ، مذكرة

خطارة ؛ حرة احدى المماهير (٣)

فالكلمات : «علنداة ، خطارة ، مذكرة ، حرة ، احدى المماهير» كلها ممدودة أو مشددة والشدة تشبه حرف المد حيث أن حرفها الأول ساكن فيشبه الألف القصيرة . وقوله : «صفا رصف مجرى

(١) هينوم - هينة وصوت خفي .

(٢) منقذ العفاء - العفاء الوبر ، ومنقذ يعنى ساقط والمراد به الحمار الوحشي ،

قوس - منارة الراهب .

(٣) علنداة - شديدة - شأو - سير ، المماهير - الماهرات في السير .

سيول دوافع» يوحي بصفير الماء الجارى ، وصوت الريح الصادر من تكرار الميم فى قوله :

ترميهِ بالمر مهياف يمانية
هوجاء فيها لباقي الرطب تجريم (١)

(هـ) المقابلة والجناس :

وقد يقابل بين بعض الألفاظ والمعانى ليعمق الجو الموسيقى ،
ويزيد فى أبعاد ، وهذه المقابلة تتضح فيها العفوية كقوله فى هجاء
امرىء القيس :

كثير مخازيها ، قليل عديدها

وقوله عن ناقته :

يشل نجاؤها وتبوع بوعا

ظهور أماعز وبطون بيد (٢)

ومن الجناس أو ما يقرب أن يكون جناساً الاتيان بالكلمة
ومشتقها أو نظيرها كقوله :

مر أمرت متنه أسدية

يمانية حلت جنوب المضاجع (٣)

وقوله :

طوال الهوادى والحوادى كأنها

سماحيح قب طار عنها نسالها (٤)

والحوادى هى الأرجل :

(١) المور - التراب ، مهياف - ريح حارة ، الرطب - الكلا ، تجريم - أى

تجفف الريح مابقي من الرطب .

(٢) يشل نجاؤها - يطرد جريها ، تبوع بوعا - تبسط ذراعيها ، أماعز -

أرض صلبة .

(٣) يصف الحمار الوحشى بأنه ممر - أى مفتول مدمج الخلق ، أسدية -

سحابة بنوء الأسد ، جنوب المضاجع - نواحى هذا المكان . والمراد أن الذى جعله

قويا مفتول العضلات أكله لنبات شرب من ماء المطر الذى هطل بنواحى مضاجع .

(٤) الهوادى - الأعناق ، الحوادى - الأرجل ، سماحيح - طوال أى كأنها

حمر وحشية طوال الظهور ، قب - ضامرة ، طار عنها نسالها - سقط عنها شعر

ولادتها .

وقوله :

« فعرضت طلقا ، أعناقها فرقا »

وقوله :

« كأن الدبا ، ماء الفضا فيه يبصق » (١)

د - أنواع أخرى :

وأنواع الموسيقى الداخلية فى شعره لا تنحصر فيما ذكرناه ،
فمن مظاهرها هذا الترجيع الجميل فى قوله :

تذكر آلاف أتى الدهر دونها
وما الدهر والالاف الا كذلك

وقوله :

نضت فى السرى منها أظلا ومنسما

بزياء ، واستبقت أظلا ومنسما (٢)

والتكرار الذى يكشف عن حيرة عميقة فى قوله :

ألا لا أرى مثلى يحن من الهوى
ولا مثل هذا الشوق لا يتصرم (٣)

ولا مثل ما ألقى اذا الحى فارقوا

ولا أثر الأظعان يلقاه مسلم

كفى خزنا فى الصادر يامى أننى

واياك فى الأحياء لا نكلم

واختياره نوعا بعينه من الأفعال ليصدق فى التعبير عن الزمن
المعين وذلك كاختياره الفعل المضارع لاستحضاره الصورة والحركة
فى قوله عن النعمة التى أدركها الليل فخشيت على فراخها
من الغوائل :

(١) الدبا - صغار الجراد .

(٢) الأطل - باطن الخف ، والمنسم - طرف الخف ، زياء - أرض صلبة .

(٣) لا يتصرم - لا ينتهى ولا ينقطع .

- يرقد فى ظل عراض ، ويطرده
 حفيف نافجة ؛ عشونها حسب (١)
 تبرى له صلعة خرجاء خاضعة
 فالخرق دون بنات البيض منتهب (٢)
 لا يذخران من الايغال باقية
 حتى تكاد تفرى عنهما الأهب (٣)

خامسا :

ويمتاز بالايجاز والتركيز ..
 وعينان قال الله كونا فكانتا
 فعولين بالألأب ما تفعل الخمر
 أى كونا فعولين ، فكانتا فحذف كما يصر على تصغير الكلمة
 اذا أراد أن يتحدث عن فصيل الناقة أو طلا الظبية أو فرخ النعامة
 فيقول :

أعيس وأصيبح :

بها العائد العيناء يمشى وراءها
 أصيبح أعلى اللون ذو رمل طفل (٤)

ويلجأ الى التصغير للتعبير عن قصر الزمن :

أناة يطيب البيت من طيب نشرها
 بعيد الكرى ؛ زين له حين تصبح

ولديه جراءة على الاشتقاق ؛ واختيار الكلمات المناسبة ،

- (١ ، ٢ ، ٣) يرقد يسرع ، عراض - غيم كثير الرعد والبرد ، نافجة - صوت
 ريح شديدة باردة ، عشونها - أولها ، تبرى - تتعرض له فى الجرى أى تباريه ،
 صلعة - صغيرة الرأس أى النعامة ، خرجاء - فيها سواد وبياض ، الخرق -
 الصحراء ، دون بنات البيض - أمام الفراخ ، الأهب - الجلود .
 (٤) العائد - بقرة حديثة الولادة ، العيناء - الواسعة العينين ، أصيبح -
 ولدها الأشقر ، رمل - نقط ، طفل - ناعم .

فيشتق من الفجر أفجر ومن البحر مبحور ، ومن الخريف مخرف
فيقول :

ولا مخرف فرد بأعلى صريمة

تصدى لأحوى مدمع العين، عاطف (١)

ويقصد بالمخرف ظيبيا ولد في الخريف : ومن « السيف »
يشتق كلمة مساييف فيقول : كصفح اليماني في يمين المساييف
ومن الظهر أظهر « بعد الضحى وأظهر المظهر » ومن الفجر
أفجر :

فما أفجرت حتى أهب بسدفة

علاجيم عين « ابني صباح » تثيرها (٢)

ومن الغيم « تغام وتطلق » ومن الطحلب : عيننا مطحلبة
الأرجاء طامية فيها الضفادع والحيثان تصطخب ، وقد عيب عليه
اصطخاب الحيثان ، والصواب ما قال فاصطخابها هو حركتها
التي تحدثها بالقفز في الماء .

كما أن له قاموسه الشعري ، وبعض الكلمات التي تعتبر
من لازماته وأغلب كلماته أو الكثير منها لا الأغلب يشتق من الناقة
فشعره كهدر الابل « أحين ملأت الأرض هدرا » وللأرض سنام :

« منعنا سنام الأرض » . وتكثر كلمة الأنف في شعره ، وإن
حبا من أنف رمل منخر و « أطافت به أنف النهار » وللجبل أنف ،
يممت خطمه « والريح تمرى السحاب فيمطر كما يمرى الحالب
ضرع الناقة فيدر :

إذا ما استدرته الصبا وتذاءبت

يمانية تمرى الذهاب المنائح (٣)

« واستدر من الدر وهو « اللبن » كما يكثر من استعماله
لكلمة « أنباج » وقد استعملها غيره كالراعي النميري

(١) مخرف - ظبية ولدت في الخريف ، صريمة - قطعة من الرمل ، أحوى

مدمع العين - اسود العين وهو ولدها ، عاطف - لاوى عنقه أى قائم .

(٢) علاجيم - ضفادع ، سدفة - ظلمة .

(٣) الذهاب - السحاب ، المنائح - المطر .

لكنه كلف بها فأكثر من استعمالها من ذلك : « بجرع كأنباج القطا
ممتابع » وللرمل أنباج ، والشبح هو وسط الشيء .
حتى اذا جعلته بين اطهرها

من عجمة الرمل أنباج لها حبيب
ومتون الابل كأنها « اذا أبرقت أنباج أحصنة شقر » ومن
الكلمات التي يولع بها كلمة ماتت « فالشهب تموت » لأن شجر
الأرطى يصد حرارة الصيف ؛ ويحجب أشعة الشمس اللاهبة :
ربلا وأرطى نفت عنه ذوائبه

كواكب القيظ حتى ماتت الشهب (١)
والصحراء : « ماتت فوقها كل هبوة »

سادسا : ومن مميزات أسلوبه التضمين . والأقواء والسناد :
وقد كان القدامى وعدد كبير من المعاصرين يعتبرون هذه عيوباً يحذر
الشعراء من الوقوع فيها ذلك لأن القدامى كانوا يعتمدون على وحدة
البيت في الحفظ والاستشهاد فيريدون له أن يكون مستقلامكتفياً
بذاته ليتحقق لهم ذلك أما وحدة الفكرة أو القصيدة كما يراها
المعاصرون فلم تكن تخطر لهم على بال ، وشاعرنا ذو الرمة صاحب
الفطرة السليمة ، توجهه فطرته وتقوده الى وحدة الفكرة لا وحدة
البيت فتأتي أبيات كثيرة في شعره يرتبط بعضها ببعض ، وفي
القصيدة الواحدة نجد أن الفعل في بيت والفاعل في آخر :

أنخنا بها خوفاً يرى النص بدنّها
وألصق منها باقيات العرائك (٢)
تذكر آلاف أتى الدهر دونها

وما الدهر والآلاف الا كذلك
وجواب الشرط في بيت وأداة الشرط في آخر :
اذا غاب عنهن الغيور وأشرقت
لنا الأرض في اليوم القصير المبارك

(١) ربلا ، نبات كثير أخضر ، كواكب القيظ - شدة حرارته .

(٢) خوفاً - غائرات الأعين ، يرى - أكل وانتقص ، النص - مواصلة السير ،

بدنّها - دهنها وشحمها ، العرائك - الاسنمة .

تهللن واستأنسن حتى كأنما
تهلل أبكار الغمام الضواحك

وكان وخبرها فى بيت واسمها فى الذى بعده :

كان على فيها اذا رد روحها

الى الرأس روح العاشق المتهالك (١)

خزأى اللوى هبت له الريح بعدما

علا نورها مع الثرى المتدارك (٢)

ويربط ما بين هذين البيتين بحرف العطف لأنهما يكونان
فكرة واحدة فيقول :

ولما تلاقينا جرت من عيوننا

دموع كففنا ماءها بالأصابع

ونلنا سقاطا من حديث كأنه

جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع (٣)

ويأتى بالفعل تقول فى بيت والمقول والمقول له قى آخر :

تقول التى أمست خلولا رجالها

يغيرون فوق الملجمات العوالك (٤)

لماراتها أفنى اللصوص ابن منذر

فلا ضير ألا تغلقى باب دارك

ولا تخلو قصيدة من قصائده من هذا التضمين الذى هو
من محاسن الشعر الحديث :

أما الاقواء أو السناد : فهو لا شك عيب ، ولكن لا يعتبر
مأخذا الا على الدارس أما شاعر الفطرة فمهما حاول تجنبه فلا
يستطيع ؛ ولقد كان ذلك من سقطات شاعر كبير كالنابغة وبيته

(١ ، ٢) رد روحها الى الرأس - قبلها قبلة حارة ، خزأى - زهر طيب

الرائحة ، مع الثرى - المراد به الماء .

(٣) الوقائع - جمع وقعة : أرض صلبة تمسك الماء .

(٤) خلولا - تركها رجالها ذاهبين الى الحرب .

الذى جاء فيه « وبذاك خبرنا الغراب الأسود » مشهور ؛ وروى أنه قال دخلت المدينة وفي شعري السناد وخرجت منها وأنا لا أساند وذو الرمة يصارحنا بأن هذا السناد كثيرا ما يؤرقه ليخلص شعره منه :

وشعر قد أرقى له غريب
أجنبه المساند والمحالا

وإذا كنا نعرض نماذج لهذا العيب الذى هو من مستلزمات الفطرة قبل صقلها بالدرس والتعليم فنحن لا نعهده عيبا خطيرا فى شعره وإنما هو شيء شكلي عارض لا يفض من قيمة شعره الفنية ويفرق « ثعلب » فى قواعد الشعر بين السناد والاقواء (١) فالاقواء اختلاف حركة حرف الروى فى الكسر أو النصب أو الضم ؛ والسناد هو اختلاف حركة الحرف الذى قبل الروى عند ثعلب ، وعند غيره اختلاف ما يراعى قبل الروى من الحروف والحركات ، ومن أمثلة النوع الثانى عند ذى الرمة قوله :

أما استحلبت عيناك إلا محلة
بجمهور حزوى أو بجرعاء مالك

ثم يقول بعد أبيات منها :

إذا غاب عنهن الغيور ؛ وأشرقت
لنا الأرض فى اليوم القصير المبارك

فما قبل الحرف الأخير مفتوح بينما هو فى سائر أبيات القصيدة مكسور ؛ ومن النوع الأول مما تصادفه أحيانا - قوله :

خليلى عوجا عوجة ناقتيكما
عسى الربع بالجرعاء أن يتكلما
دعائى الهوى من حب مية والهوى
إذا غالب منى الفؤاد المتيما

(١) قواعد الشعر لثعلب تحقيق د. خفاجى .

فرب بلاد قد قطعت لوصلكم
على ضامر منها السنام المحطما
ومن الواضح أن الضبط هكذا (على ضامر منها السنام المحطم)
وكذلك يفعل في قصيدته :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة
ماء الصبابة من عينيك مسجوم (١)

فيقول بعد أبيات :

قد يترك الأرحبى الوهم أركبها
كأن غاربه يافوخ مأموم (٢)

وأخيرا من الظواهر التي كان يكثر منها في شعره وصفه
للموصوف بالجملة أولا ثم المفرد بعد ذلك ، وبالرغم من أن أحدا
من النحاة الذين وقعت يدى على مؤلفاتهم لم يشر لهذا النوع من
النعوت ، وهل يجوز تقديم النعت بالجملة على المفرد أم لا ، إلا أن
احساسى الخاص يضيق بهذا ؛ بل يوقع القارئ صنيعة هذا في
نوع من الاضطراب وربما كان سببه القافية ، لأن النعت بالمفرد
يأتى قافية للبيت ؛ فيلزم ضرورة أن يتقدم عليه النعت بالجملة
ومن أمثله في شعره قوله :

كانها ابل ينجو بها نفر
من آخرين أغاروا غارة - جلب

فجلب صفة لابل أى ابل مجلوبة ينجو بها نفر من آخرين
أغاروا غارة عليهم ؛ ومثل ذلك وصفه للحرباء :

كأن يدى حربائها متشمسا
يدا مذنب ، يستغفر الله ، قائب

(١) أعن أصلها أن - قلبت الهزة عينا في لغة بعض القبائل .

(٢) أرحبى - ابل رجة الذراع أو منسوبة الى فعل اسمه أرحب ، الوهم
الضخم ، يافوخ - مؤخر الراس . مأموم - مشجوج .

وأصل التركيب يدا مذنب تائب، يستغفر الله ؛ ومنه أيضا :
وقد لاح للسرائى سهيل كأنه
قريع هجان عارض الشول جافر (١)

أى قريع هجان جافر عارض الشول ، وقد يحشو بعض
الكلمات - وهذا قليل فى شعره - التى تعتبر زائدة ليستقيم له
الوزن ؛ رغم ما عرف عنه من معاودته لصقل أبياته وتغيير مالا يراه
فيها مناسبا حتى شكا بعض الرواة من فعله هذا قائلا : أفسدت
على شعرك ، وذلك أن ذا الرمة كان اذا استضعف الحرف أبدل
مكانه (٢) . فمن حشوه لبعض الكلمات الزائدة قوله : كسا
الواكف القادى لها ورقا نظرا « فكلمة » لها « زائدة لاقامة الوزن
حيث لم يتأت له أن يقول : « كساها » وكذلك قوله :

« لمياء فى شفيتها حوة لعس » « فالحوة » والعس بمعنى واحد
هو سواد الشفة والعرب تحب ذلك لدلالته على الصحة واكتناز
الشفيتين وان كان (٣) « نصيب » ينصح الكميت بأن يصنع
صنيع ذى الرمة فى قوله :

لمياء فى شفيتها حوة لعس
وفى اللثات وفى أنيابها شنب

وذلك حين أنشده قوله :

وقد رأينا بها حورا منعمة
بيضا تكامل فيها الدل والشنب

ومن الحشو أيضا قوله :

يذكرنى ميا من الطبى عينه
مرارا وفاها الاقحوان المنور

(١) قريع هجان - فحل ابيض ، الشول - الابل اللواقح ، عارض - لم
يتبعها ، جافر - ممتنع عن الضراب (اللقاح) .
(٢) الموشح للمرزابانى .
(٣) الكامل للمبرد ج ١ .

فمرارا هنا زائدة لا مكان لها فى البيت ، وانما جىء بها فقط
لإقامة الوزن .

هذه هى بعض خصائص أسلوب ذى الرمة ؛ كما استطعنا
أن نستخلصها من شعره ولعل باحثا آخر فى المستقبل يجذبه
شعره فيتوصل الى ما لم نتوصل اليه من هذه الخصائص ، ذلك
لأن ذا الرمة شاعر يضم بين جنبيه الكثير من غرائب أسرار الفن
التي تحتاج الى بحث دائب ؛ وتذوق خاص حتى يتوصل دارسه الى
استكناه أسرارهِ ؛ فهو فى الشعر صاحب أسلوب منفرد ، متمرد على
ما ألزم نفسه به من السير على خط الاوائل ؛ والنسج على منوالهم
فى بناء القصيدة العربية المتوارث ، فبالرغم من أنه قد سلك
مسلكهم ؛ ونظم فى أغراضهم الا أنه بنسجه الخاص للمادة ، التي
صاغ منها قصائده استطاع أن يفلت من قبضتهم ويحطم قيودهم ،
ويجعل لنفسه أسلوبا شعريا خاصا ربما لم ينجح شاعر - ممن أتوا
بعده وحاولوا تقليده - أن يقتفى أثره فيه ، لأنه صادر عن عبقرية
شاذة ؛ وتكوين مزاجى خاص لا يتوفر لكل شاعر .

الباب السادس

منزله الشرعية

منزلته الشعرية :

كثيرا ما تكون الظروف السياسية ؛ أو مفهومات النقاد الخاطئة عن الفن فى عصر ما سببا فى الاشادة ببعض الفنانين ، وابرارهم فى دائرة الضوء ، فى حين تحجب غيرهم وتدعه فى الظل بعيدا عن أعين الناس ؛ وأسماعهم ؛ هذا ما حدث فى العصر الأموى مع أكثر من شاعر تنكر لهم عصرهم ، وقدم عليهم من هم أدنى منهم . . . موهبة ؛ ومقدرة فنية ؛ وليس ذلك بغريب فى كل زمان ، ومكان فشكسبير الشاعر الانجليزى المشهور عاش مجهولا أو شبه مجهول ، ولا يزال الباحثون يناقشون قضية وجوده كإنسان حقيقى ؛ وجد يوما ؛ وكان يحمل هذا الاسم . . . ولم يهتد الى موهبته الفنية الخارقة الا بعد مرور أعوام على وفاته .

والعامل السياسى الذى أشرنا اليه ، وربما كان له أثر فى التأخر بشاعرنا ذى الرمة عن مرتبة الفحول فى عصره ، هو تشجيع خلفاء بنى أمية للشعراء الذين يقفون فى صفوفهم والذين يكيلون لهم آيات المديح والثناء ؛ وينافحون عنهم أعداءهم ؛ لهذا أقبل هؤلاء الخلفاء على الأخطل ، وكان عبد الملك يدعه يدخل عليه والخمر تفوح من احبته ، وقد علق صليبا ذهبيا فى عنقه ، فى دولة كانت تجلد شارب الخمر اذا شرب كأسا واحدة ، وتلزم أهل الذمة يدفع اتاوات باهظة ، وذو الرمة شاعر يعتز بقومه بنى تميم ويرى أنه ليس أدنى شأننا من أى خليفة أو أمير ؛ فلم يتنذل نفسه على أبوابهم ؛ وان كان حاول ذلك فى استحياء واباء وهذا ما جعل

«الأمويين يضيّقون بالفزدق أيضا لكثرة مباحاته بقومه ، ويقدمون عليه جريرا حيناً ونصيباً حيناً آخر : والنقاد قد تأثروا أيضا بهذا الجو السياسي في الأدب فجعلوا للشعر أركانا أربعة : مدح رافع ، أو هجاء واضح ، أو تشبيه مصيب أو فخر سامق ، وهذا كله - كما يقول البطّين - مجموع في الفزدق ؛ وجرير والاختل ؛ أما ذو الرمة فهو يحسن التشبيه ، فهو ربع شاعر (١) « وجرير الذي ذكرنا فيما سبق أنه كان يحسد ذا الرمة كما كان يحسده الفزدق أيضا وبذلك حدثنا راويته صالح بن سليمان يقول عن شعره حين سأله المهاجر أمير اليمامة عن رأيه فيه « نقط عروس وأبعاد طباء » ، ومع هذا فقد قدر من التشبيه على ما لم يقدر عليه غيره . . . ويقول الأصمعي « ان شعر ذي الرمة خلّو أول ما تسمعه ، فاذا كثر انشاده ضعف ، ولم يكن له حسن » وقال جرير : لو خرس ذو الرمة بعد :

ما بال عينك منها الماء ينسكب

كأنه من كلي مفرية سرب

لكان أشعر الناس . . واتهمه الأصمعي كما اتهم الكميت « بأنهما يستكرهان الشعر وان كان ذو الرمة أحسن حالا عند الأصمعي من الكميت . . » وقال أبو عبيدة : كان ذو الرمة اذا أخذ في النسب ، ونعت فهو مثل جرير وليس وراء ذلك شيء فقيل له ما يشبه شعره الا بوجوه ليست لها أقفاء ، وصدور ليست لها أعجاز قال : كذا هو . . « وعيب ذو الرمة لأنه وصف عين ناقته بالميم ، فقيل : لولا أنه يكتب لما عرف الميم (٢) » .

وينقل صاحب الأغاني عن الأصمعي (٣) أنه قال : ما أعلم أحدا من العشاق الحضريين وغيرهم شكّا حبا أحسن من شكوى ذي الرمة ، مع عفة وعقل رصين ، كما ينقل عن أبي عبيدة أيضا

(٢٠١) الموشع للمرزباني .

(٣) الأغاني ج ١٦ .

قوله : ذو الرمة يخبر فيحسن الخبر ثم يرد على نفسه الحجة من صاحب فيحسن الرد ثم يعتذر فيحسن التخلص مع حسن انصاف؛ وعفاف في الحكم ٠٠ « ويسأل الوليد بن عبد الملك كلا من الفرزدق وجرير على انفراد عن ذي الرمة ، فكلاهما يقول : أخذ من طريف الشعر وحسنه ما لم يسبقه اليه غيره فقال الخليفة : أشهد لاتفاقكما فيه أنه أشعر منكما جميعا (١) ٠٠ »

لقد سقت هذه الآراء التي يبدو فيها التضارب أحيانا على لسان الشخص الواحد كما هو واضح في كلام جرير والأصمعي وأبي عبيدة - لا ثبت أن هذه الآراء ليست سوى مجرد نظرات جزئية عابرة تختلف باختلاف الحالة النفسية التي عليها الناقد أو الشاعر وعلنا نخرج من آراء هؤلاء المخالفين بأنهم قد اعترفوا بقدرته على التشبيه ؛ وتفوقه في النسيب ؛ وبأنه أخذ من طريف الشعر وحسنه الى ما لم يسبقه اليه غيره ، كما تؤيد أبا عبيدة فيما قاله : من أن بعض قصائده لا كلها تشبه وجوها ليست لها أقفاء ، وصلورا ليست لها أعجاز ؛ تلك القصائد في رأينا هي القصائد المفتوحة التي لم يتمها ذو الرمة ؛ وانما كان يضيف اليها ويزيد فيها ٠٠ قال حماد الراوية « ما تم ذو الرمة قصيدته التي يقول فيها : « ما بال عينك منها الماء ينسكب » حتى مات ، وكان يزيد فيها منذ قالها الى أن توفي ، ومن الواضح أن نقاد ذلك العصر كانوا متأثرين دائما بالمفهوم الخاطيء عن الفنان أو الشاعر الفحل هذا المفهوم الذي حدد البطيّن أركانه ؛ ولأن ذا الرمة لسبب أو لآخر لم ينصرف للمديح والهجاء رغم قدرته الخارقة؛ على الاجادة فيهما - جعله ابن سلام الجمحي في الطبقة الثانية مع البيهتي ، وكثير والقطامي ، ولم يجعله في طبقة جرير والأخطل والفرزدق ، ولا اعتقد أننا في حاجة الى أن نكرر ما قلناه من أن ذا الرمة يتفوق على أولئك جميعا ؛ الذين أسعوا الى الشعر بالانحدار به الى حضيض المهارات الشخصية ، والاستجداء الدليل .

وإذا كنا قد سقنا آراء المعارضين أو المنكرين ؛ فاننا نسوق

هنا أيضا ٠٠ آراء المؤيدين ؛ كما نسوق آراء بعض الشعراء أنفسهم : قال حماد الراوية : قدم علينا ذو الرمة الكوفة فلم أر أفصح ولا أعلم بغريب منه ، وعن أبي عمرو بن العلاء : ختم الشعر بذى الرمة ؛ والرجز برؤية ؛ فسأله أحدهم : فما تقول فى هؤلاء ؟ الذين يقولون قال : كل على غيرهم ، أن قالوا حسنا فقد سبقوا اليه وإن قالوا قبيحا فمن عندهم ؛ وعن حماد : أحسن الجاهلية تشبيها امرؤ القيس .

وذو الرمة أحسن أهل الاسلام تشبيها ٠٠ « وأنشد الصيقل شعره فاستحسنه ؛ وقال : ماله قاتله الله ما كان الا ربيعة ؛ هلا عاش قليلا » .

وعن محمد بن سلام : كان لذى الرمة حظ فى حسن التشبيه لم يكن لأحد من الاسلاميين ٠٠ « وقيل لبلال بن جرير أى شعر ذى الرمة أجود فقال : هل جبل خرقاء بعد اليوم ملموم - انها مدينة الشعر » وقال جرير : ما أحببت أن ينسب الى من شعر ذى الرمة الا قوله : « ما بل عينك منها الماء ينسكب » فان شيطانه كان له فيها ناصحا . وقال الكميت حين سمع قول ذى الرمة :

أعاذل قد أكثرت من قول قائل

وعيب على ذى الود لوم العواذل

هذا والله ملهم ، وما علم بدوى بدقائق الفطنة ، وذخائر كنز العقل ، المعد لذوى الألباب ، أحسن ثم أحسن ، وعن ابن كناسة أن الكميت لما أنشد قول ذى الرمة :

دعاني ، وماداعى الهوى من بلادها

إذا ما نأت خرقاء عنى بغافل

قال : لله بلاد هذا الغلام ، ما أحسن قوله ، وما أجود وصفه ، ولقد شفع البيت الأول بمثله فى جودة الفهم ، والفطنة ، وقال حماد الراوية : « ما آخر القوم ذكره الا لحدائة سنه وأنهم حسدوه » نعم انهم حسدوه ، بل ان هؤلاء الحساد هم الذين كانوا يبعثون بصبيانهم ، وأتباعهم ليتعقبوه ، ويسألوه ، مستغلين عدم معرفته لتلك العلوم التى يتدارسونها فى حلقات مربد البصرة أو كناسة الكوفة ،

فالفرزدق الشاعر الجهير الذي تتحدث بشعره الركبان ، يقول لدى
الرمة : الذي جاء يطلب منه الرأي والنصيحة :

قصر بك عن اللحاق بالفحول ، ذكر الأبعاد ، وبكاؤك الديار ثم
ينشد ساخرا :

ودوية لو ذو الرميمة أمها
لقصر عنها ذو الرميم وصيده

قطعت الى معروفها منكراتها
إذا اشتد آل الأمعر المتوضح (١)

ويغريه بالاشتباك مع هشام المرثي في الهجاء ليصرفه عن هذا
اللون الجديد من الشعر الذي طرّفه ، فلقد مر عليه يوما وهو
ينشد :

وقفت على ربع لمية ناقتي
فمازلت أبكي عنده وأسائله

فقال له : ألهاك البكاء في الديار والعبد يرتجز بك في المقابر
يعنى هشام المرثي ، ويعين جرير كلا من هشام وذو الرمة بشعر
هجائي ضد الآخر ليصعد بينهما حرب الهجاء ، فإذا أضفنا ذلك الى
ما قاله راويته صالح بن سليمان من أن جريرا والفرزدق كانا
يحسدانه ، خرجنا بنتيجة شبه مؤكدة ، وهي أن هؤلاء الذين كانوا
ينتقدون شعره ويقاطعونهم أثناء القائه مدفوعون الى ذلك بأيدي
غيرهم ؛ من هؤلاء هذا الخياط الذي سمعه ينشد في المربد والناس
مجتمعون اليه فصاح يا غيلان :

ألسنت الذي تستنطق الدار واقفا
من الجهل هل كانت بكن حلول

فقام ذو الرمة ، وفكر زمانا ثم عاد فقعده في المربد ينشد فإذا
الخياط قد وقف عليه ثم قال له :

(١) منكراتها - جهاتها غير المعروفة ، آل - سراپ ، الأمعر - أرض صلبة .

أأنت الذى شبهت عنزا بقفرة
لها ذنب فوق أسستها أم سالم
فذهب ذو الرمة ، ولم ينشد بعدها فى المربد حتى مات
الحياط . . ولا يعنينا كثيرا ما علق به صاحب الأغاني : من أن
ذا الرمة انتبه بعد ذلك فقال :

أرى فيك يا خرقاء من ظبية الحمى
مشابه ، جنبت اعتلاق الحبائل
فعيناك عينها وجيدك جيدها
ولونك ، لولا أنه غير عاطل

وقال حماد الراوية قدم علينا ذو الرمة الكوفة : فلم
نر أحسن ، ولا أفصح ، ولا أعلم بغريب منه ، فغم ذلك كثيرا أهل
المدينة فصنعوا له أبياتا جاء فيها :

رأى جملا يوما ؛ ولم يك قبلها
من الدهر يوما كيف خلق الأباغر (١)

فقال : شظايا مع طبائى ، أليا
وأجفل أجفال الظليم المبازر

فقلت له : لاذهل ملكم بعدما
ملاينفق التبان فيه بعاذر

فقال : ما أحسب هذا من كلام العرب ، ووقف ينشد قصيدته
الحائية بالكوفة الى أن قال :

إذا غير النأى المحبين لم يكد
رسيس الهوى من حب مية يبرح

(١) هذه الأبيات لامعنى لها وقد صيغت فقط للسخرية من ذى الرمة الذى
يكثر من الغريب .

فناداه ابن شبرمة : يا غيلان ، أراه قد برح ، فشنى ناقته ،
 وجعل يتأخر بها ويفكر ثم قال : لم أجد قال الراوى : أخطأ ابن
 شبرمة : فان هذا مثل قول الله عز وجل : « ظلمات بعضها فوق
 بعض اذا أخرج يده لم يكده يراها » . . . « ومعناه لم يرها ، ولم يكده
 . . . » وقال رجل للأصمعي : رأيت ذا الرمة بمربد البصرة وعليه
 جماعة مجتمعة ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو
 ينشد ودموعه تجري على لحيته ، « ما بال عينك منها الماء ينسكب »
 فلما انتهى الى قوله :

تصغى إذا شدها بالكور جانحة

حتى اذا استوى فى غرزها تثب

قلت يا أخا بنى تميم ما هكذا قال عمك ، قال أى أعمامى
 يرحمك الله ، قلت الراعى قال : وما قال ؟ قلت قوله :

لا تعجل المرء قبل البرو
 ك . . . وهى بروكته أبصر

وهى اذا قام فى غرزها
 كمثل السفينة اذ توقر (١)

ومصغية خدها للزما
 م . فالرأس منها له أصعر (٢)

حتى اذا ما استوى طبقت
 كما طبق المسحل الأغبر (٣)

قال : فارتج عليه ساعة ثم قال : انه نعت ناقه ملك ، ونعت
 ناقه سوقة ، فخرج منها على رهوس الناس ؛ « وعن عنيسة النحوى :
 أنه قال : سمعت ذا الرمة ينشد :

(١) توقر - تملأ بالبضائع وغيرها .

(٢) أصعر - مائل نحوه .

(٣) طبقت - سارت واضعة رجلها فى موضع يدها ، المسحل - الحمار

الوحشى

وعينان قال الله كونا ، فكانتا
فعولين بالألباب ، ماتفصل الخمس

فقلت له : هلا قلت : « فعولان » فقال : لو قلت سبحان
الله والحمد لله ولا اله الا الله ، والله أكبر كان خيرا لك « أى أنك
أردت القدر » وأراد ذو الرمة كونا فعولين . وأراد عنبسة :
« وعينان فعولان » (١) وقد رأينا أن بعض الشعراء حاول أن يصرف عنه
قلب الوالى الذى يحبه ويقربه « بلال بن أبى بردة ، فقال له : لم
تعطيه وهو يعمد الى مقطعاتنا فيضمها ، ويمدحك بها ٠٠ » ؟ لهذا اضطر
شاعرنا الانطوائى الرقيق الذى ينشد شعره ، ويبيكى - الى الدفاع
عن شعره بالفخر به حيناً ، وتهديد من ينال من شعره بالهجاء ،
كما فعل مع أبى عمرو بن العلاء ، بل هجا واليا هو الحكم بن عوانة
الوائى على فارس وخراسان ٠٠ لقد آلم هؤلاء الحاقدين أن يروا
نجمه الشعرى فى صعود دائماً فترصدوه ، أو دفعوا بمن يترصدده ؛
وان شاعرا شابا مثله : يفضلوه الوليد بن عبد الملك على الفرزدق
وجرير ، ويتعصب له أهل البادية الذين تضرب اليهم أكباد الابل
بخنا عن كلمة فصيحة أو بيت شعرى ؛ ويسمع أعرابى شعره وهو
ينشده راويته صالح بن سليمان فيقول له : أشهد أنك فقيه تحسن
ما تقرأ « فيظنه قرأنا ؛ ان شاعرا مثل هذا حرى بأن يحقق عليه ؛
وتدبر له المكائد من الكبار والصغار معا « لقد كان ذو الرمة صريحا
واضحا فى الحديث عن شعره اذ قال : من شعرى ما طواعنى فيه
القول وساعدنى كغولى : « خليلي عوجا من صدور الرواحل » ، ومنه
ما أجهدت فيه نفسى وهو : « أأن توسمت من خرقاء منزلة » ،
ومنه ما جنتت به جنونا وهو : « ما بال عينك منها الدمع ينسكب » .
ولقد كان لذى الرمة أكثر من راوية يرددون شعره فكان منهم
صالح بن سليمان ، وعصمة بن مالك ، وذكوان وغيرهم كما شهد
بعض معاصريه من الشعراء : فلقد روى أبو العباس فى الكامل :
أن الكميت بن زيد أنشد نصيبا فاستمع له ، فكان فيما أنشده :

(١) هذه رواية الأغاني التى صححناها فيما سبق كما جاء فى الديوان .

وقد رأينا بها حورا منعمة

بيضا تكامل فيها الدل والشنب

فثنى نصيب خنصره فقال له الكميث ما تصنع ، قال أحصى
أخطاءك . . ، تباعدت فى قولك ، « تكامل فيها الدل والشنب » :
هلا قلت كما قال ذو الرمة : « لمياء فى شفتيها حوة لعس » البيت . .
ولقد عرض الكميث بن زيد هذا قصيدته : « طربت وما شوقا
الى البيض أطرب » على ذى الرمة ، قائلا : « لماذا لا اجيد الوصف
مثلك ، فقال له ذو الرمة : لأنك تصف ما تسمع ، وأصف أنا ما
أرى . . لقد امتد أثر ذى الرمة الى الأجيال التى بعده فلقد حفظ
شعره كله فى صباه هارون الرشيد ، كما كان الهادى يعجب
بشعره فعمل له ابراهيم الموصلى الألحان الماخورية (١) وقال غنيت
بها الهادى فاستحسنها ؛ وكاد يطير بها فرحا ؛ وأمر لى لكل صوت
بألف دينار ، منها : « ألا يا سلمى يا دارمى على البلى » « ومنزلتى مى
سلام عليكما » وغيرها كما تأثر به الى حد كبير ابن المعتز الشاعر
وحاول أن يفتن فى التشبيه مثله : ولكنه لم يصل الى مكانته وان
كان اتكا على صوره ، وتأثر بتشبيهاته قال أبو اسحاق الحصرى (٢)
وكان أبو العباس عبد الله بن المعتز فى المنصب العالى من الشعر
والنثر ، وفى النهاية فى اشراق ديباجة البيان ، والغاية من رقة
حاشية اللسان . . »

ثم يقول : « وليس بعد ذى الرمة أكثر افتنانا ؛ وأكبر تصرفا
واحسانا فى التشبيه منه . . » واجتمع بعض الأدباء والشعراء
عند ابن المعتز فأخذوا فى تذاكر الشعر وتفضيل بعض الأبيات
التي تدور حول معنى واحد على بعض الى أن قال أحدهم ، بل
الأحسن قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى

وساق الثريا فى ملاءته الفجر

(١) الاغانى ج ١٦ .

(٢) زهر الاداب ج ١ ص ٢١٩ .

فقال أبو العباس عبد الله بن المعتز : هذا لعمرى نهاية
 الحبرة ، وذو الرمة أبدع الناس استعارة ، وأبرعهم عبارة (١) وفي
 رسالة للقاضي الفاضل أرسل بها الى والد ابن سناء الملك (٢)
 يقول : « وما تغصصت الا بغيبة ابن المعتز عن أن يسمع كما نسمع ؛
 فيقطع بفضلها كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ويفض من غلواء
 توجيهه ، ونوافقه على أنه اتكأ واتكل على ذي الرمة في طريقه ؛
 ومستأنسا بأنس رفيقه ، فما ترك له تشبيها الا نقله وصقله ... »
 وهذا اعتراف من القاضي الفاضل وشهادة على أن ذا الرمة قد أثر
 أثرا كبيرا في ابن المعتز الذي تتبع تشبيهاته بالنقل والصقل ...
 ويفضل صاحب كتاب المعاني أبو هلال العسكري ذا الرمة على
 ابن المعتز حين يوازن بين بيتيهما في وصف الحرباء :
 يقول ذو الرمة :

كان يدي حرباءها متشمسا
 يدا مذنب يستغفر الله تائب
 ويقول : وقد جعل الحرباء يصفر لونه .. البيتان وقد سبق
 لنا ذكرهما ، وقوله :
 « يصلى بها الحرباء للشمس مائلا »

ويقول ابن المعتز :
 كان حرباءها والشمس تصهره
 صال لنا من لهيب النار مقرر (٣)

ويعقب أبو هلال على ذلك بقوله : وهذا تشبيه مصيب أيضا
 الا أن للأول (ما قاله ذو الرمة) ماء وطلاوة ليس لذا (٤) ويظهر
 أيضا حب أبي العلاء المعري لذى الرمة في كثرة الاستشهاد بشعره

(١) زهر الآداب ج ٢ .

(٢) مشكلة العقم والابتكار للدكتور الامواني .

(٣) صال - يتدفقا بالنار .

(٤) المعاني ج ١ ص ٧ .

و ضرب المثل بحبه ، يقول من رسالة بعث بها الى أبى الحسن محمد بن سعيد بن سنان « تهدي الى حضرة الشيخ الجليل والده عضد الله الجماعة ببقائه سلام ذى الرمة على مى ، والحادرة على سعى (١) » .

ويقول ابراهيم بن العباس :

يمر الصبا صفحا بساكن ذى الغضا
فيصدع قلبى أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب ، وانما
هوى كل نفس حيث كان حبيبها

وقد أغار فيهما كما يقول أبو هلال على ذى الرمة فى قوله :

إذا هبت الأرواح من نحو جانب
به أهل مى زاد شوقى هبوبها
هوى تذرّف العينان منه وانما
هوى كل نفس أين حل حبيبها

بل لم يسلم شاعر ما ممن أتوا بعد ذى الرمة من تقليده والتأثر بصوره ، وهذا أبو نواس الشاعر المصور المبدع يستمد من ذى الرمة بعض معانيه وصوره التى ذكر عددا منها مهلهل بن يموت فى كتابه « سرقات أبى نواس » مثال ذلك قول ذى الرمة :

سقاء السرى كأس النعاس فرأسه
لدين الكرى من آخر الليل ساجد

سرق معناه أبو نواس فقال :

أبيض فضفاض الرداء أزهدرا
أسقته كف الليل أكؤس الكرى

وأصدق دليل على عمق ريته ، ونبوغه الفنى ، تتبع أمثال هؤلاء الأعلام لمعانيه ، وتأثرهم بشعره وشهادة عدد كبير من أهل

(١) رسائل أبى العلاء ص ٥٦ .

العلم بالفن واللغة حتى ان بعض النحاة واللغويين الذين لا تهمهم سوى الكلمات اللغوية ، والأساليب العربية العتيقة قد علقوا على شعره بما يفيد الاستحسان ، قال السيرافي وهو يعلق على بيت لذي الرمة من الأبيات التي استشهد بها سيويوه ، وهو : -

هجوم عليها نفسه غير أنه
متى يرم في عينيه بالشبح ينهض (١)

يفاجئته بسرعة فينظر اليه ، فجعله مفاجأة لنظره كشيء واحد رمى به ؛ « وهو من بديع الكلام وفصيحه » . ويقول محمد ابن سلام : أنشدت يونس النحوى قول امرئ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل (٢)

فزوى وجهه ، وجمع حاجبيه ، وقال : أخطأ مع احسانه ، ان الثريا لا تعترض وانما الاعتراض للجوزاء ، هلا قال : كما قال ذو الرمة .

وردت اعتسافا (٣) ؛ والثريا كأنها
على قمة الرأس بن ماء محلق
وقد أخذ هذا المعنى فيما بعد أبو القاسم الأنطاكي فقال :
كان الثريا ابن ماء علا
فضم الجناح ، ومد العنق

وفي العصر الحاضر اهتم بشاعرنا عدد من الباحثين نذكر منهم

-
- (١) الشبح - الشبح أى الشخص ، يصف هنا ذكر النعام (الظليم) بأنه يهجم على بيضه بنفسه ليحتم عليه فإذا رأى شخصا مقبلا نهض عنه .
(٢) أثناء الوشاح - المفرد ثنى أى انثناءاته ، المفصل - الذى فصل بين حياته بخرز أو غيره .
(٣) اعتسافا - على غير هدى ، ابن ماء - اسم طائر .

الدكتور شوقي ضيف الذي كتب عنه فصلا ضافيا في كتابه « التطور والتجديد في العصر الأموي » والدكتور محمد مندور الذي قام بدراسة صوتية لنماذج من شعره ، والأستاذ محمود محمد شاكر ، والمستشرق كارل بروكلمان في كتابه القيم : تاريخ الأدب العربي والدكتور محمد صبرى في كتابه « ذو الرمة » .

كيلاني حسن سنه

مراجع البحث

مراجع قديمة :

- | | |
|------------------|------|
| الأغاني | ١ - |
| البيان والتبيين | ٢ - |
| تاريخ الطبرى | ٣ - |
| التاريخ الكبير | ٤ - |
| تزيين الأسواق | ٥ - |
| الحيوان | ٦ - |
| خزانة الأدب | ٧ - |
| ديوان جميل | ٨ - |
| ديوان ذى الرمة | ٩ - |
| ديوان المجنون | ١٠ - |
| ديوان المعاني | ١١ - |
| رسائل أبى العلاء | ١٢ - |
| روضة العاشقين | ١٣ - |
| روضة المحبين | ١٤ - |
| زهر الآداب | ١٥ - |
-
- | | |
|------------------------------|--------------------|
| لأبى الفرج الأصفهاني | للجاحظ |
| لابن عساكر | لداود الأنطاكي |
| للجاحظ | للبيغدادى |
| تحقيق (د / نصار) | مكارتنى ١٩١٩ م |
| تحقيق / عبد الستار أحمد فراج | لأبى هلال العسكري |
| لابن الجوزى | لابن القيم الجوزية |
| | للحصري |

- ١٦ - شرح القصائد العشر للتبريزي
 ١٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة
 ١٨ - طبقات الشعراء لابن سلام
 ١٩ - طوق الحمامة لابن حزم
 ٢٠ - عيار الشعر لابن طباطبا
 ٢١ - قواعد الشعر لثعلب - تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي للمبرد
 ٢٢ - الكامل
 ٢٣ - مختارات الشنتمري للشنتمري - تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
 ٢٤ - مصارع العشاق ابن السراج
 ٢٥ - مقدمة ابن خلدون ابن خلدون
 ٢٦ - الموشح للمرزباني
 ٢٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان

مراجع حديثة :

- ٢٨ - أدب الطبيعة محمد عبد اللطيف السحرتي
 ٢٩ - ابن سناء الملك للدكتور أحمد فؤاد الأهواني
 ٣٠ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان
 ٣١ - تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان
 ٣٢ - التاريخ السياسي للدكتور حسن ابراهيم
 ٣٣ - تجارب شعرية كيلاني حسن سند
 ٣٤ - التطور والتجديد في العصر الأموي الدكتور شوقي ضيف

- ٣٥ - ثلاث مقالات فى الجنس لفرويد
- ٣٦ - الحب العذرى لموسى سليمان
- ٣٧ - الحب المثالى عند العرب د / يوسف خليف
- ٣٨ - الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام
(لعبد الله أنيس الطباع)
- ٣٩ - حديث الأربعاء د / طه حسين
- ٤٠ - الراعى النمرى د / محمد نبيه حجاب
- ٤١ - شعر الرعاة ترجمة د / صقر خفاجة
- ٤٢ - الشعر المصرى بعد شوقي
د / محمد مندور
- ٤٣ - اششوامنخ (ذو الرمة)
د / محمد صبرى
- ٤٤ - الطبيعة فى الشعر الأندلسى
د / محمد جودة الركابى
- ٤٥ - فجر الاسلام د / أحمد أمين
- ٤٦ - القبائل العربية القديمة والحديثة
(عمر كحالة)
- ٤٧ - من شعر الطبيعة فى الأدب العربى
(د / سيد نوفل)
- ٤٨ - مجلة الكاتب المصرى - المجلد الثانى سنة ١٩٤٦ فبراير
- ٤٩ - مجلة المجلة عدد (١٣ من مايو سنة ١٩٦٦)

الفهرس

٣	تصدير
٥	الباب الأول : ذو الرمة
٧	الفصل الأول : حياته ونشأته
٢٥	الفصل الثاني : ثقافته
٣٧	الباب الثاني : الحب في شعر ذي الرمة
٣٩	الفصل الأول : ذو الرمة العاشق
٦٥	الفصل الثاني : ملامح مي وصفاتها النفسية والجسدية
٨٥	الفصل الثالث : عالم الشاعر النفسي
١٣٣	الباب الثالث : الطبيعة في شعر ذي الرمة
١٨٣	الباب الرابع : المديح والفخر والهجاء في شعر ذي الرمة
٢٠٧	الباب الخامس : مميزات أسلوبه
٢٤٣	الباب السادس : منزلته الشعرية
٢٥٩	مراجع البحث

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٣٧٩